

المغرب و الأندلس

دراسات في التاريخ و الأركولوجيا

(العدد الثالث)

تقديم و تنسيق

ذ محمد حبيبي

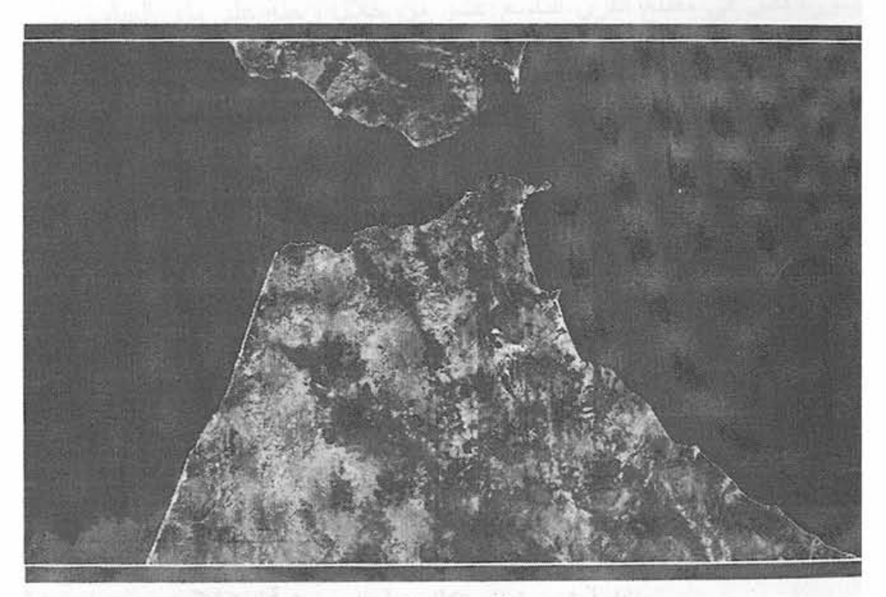
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان المغرب

امحمد بن عبود - ادريس بوهليلة - محمد حبيبي
عبد الحفيظ حمان - مصطفى غطيس - محسن شداد
مصطفى شقرون - محمد الشريف

المغرب و الأندلس

دراسات في التاريخ و الأركولوجيا

(العدد الثالث)



تقديم و تنسيق

د محمد حبيبي

منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان المغرب

الكتاب : المغرب والأندلس -3 -
منشورات : كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان
الطبعة الأولى : 2009
رقم الإيداع القانوني :2010 MO 0118
الطباعة : مطبعة الخليج العربي، شارع الحسن الثاني - تطوان
الهاتف : 05.39.71.02.25 / الفاكس : 05.39.71.05.37

فهرس الكتاب

تقــديم

يصدر هذا العدد الثالث من الكتاب الجماعي لأساتذة شعبة التاريخ و الحضارة بكلية الآداب العلوم الإنسانية ليؤكد رسوخ هذا المنبر العلمي والتواصلي بــين هيــأة التــدريس والبحث بالشعبة من جهة ومع/بين الطلبة وعموم القراء والمهتمين من جهة ثانية.

الكتاب الجماعي "**المغرب و الأندلس**" وعاء فكري معرفي متخــصص يــستجيب لحاجة القارئ إلى الاطلاع على مواضيع تتناول قضايا تاريخية متنوعــة وفــي أبعادهــا المختلفة، تتقاطع أحيانا وتتكامل أحيانا أخرى.

يضم هذا الكتاب مقالات تناولت قــضايا تاريخيــة مرتبطــة بمختلــف المراحــل التاريخية ارتكزت في كثير منها على دراسة وتحليل لوثائق أدبية وماديــة أركيولوجيــة، عمل الأساتذة الباحثين بشعبة التاريخ على استجلاء مضامينها وفك رموزها.

وفي هذا الصدد قدم **الأستا ذ محمد حبيبي** دراســة أركيولوجيــة للحــي الــسكني الموري بمدينة لكسوس الأثرية. يقع هذا الحي شمال المدينة و يرجع تاريخه إلــى نهايــة القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أجرى عليه الباحث الاسباني ميكيل طرديل حفريات أثريــة ما بين 1948 و 1950، ولكنه لم يعره الأهمية التي يستحقها واكتفى بإشــارة محــدودة، على الرغم من ضخامة منشآته وأهميته التاريخية بالنسبة للمرحلة المورية التــي ينتمــي إليها. فالمقالة التي خص بها الأستاذ محمد حبيبي هذا الحــي همــت الجانــب المعمــاري مرتكزا في ذلك على معطيات ميدانية مكنت من الوقوف علــى مراحــل تطــور الحــي وعلاقته بالمجال العمراني بالمدينة معتمدا على دراســة المعطيــات الخزفيــة المحفوظــة بمتحف القصبة بطنجة.

وانطلاقا من مجموعة من النصوص الأسطورية التي تجعل من مضيق جبل طارق منطقة تهافتت عليها الأمم القوية خلال العصور القديمة، يبين الأستاذ **عبد المحسن شــداد** الدلالات التي تحملها هذه النصوص. فهي ترمز إلى منافسة اقتصادية وثقافيــة مــا بــين العناصر الإغريقية من جهة والعناصر الفنيقية والقرطاجية من جهة ثانيــة. ويمكــن مــن خلالها أيضا رصد بعض المتغيرات والتطورات التي شهدتها المجتمعــات المحليــة. وإذا كان أمر تتبع منجزات وأعمال البطل هرقل الخارقة، وفق جدول زمني دقيق ضرب مــن المستحيل، فإن قراءة هذه النصوص الأسطورية تظــل مــادة ضــرورية لفهــم الحقــائق التاريخية المتعلقة بمرحلة مهمة من التاريخ القديم للمنطقة.

وفي مقالته حول ساحل المغرب الأطلنتيي فــي العــصر القــديم، عمــل الأســتاذ **مصطفى غطيس** على سبر أغوار النصوص التاريخية القديمــة حــول هــذا الــساحل ومميزاته الجغرافية في كتابات الرحالة القدامى. وتتميز هذه المقالة بكونها دراسة رصــينة لموضوع لم يحظ عند الباحثين في تاريخ المغرب القديم بالأهمية التي يــستحقها، علــى

الرغم من توفر المغرب على واجهة بحرية تمتد على أزيد من 3500 كلم، أثرت مرافئها ومراكزها البحرية في المجالات الاقتصادية والثقافية والدينية خلال العصر القديم، حسبما يؤكده الأستاذ مصطفي غطيس.

أما الأستاذ **مصطفى شقروف**، فإنه في مقالته يعيد الاعتبار لمدينة تشمس الأثرية التي تعتبر امتداد لمدينة ليكسوس، بعد الفتح الإسلامي. فهذه المدينة المغربية طواها النسيان وهدم معالمها الباحثون الأثريون الأجانب خلال فترة الحماية، إذ كان همهم الوحيد هو الوصول إلى الطبقات السفلى رغبة منهم في إبراز معالم ليكسوس والاستيطان اللاتيني وما قبله بها. اعتمد الباحث على نصوص عربية وسيطية تبرز أهمية المدينة وطرح إشكاليات مرتبطة بالتسمية والتوطين. وقد تمكن صاحب المقالة، من خلال استقرائه للنصوص، من إبراز بعض معالم المدينة والتي ستكشف عنها الأبحاث الأثرية الميدانية مستقبلا.

وتناول الأستاذ **محمد الشريف** موضوع حروب الاسترداد بالاندلس وإشكالياته التي لازالت محل جدال وبحث بين الباحثين لما لها من تأثير طبع شخصية إسبانيا الحديثة. يعود موضوع تاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية للواجهة ونحن نعيش هذه السنة تخليد إسبانيا لذكرى مرور أربع مائة سنة على طرد الموريسكيين من شبه الجزيرة الإيبيرية. الأستاذ الشريف سلط الضوء في دراسته على بعض إشكاليات حروب الاسترداد و أسباب نجاح هذه الحركة بالاعتماد على عوامل متعددة (اجتماعية وسياسية وديموغرافية وغيرها). كما دحض الأطروحات الدينية المتعصبة أو القومية المتطرفة التي تطبع غالبية الدراسات الإسبانية في الموضوع .

ومن جهة أخرى، فإن العلاقات الاجتماعية والدينية والتبادل الثقافي والفكري ما بين المسلمين والمسيحيين بالأندلس، التي جاءت في الدراسته القيمة للأستاذ **امحمد بن عبود**، شكلت نموذجا للتسامح والتعايش. فبفضل هذا التعايش وما نتج عنه من تلاقح عرقي وتواصل ثقافي وحضاري، سطع إشعاع الحضارة الأندلسية على أروبا. **الأستاذ بن عبود** تناول بالدراسة والتحليل الأسس الفكرية والاجتماعية والثقافية التي انبنى عليها هذا التعايش ودور المذهب المالكي الذي عرف كيف يتأقلم مع التغيرات التي عرفها المجتمع الأندلسي ليصبح مجتمعا متعدد العقائد.

أما مقالة الأستاذ **عبد الحفيظ حمان** فهي عبارة عن قراءة نقدية ومنهجية لجزء هام من كتاب الرحالة علي باي العباسي (دومينجو باديا) الذي خص به مدينة فاس وضمّنه وصفا دقيقا لمعظم جوانب الحياة اليومية بها في مطلع القرن التاسع عشر. وعمل الأستاذ حمان، في هذه الدراسة، على استخلاص ما يفيد المؤرخ من معلومات رغم ما تتضمنه هاته الرحلة الاستكشافية من أفكار مسبقة سادت في جل الكتابات الغربية ودراساتهم حول العالم الإسلامي. الدراسة رتبت المعلومات المتنوعة ؛ العمرانية والاقتصادية والاجتماعية

والثقافية، المتضمنة في النص لتضعنا أمام صورة واضحة المعالم لمدينة فاس في مطلـــع القرن التاسع عشر.

ويحاول الأستاذ **ادريس بوهليلة** في مقالته، حول أصول الحركات الاستقلالية فـــي المغرب المعاصر، تبيان مساهمة بعض العلماء والمثقفين في هذه الحركات منـــذ احـــتلال الجزائر، ابتداء من سنة 1246 هـ/1830 م. وتعمل الدراسة على التعريـــف بمـــواقفهم ومفهومهم للجهاد و شروطه و دور الحكام فيه.

نترك للقارئ الكريم متعة الاطلاع على الدراسات التي يحتويها هذا الكتاب والتـــي تساهم في فهم وملامسة مواضيع متنوعة وغنية من تاريخنا العريق، و نضرب له موعـــدا في العدد الرابع من كتابنا الجماعي " **المغرب و الأندلس**".

ذ . محمد حبيبي

ساحل المغرب الأطلنطي في العصر القديم

ذ. مصطفى غطيس

أجمع القدامى (سالوست وسطرابون وبلينيوس...)، والمحدثون (غزيل ومونطاني وبيرنار وريكمان...) على أن الظروف الطبيعية غير المواتية التي تميز الساحل المغربي جعلته أقل حظا في هبات الطبيعة، وبالتالي فإنه لم يقم بدور فعال في الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد.

وشاطئ المغرب الأطلنطي غير مناسب عموما للمساحلة ورسو السفن بسبب ظروفه المناخية والطبوغرافية كالرياح الشديدة والتماوج وندرة الخلجان والأشنخة...

غير أن الساحل المغربي يتوفر في بعض أجزائه على مواضع ملائمة للنشاط البحري أسس فيها القدامى بعض المحطات التجارية التي كانوا يتوقفون فيها خلال رحلاتهم. ولقد تطورت بعض هذه المحطات لتصبح مراكز بحرية هامة شهدت ازدهار المبادلات التجارية بين المغرب القديم وباقي بلاد الحوض المتوسطي. وتلقى المغرب تأثيرات هامة عبر هذه المراكز البحرية، شملت الميدان الاقتصادي والثقافي والديني.

1- المميزات الجغرافية لساحل المغرب الأطلنطي:

يعتبر الساحل المغربي الممتد ما بين رأس سبارطيل ووادي درعة ساحلا غير ضيافي. فمآويه غير مناسبة لرسو السفن التي كانت تضطر قديما للبحث عن مصبات الأنهار حيث عمليات الرسو كانت آمنة عندما يسمح الحاجز الموجي (la barre) بذلك، ولا يجعل هذه المصبات عبارة عن طرق ممتنعة.

وساحل المغرب الأطلنطي معرض للرياح وكذا لتماوج (la houle) أعالي المحيط خاصة، بصفة شبه دائمة. ويمتد هذا الساحل بشكل شبه مستقيم على مسافات طويلة، ويعتبر خطيرا بسبب الأمواج الضخمة التي تتلاطم على الشاطئ والتي لاتسمح بالنزول من السفينة إلا عندما يكون البحر رهوا، أو في الأماكن المحمية من الرياح بفضل الرؤوس والأشنخة [1].

---

[1] - LUQUET (A.), Note sur la navigation de la côte atlantique du Maroc, *B.A.M.*, IX, 1973-1975, pp. 279-302.

ويتكرر نعت "غير ضيافي وخطير" في كل الأوصاف التي وصلتنا عن ساحل المحيط الأطلنطي؛ ونورد من بينها على سبيل المثال الوصفين التاليين. فلقد جاء في كتاب :

HARDY (G.) et AURES (P.), *Les grandes Etapes de l'histoire du Maroc*, Paris 1921, p. 10 :

" يحد المغرب في الغرب المحيط الأطلنطي، وهنا أيضا نرى أنه من الصعب الوصول إلى الشاطئ الذي يحميه حاجز موجي خطير؛ (...)". وجاء في كتاب :

ولقد أفاض مونطاني (Montagne)[1] في حديثه عن الظروف المناخية والطبوغرافية للشواطئ المغربية الأطلنطية، وركز على العناصر الأساسية التي تتحكم في الحياة البحرية على الساحل الأطلنطي. ويعتبر الباحث الفرنسي التماوج (la houle) من أهم هذه العناصر؛ فعباب المحيط يشكل في رأيه أصعب حاجز في وجه الملاحة في هذه المياه. وينتج عباب المحيط غالبا عن المنخفضات الجوية التي تظهر غرب المحيط الأطلنطي، بالقرب من الشواطئ الأمريكية، وتتجه نحو أوربا الغربية والمغرب عن طريق الرياح الشمالية الغربية.

وغالبا ما يصل العباب إلى الساحل المغربي فجأة دون أدنى علامة في الجو تنذر بالعاصفة، وقد تكون السماء أحيانا صافية تماما قبل وصول العباب. وما أن يتشكل العباب حتى يستحيل الاتصال بالشاطئ، الشئ الذي يضطر السفن إلى البقاء في أعالي البحر، بعيدة عن الساحل، نظرا لمخاطر ما يسمى بالحاجز الموجي (la barre). ويمكن للعباب أن يفاجئ البحارة في أي وقت خلال الفترة الواقعة بين شتنبر وأبريل.

● **نظام الرياح:**

يعتبر مونطاني نظام الرياح أقل أهمية من العباب بالنسبة للملاحة. ويوجد الساحل الأطلنطي المغربي بصفة عامة بين منطقتين جويتين:

– **في الشمال**، بين طنجة ورأس كانطان تهب الرياح عامة من الشمال الغربي وشمال الشمال الغربي وكذا من الجنوب الغربي؛ وهي الرياح السائدة التي تهب بقوة خلال فصل الشتاء. ويهب نسيم البحر خلال النهار بانتظام واعتدال. ويمكن استغلال هذا النسيم بالنسبة للملاحة الشراعية، كما كان الشأن سابقا بالنسبة لأهالي منطقة الجديدة.

– **في الجنوب**، جنوب رأس كانطان يبدأ نظام الصابيات التي تهب من الشمال الشرقي، وهي السائدة طول السنة، وخاصة خلال الصيف. وإذا كانت الصابيات تلائم الملاحة البعيدة المدى، فإنها عكس ذلك لا تناسب ملاحة الصيد الساحلية لأنها تسبب في عباب قصير يعيق الملاحة المذكورة.

والحدود بين المنطقتين الجويتين غير واضحة بدقة، والرياح الغربية فيها تدوم أكثر من الصابيات خلال كل الفصول، وخاصة في فصل الشتاء.

وفي المنطقة المجاورة لرأس سبارطيل، كما في مضيق جبل طارق، تهب الرياح بشكل خاص من اتجاهين:

– رياح شمالية شرقية وشرقية، وهي عامة جافة وقوية؛

BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et industries indigènes à Rabat et Salé*, Paris 1920, p.65 :

"يفتقر شاطئ المغرب الأطلنطي بصفة عامة إلى فجوات وملاجئ (...). ولقد أشار الجغرافيون دائما إلى الطابع غير الضيافي للشاطئ المغربي (...)".

[1] - MONTAGNE (R.), Les marins indigènes de la zone française du Maroc, *Hespéris*, III, 1923, pp.178-180.

– رياح جنوبية غربية وغربية، وهي أكثر رطوبة وقوة عندما يوافق هبوبها مرور منخفض أطلنطي.

ونسيم البر والبحر في ساحل المغرب الأطلنطي يتميزان بالانتظام في هبوبهما خلال الصيف، كما يلاحظ تأثيرهما حتى في الشتاء. وفي الصيف يبدأ نسيم البحر في الهبوب في الساعة السابعة صباحا من الشمال الغربي، ويشتد هبوبه حوالي الساعة الثالثة بعد الزوال، ثم يهدأ عند غروب الشمس حيث يدوم هذا الهدوء خلال الليل. وخلال النهار يسبق نسيم بر ضعيف من الجنوب الشرقي هبوب نسيم البحر.

وفي الصيف تكون حالات السكون هي السائدة، مع تعاقب نسيم البحر ونسيم البر في اتجاه الجنوب، نحو أكادير.

وتعكس إحصائيات لوكي [1](A. Luquet) المتعلقة بحالات الجو في الساحل الأطلنطي، سيادة الرياح التي تهب ما بين الشمال والشمال الشرقي خلال شهري يوليوز وغشت في شاطئ الدار البيضاء والصويرة.

ومن بين حالات الجو المائة المسجلة في شاطئ الدار البيضاء، كان هبوب الرياح على الشكل التالي:

- 29 % من الشمال؛
- 13 % من الشرق؛
- 1 % من الجنوب الشرقي؛
- 3 % من الجنوب؛
- 3 % من الجنوب الغربي؛
- 6 % من الغرب؛
- 13 % من الشمال الغربي؛
- 19 % حالات سكون.

وفي شاطئ الصويرة، سجلت الحالات التالية:

- 12 % من الشمال؛
- 54 % من الشمال الشرقي؛
- 1 % من الشرق؛
- 0 % من الجنوب الشرقي؛
- 1 % من الجنوب؛
- 4 % من الجنوب الغربي؛
- 5 % من الغرب؛
- 6 % من الشمال الغربي؛

---
[1] - LUQUET (A.), Note sur la navigation ..., pp. 297-298.

- 17 % حالات سكون.

بينما سجلت في الدار البيضاء، خلال شهر يناير الحالات التالية:

- 13 % من الشمال؛
- 10 % من الشمال الشرقي؛
- 4 % من الشرق؛
- 3 % من الجنوب الشرقي؛
- 16 % من الجنوب؛
- 10 % من الجنوب الغربي؛
- 6 % من الغرب؛
- 6 % من الشمال الغربي؛
- 32 % حالات سكون.

وفي نواحي الدار البيضاء يشتد هبوب الرياح في شهري نوفمبر وأكتوبر. وبالنسبة للساحل الممتد بين العرائش وأگادير، فإن نسبة الرياح القوية تصل إلى19% في شهر يوليوز الذي تهب خلاله الريح الشمالية بنسبة 33%، والريح الشمالية الغربية بنسبة 19%.

- **التيارات البحرية:**

يجري بمحاذاة ساحل المغرب الأطلنطي تيار الكناري البارد، من رأس سان فانسان (St Vincent) حتى عرض الرأس الأبيض (Cap Blanc) في موريطانيا. وسرعة هذا التيار تبلغ في معدلها 0.1 عقدة، ونادرا ما تصل إلى عقدة واحدة. ويجري هذا التيار في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي. وفي بعض الأحيان يتقوى هذا التيار البحري برياح تهب من الشمال والشمال الشرقي، وقد تبلغ قوتها عقدتان في الصيف عند هبوب الصابيات. إلا أن الرياح التي تهب من الجنوب الغربي يمكن أن توقف تيار الكناري البحري بشكل مؤقت[1].

- **التماوج (la houle) :**

يعتبر التماوج ظاهرة دائمة ومميزة لساحل المغرب الأطلنطي وإفريقيا الغربية، حتى عندما يكون الجو هادئا. والعباب قوي في هذه الشواطئ بشكل شبه دائم، وهو ما يجعل المواصلات مع البر شبه مستحيلة خارج الموانئ وبعض المراسي[2]. ويوجد مكسر الموج (la barre de brisants) في المناطق التي يتراوح عمق قاع البحر فيها ما بين 7 و 15 م. ويبعد الحاجز الموجي (la barre) عن الشاطئ كلما زاد التماوج، وهذا ما

---

[1]- نفسه.

[2]- أشار البكري إلى شدة ارتفاع موج بحر أصيلا خلال هيجانه بقوله: " (...) وإذا ارتج البحر بلغ الموج إلى حائط الجامع. (...) ومرساها مأمون والمدخل إليه من الشرق، ويستدير بالمرسى من ناحية الجوف جسر من حجارة مخلوقة تكف عن السفن المرفأة فيها هيجان البحر". راجع **المسالك والممالك**، ج 2 ، ص ص. 790 - 791 .

يمكن وقوعه في أي فصل من فصول السنة؛ وتقع هذه الظاهرة مابين ستين ومائة يوم في السنة.

ويرتبط العباب على ساحل المغرب الأطلنطي بمجموعة المنخفضات الجوية المتعاقبة فوق شمال المحيط الأطلنطي، وهو أقوى في فصل الشتاء منه في فصل الصيف.

وبين مصب سبو ورأس كانطان، فإن التماوجات السائدة هي تلك التي تأتي من الشمال الغربي وغرب الشمال الغربي، بينما تلك التي تأتي من غرب الجنوب الغربي فهي ضعيفة، وأضعف منها تلك التي تأتي من الجنوب الغربي.

وبين رأس كانطان ووادي سوس، فإن نظام التماوج بخصوص هذا الشاطئ أكثر تقلبا وخاضع بصفة خاصة لأشكال الملاجئ والمراسي.

فآسفي محمية من العباب الآتي من الشمال، غير أنها تتلقى تماوجات الجنوب الغربي. والصويرة محمية نسبيا من التماوجات الآتية ما بين الشمال الغربي والجنوب الغربي، اللهم إذا كانت قوية.

والتماوجات المألوفة هي تلك التي يتراوح علوها ما بين 0.5 م و 1.50م. وهو العلو الذي تمت ملاحظته خلال 168 يوم في السنة الواحدة، ويصل أقصى عدد هذه الأيام بالنسبة للشهر الواحد في ماي(21 يوما)؛ وفي يوليوز وغشت (21 يوما)؛ بينما يصل عدد هذه الأيام أدناه في يناير – فبراير (8 أيام).

والعباب الذي يزيد ارتفاعه عن 1.50م، يلاحظ خلال 94 يوما في السنة، ويصل أقصى عدد هذه الأيام في يناير– فبراير (12– 13 يوم)، وأدناه في يوليوز (يومان)[1].

ولقد لخص مونطاني (R. Montagne)[2] وصفه لساحل المغرب الأطلنطي بقوله أن هذا الساحل غير ملائم للملاحة. وميز الباحث بين ناحيتين، الجزء الشمالي الذي يمتد حتى رأس كانطان، وهو فقير من حيث المآوي، غير أن نظام الرياح فيه مناسب نظرا لكونها تهب باعتدال. أما الجزء الجنوبي فيشتمل على مواضع محمية طبيعيا من البحر، غير أنها معرضة لرياح قوية لا يمكن للسفن الشراعية الصغرى تحملها.

أما لوكي (A. Luquet)[3] فبعد دراسته لنظام الرياح والتماوج والتيارات البحرية في ساحل المغرب الأطلنطي، خلص إلى القول بأن الظروف المواتية للملاحة في الساحل المذكور تتوفر ما بين شهري ماي وشتنبر. ففي هذه الفترة تستفيد السفن من الصابيات التي تنشط في هذه المدة، كما يبرز أكثر تأثير نسيم البر ونسيم البحر، وتهدأ وتقل بصفة عامة الرياح القوية التي تهب من اتجاهي الجنوب الغربي والشمال الغربي.

---

[1] - LUQUET (A.), Note sur la navigation ..., p. 299.

[2] - MONTAGNE (R.), Les marins indigènes..., pp. 180-182 ; ONRUBIA PINTADO (J.), Les relations entre les îles Canaries et l'Afrique du Nord pendant les temps préhispaniques. Archéologie et ethnohistoire d'une aire marginale, *TLAPEMO*, 1985, pp. 1-23.

[3] - LUQUET (A.), Note sur la navigation ..., p. 302.

وإذا كانت عوامل المناخ وأحوال المحيط قد تحكمت وما زالت تتحكم في الملاحة البحرية، فإن طبوغرافيا ساحل المحيط الأطلنطي المغربي اكتست أهمية خاصة في عملية اختيار القدامى لمراسيهم، منذ محاولاتهم الأولى للإبحار في هذه المياه. وجلي أن شواطئ المغرب الأطلنطية عرفت تغيرات هامة منذ الزمن الجيولوجي الرابع[1]، شأنها شأن باقي سواحل القارات الأخرى.

فخلال العصرين الحجريين القديم والحديث، كان مستوى البحر دائم التغير صعودا وهبوطا بمعدل يمكن لجيل واحد أن يلاحظه. « وتشير الدلائل الميدانية إلى أن ثمة مواقع أثرية تنتمي إلى أزمنة مختلفة تمتد من 2000 إلى 50000 سنة قبل عصرنا، ما زالت موجودة على الرصيف القاري تحت المياه، مما يعني أنها قد شهدت عمليات غمر وانحسار... [و] ثمة قدرا كبيرا من المعلومات الجديدة كليا في انتظار اكتشافنا لها تحت مياه البحر. ذلك أن الرصيف القاري لليابسة والمغمور في المياه تبلغ مساحته حجم قارة إفريقيا...»[2].

وتتجسد التغيرات التي عرفها شاطئ المغرب الأطلنطي، على سبيل المثال، في الانهيار الملحوظ الذي عرفته بعض أجزاء ساحل عبدة والشياظمة خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، والذي كان من بين نتائجه غمر مياه المحيط لقاعدة تحصينات آسفي من جهة الشرق؛ وقد كان بإمكان الزائر أن يسير بجانب هذه التحصينات في أواسط القرن نفسه. وحدث سكان الصويرة تيسو (Ch. Tissot)[3] عن التغير الذي عرفه شاطئ مدينتهم، بحيث كانت قطعان مواشيهم تعبر خلال الجزر بسهولة المسافة الفاصلة بين ساحل القارة والجزيرة، وذلك قبل نصف قرن من زيارة تيسو لهذه المنطقة. بينما اليوم، يقول تيسو في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر، يصل عمق البحر في نفس مكان العبور ما بين أربعة وخمسة أمتار. ويخلص تيسو إلى القول بأن شاطئ المنطقة عرف انهيارا سريعا، ومن ثم افترض الباحث الفرنسي أن الساحل الممتد من آسفي إلى رأس سيم احتضن خلال القرن السادس ق.م. بين المحيط الأطلنطي ومرتفعات الساحل الحالي مجموعة من المستنقعات غذتها أنهار تانسيفت والمزويد والقصوب، وأن اختفاء هذه المستنقعات قد يرجع إلى انهيار الجرف القاري وغمر مياه المحيط للساحل على مسافة

---

[1]- يشير محمد رضوان العزيفي إلى بعض هذه التغيرات المتمثلة في انفصال جزيرة الصويرة عن اليابسة خلال الزمن الجيولوجي الرابع، مكونة مع الجزر الأخرى القريبة أرخبيلا صغيرا... وجزيرة المحمدية التي اتصلت باليابسة...؛ راجع: "الفينيقيون في جزيرة الصويرة"، **الصويرة**، الذاكرة وبصمات الحاضر: أعمال الأيام الدراسية 26 - 27 - 28 أكتوبر 1990 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير؛ الدار البيضاء، 1994، ص. 68 ، الهامش (52)، وص. 74، الهامش (75)؛ والخريطة رقم 1 و2: ص ص. 75- 76 .

[2]- ن.س. فليمنغ، « تغيرات مستوى البحر والقشرة الأرضية وعلاقتها بالاستقرار الساحلي: التحدي والاستجابة»، في: **البحر والتاريخ**، عالم المعرفة، العدد: 314 ،أبريل 2005 ،ص ص. 53 - 54 .

[3] - TISSOT (Ch.), Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de l'Institut de France,* 1ère série, t. IX, Paris 1878, pp. 139-322.

قدرها تيسو ما بين 15 و 20 مترا خلال 23 قرنا. وتدعم عملية سبر عمق المحيط بمحاذاة الشاطئ مابين آسفي ورأس سيم افتراض تيسو على حد قوله بحيث يتراوح هذا العمق ما بين 9 و 20 مترا، وذلك على بعد مسافة هامة من البر.

ولقد أثبتت الدراسات التي تمت حول الملاحة المسيحية خلال العصر الوسيط على طول الساحل الأطلنطي الإيبيري والمغربي، أن طبيعة المنطقة عرفت تغيرات شتى بالمقارنة مع ما هي عليه اليوم. وشملت هذه التغيرات شكل الشواطئ وخطوطها ومصبات المجاري المائية وكذا التيارات البحرية وحركات المد والجزر[1].

وعرفت الواجهة البحرية الأطلنطية في المغرب تطورات هامة منذ العصر القديم، شأنها شأن الواجهة المتوسطية. فتمودة مثلا كانت أقرب إلى شاطئ البحر مما هي عليه الآن، نظرا لظاهرة الإرمال التي عرفها شاطئ مرتيل في هذه الجهة[2]. ومجموعة هامة من المواضع الساحلية التي كانت تمكن السفن من الرسو لم تعد قادرة على إيواء هذه السفن. ويمكن اعتبار موضع مولاي بوسلهام نموذجا لهذه التغيرات. فلقد أرمل مرسى مولاي بوسلهام بفعل التيارات البحرية بعد أن كان، حسب الخرائط البحرية القديمة، خليجا مفتوحا على البحر[3].

وحسب بعض الشهادات الشفوية التي رجح مونطاني (R. Montagne)[4] صحتها، فإن عددا من القرى التي كانت عامرة فيما مضى قد اندثرت في نواحي ماسة وطمرتها الرمال، بما فيها رباط ماسة[5].

ونظرا لتضاريسه الوعرة لم يتوفر شاطئ المغرب الأطلنطي قديما على موانئ بالمعنى الصحيح للكلمة، وظلت مراسيه في العصر القديم نادرة. فهذا الشاطئ معرض لرياح شمالية غربية وجنوبية غربية دائمة، ويفتقر إلى نتوءات هامة تمتد في البحر، أو إلى خلجان عميقة لإيواء السفن، باستثناء العرائش والمهدية وسلا وأزمور الواقعة عند

[1] - PICARD (Ch.), *L'océan Atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade*, Paris 1997, pp. 27 ; 29.

[2] - مصطفى غطيس، **تمودة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، I ، 1991، ص. 69 ؛ و
ROSENBERGER (B.), Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'oued Tensift, *Hespéris-Tamuda*, VIII, 1967, p.25 :
«(...) يبدو شبه مؤكد أن إرمال الشواطئ ازدادت حدته منذ بضعة قرون. ولم تكن الظروف الطبيعية منذ خمسة أو ستة قرون خلت غير ملائمة كما هي اليوم».

[3] - PICARD (Ch.), *L'océan Atlantique*..., pp. 27; 29;57-60; ANDRÉ (A), *Le littoral atlantique marocain, étude de géographie physique*, Travaux du C.G.E.R.R. n°6, Univ. De Poitiers 1975, pp.57-76.

[4] - MONTAGNE (R.), Les marins indigènes..., p. 196.

[5] - انظر: **كتاب الجغرافيا لابن سعيد**، ص. 123 .

مصبات الأنهار الهامة التي مكنتها من مآوي كانت تقصدها السفن؛ ويتعلق الأمر باللكوس وسبو وأبي رقراق وأم الربيع[1].

2- وصف البحر المحيط وساحل المغرب الأطلنطي في بعض المصادر القديمة:

أ) وصف البحر المحيط:

أفاض الشاعر الإغريقي هيزيود في ديوانه **"نسب الآلهة"** (*Théogonie*) في وصف البحر المحيط الذي عظمته إلهات الفن (les Muses)، وتحدث عن خلقه. ففي البداية، حسب هيزيود، أنجبت الأرض (غايا) (Gaia) ندا لها متمثلا في السماء المزينة بالنجوم القادرة على تغطية غايا بكاملها... ثم خلقت الأرض بعد ذلك الجبال، مقام الآلهة الممتع... وتعانقت الأرض والسماء بعد ذلك ثم أنجبت المحيط ذي الدوامات العميقة... ذلك النهر الذي لا نظير له، ذو المجرى العميق...[2]

وإذا كان المحيط عند هيزيود، هو الابن البكر لغايا (Gaia) وأورانوس (Ouranos)، وأكبر الجبابرة سنا، فإن هومرس وصفه معتمدا في ذلك ربما على مصدر أقدم، بـ « أب الآلهة »[3]، بل و بـ «أب كل الكائنات»[4]. وهو ما اعتبره البعض إشارة أولية للنظرية القائلة بالأصل البحري للحياة.

ولم يتصور الإغريق القدامى المحيط بحرا شاسعا، بل اعتقدوا أنه عبارة عن نهر يحيط بالأرض، لامنبع له ولا مصب... ومثله هومرس كنهر يحيط بالأرض، ووضع منابعه في القسم الغربي منها[5]. وميزه في الأوديسا عن البحر : « بعد أن خرجت سفينتنا من مجرى نهر أوقيانوس، ووصلت إلى أمواج البحر الشاسع، (...)»[1].

---

[1] - TISSOT (Ch.), Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, pp. 221-222 ; ONRUBIA PINTADO (J.), Les relations entre les îles Canaries et l'Afrique du Nord..., p.8 ;

وعن ظروف الملاحة البحرية في سواحل إفريقيا الغربية وشاطئ المغرب الأطلنطي خلال العصر القديم، وكذا المميزات المحتملة للسفن التي قد تكون ارتادت هذه الشواطئ؛ راجع:

MAUNY(R.), *Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Histoire et archéologie,* Paris 1971, pp. 85-91 ; LUQUET (A.), Note sur la navigation ..., pp. 301-302.

[2] - HÉSIODE, *Théogonie*, Texte établi et traduit par P. Mazon, Paris 1964, v. 20 ; 130-134; 242 ;265 ; RAMIN (J.), *Mythologie et géographie,* Paris 1979, p.17 ; OVIDE, *Les Métamorphoses*, I, Ch. 1 :

« (...) ثم، تنفيذا لأمره [الإله]، تدفق موج البحر وارتفع نتيجة هبوب الرياح السريعة، وشكل حزاما يحيط بشواطئ الأرض (...)».

[3] - HOMERE, *ILIADE*, XIV, 201-202; Traduit et présenté par M. Meunier, Paris 1972 :

«(...) إني [هيرا] أريد الذهاب إلى أقاصي الأرض المغذية، لزيارة المحيط أبي الآلهة، وطيطيس (Téthys) أمها، (...)».

[4] - HOMERE, *ILIADE*, XIV, 245-246 :

«(...) لو كان إلها آخر من الآلهة الأزلية، لتمكنت [النوم: Sommeil] من تنويمه بسهولة، وإن كان مجرى النهر المحيط بنفسه، وهو أبو كل الكائنات (...)».

[5]- راجع تعليق M. Reinaud على نص هومرس في جغرافية أبي الفداء:

وظل وصف المحيط عند الإغريق يقترن بالبعد، كما يتجلى ذلك في عدة أناشيد هوميرية.

وبالنسبة للرومان، لم يكن إسم المحيط « *Oceanus* » مرادفا لاسم بحر « *mare* ». وكان هذا الأخير يستعمل لتسمية " البحر الأبيض المتوسط"، أو "البحر الأسود" و "البحر الأحمر"، أو الوسط البحري بصفة عامة. وتردد استعمال كلمة "بحر" في المؤلفات اللاتينية بشكل يفوق بكثير استعمال كلمة "محيط" التي كانت تطلق فقط على "البحر الكبير الخارجي" الذي يحيط بالعالم، والذي نظرا لبعده الكبير ظل شبه مجهول.

وفي الأدب اللاتيني يتجلى لنا المحيط في صورتين رئيسيتين: فهو إما إله أو عنصر جغرافي. وهذان المفهومان متداخلان ومرتبطان أشد الارتباط، لأن الإله المحيط ما هو في الواقع إلا تجسيد لقوة طبيعية.

وكان المحيط يمثل في ميثولوجيا الرومان "الإله الأب" الذي وجد قبل جيل الأولمبيين (les Olympiens). وأوصافه الأكثر ترددا في النصوص اللاتينية هي: (*senex*) و (*pater*) ، كما ورد ذلك مثلا في أشعار فرجيل (Virgile) : «*Oceanus pater rerum* » ، «المحيط، أبو الكائنات، وأبو الكون »[2].

ودرست بوليان[3] (A. Paulian) كيفية تصور اللاتينيين للمحيط في الميدان الأدبي، وتوقفت عند المميزات التي تميز المحيط عن البحر المتوسط والتي يمكن حصرها في ترامي أطرافه (*ingenus*) وعنفه. فلقد استغل المؤلفون اللاتينيون صورة المحيط للتعبير عن اتساع مجال غير محدود. فعمق المحيط الذي لا حد له، يفوق في رأيهم لانهائية السموات. وفي هذا السياق، استعمل الشاعر مرسيال (Martial) صيغة « عد أمواج المحيط » « *Oceani fluctus numerare* » للتعبير عن "عدد لا يحصى".

وهناك خاصية أخرى تميز المحيط عن البحر المتوسط. فبخلاف هذا الأخير الذي هو بحر داخلي تحيط به الأراضي، كما يدل على ذلك اسمه، يحيط المحيط بالعالم ويحد به من جميع الجهات، فهو بالتالي نهاية العالم[4].

Géographie d'Aboulféda ; Traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissements par M. Reinaud ; t. II, 1ère partie, Paris 1848, p. 23, n.3.

[1] - HOMERE, *ODYSSEE*, XII, 1-2 : « Quand nous avons quitté le cours de l'Océan (Ωχεανος), nous voguons sur la mer (θαλαττα) (…)».

[2] - VIRGILE, *Les Géorgiques*, IV, 380 ; Traduction, chronologie, introduction et notes par M. Rat, Paris 1967 ;

RAMIN (J.), *Mythologie et* géographie, Paris 1979, pp. 17-26.

[3] - PAULIAN (A.), Le thème littéraire de l'Océan, *Caesarodunum* n° 10, *Actes du Colloque « Du Leman à l'Océan »*, Tours 1975, pp. 53-58.

[1] - انظر على سبيل المثال ما كتبه الشاعر مانيليوس، المعاصر لأغسطس، في النشيد الرابع من قصيدته: «(...) إن الأرض الطافية وسط الكون محاطة بالمحيط الذي يضمها بين أذرعه السائلة (...)، وهو إكليلها (...)»:
MANILIUS, *Astronomiques*, Paris 1843.

وعن هذه الحياطة، كتب أفيينوس (Avienus) في **"وصفه للعالم"**: « تحيط قعـور البحر العدو بالأرض من جميع أنحائها. والبحر الهائج هو نفسه في أي مكان، لكنه ينعـت بألف إسم حسب البلاد العديدة التي يحيط بشواطئها »[1]. والمحيط بحر لا قعر له، وشاسـع لا حد له، حسب وصف هيملكون الوارد في كتاب " **الجهات البحرية**". وهو البحر الذي لم يقد فيه السفن أحد، ومعروف بقلة الرياح وكثرة الضباب والسحاب[2].

والمحيط هو أكبر البحار وخزان البحر الداخلي، وهو أبو بحرنا المتوسط. وبفـضل قوته، حفر المحيط معظم الخلجان (البحار) الخارجية وتغلغل في الأراضـي. ثـم تحـدث أفيينوس بعد ذلك عن المحيط الأطلنطي ووحوشه البحرية وظروف الملاحة فيـه، دائمـا حسب هيملكون[3].

ولخص بلوتارخس في كتابه عن سيرة طيزي (Thésée)[4]، كيفية تمثيـل القـدامى للأراضي التي لم تكن قد اكتشفت بعد، وهو يخاطب صـديقه صوصـيوس صـينيكيون (Sossius Sénécion):«في أطالسهم، يضع الجغرافيون البلاد التي يجهلونها في أطراف خرائطهم ويكتبون بجانب بعضها: "فيما وراء ذلك لاتوجـد إلا منـاطق قاحلـة تـسكنها حيوانات ضارية"؛ أو "مستنقعات يستحيل الإبحار فيها"؛ أو " la Scytie المهجورة نظـرا لبردها القارس"؛ أو"البحر المتجمد".

---

[1] - AVIENUS, *Description de l'Univers. Les régions maritimes,* Paris 1843, p.11.
فلقد سماه الإغريق بـ "المحيط"، و"البحر الخارجي"، و"البحر الكوني"، و"الأطلسي"، و"الأحمر"، لأن سواحله مسكونة بسكان يصفون أنفسهم بالحمر، وسماه أوريبيد (Euripide) بـ "بحر الأرجوان"...؛ راجع:
GATTEFOSSÉ (J.), L'Atlantide et le Tritonis Occidental, *Bulletin de la Société de Préhistoire du Maroc,* 6è année, n° 2, 2è sem., 1932, pp.53-139.
وعن الأسماء العديدة التي سمي بها البحر المحيط راجع: الإدريسي (**نزهة المشتاق**، ج 1) الذي سمى المحيط الأطلنطي بعدة أسماء:«البحر الكبير المحيط بالجهة الغربية من كرة الأرض؛ البحر الأعظم (ص. 221)؛ البحر الزخار (ص. 235)؛ البحر الملح (الشديد الزرقة) (ص. 239)؛ البحر المظلم (ص.240)...»؛ وراجع أوصاف القزويني في **عجائب المخلوقات**، وأبا الفداء في **تقويم البلدان**، وأبا حامد الأندلسي في **تحفة الألباب**، والمسعودي في **مروج الذهب**، والزياني في **الترجمانة الكبرى**...

[2]- AVIENUS, *Oræ Maritimæ,* pp. 127-129 :
«(...) إذا اتجهنا من العمودين إلى الغرب نجد هاوية لا حد لها؛ فالبحر يمتد بعيدا... هذا ما رواه هميلكون. ما من أحد قاد سفنه نحو هذا البحر نظرا لانعدام الرياح فيه لدفع السفينة... وانتشار ضباب أبدي على مياهه، وتعتيم الغيوم لنهاره... ويخيم على هذا البحر ذعر شديد نظرا للوحوش الكثيرة التي تسبح في مياهه. وحكى القرطاجي هميلكون أنه رآها فيما مضى في المحيط، وأنه يعرفها بالتجربة».
ولقد أورد ابن خلدون في مقدمته وصفا للبحر المحيط يشبه إلى حد كبير وصف أفيينوس بقوله:«(...) وهذا كله مفقود في البحر المحيط. فلذلك لا تلج فيه السفن لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي إلى الرجوع إليها؛ مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة الممانعة للسفن في مسيرها؛ وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها. فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها»؛ راجع: **المقدمة**، ص.58.

[3] - AVIENUS, *Oræ Maritimæ,* pp. 127-129.

[4] - PLUTARQUE, *Vies,* I, Thésée, I, 1.

ولقد وصف البحاثة الفرنسي بيرار (V. Bérard)[1] في مؤلفه "أسفار أوليس البحرية" أحسن وصف الصورة التي تشكلت في أذهان القدامى بخصوص بحر المغرب الملئ بالعجائب والذي تعيش على شواطئه كائنات خرافية ومتوحشون وآلهة.

ب) وصف ساحل المغرب الأطلنطي:

لقد تطورت معرفة الإغريق بخصوص الشواطئ الأطلنطية تدريجيا منذ إبحار الإغريقي كولاييوس (Kolaîos) لأول مرة فيما وراء العمودين، بحكم الصدفة، في النصف الثاني من القرن السابع ق.م. ونظرا لمنع القرطاجيين منافسيهم من ارتياد الشواطئ الأطلنطية، فإن الإغريق لم يتمكنوا من اكتشاف هذه الشواطئ إلا خلال الفترة الممتدة ما بين حوالي 630 – 620، و 500 ق.م.

فحوالي 500 ق.م.، وضع هيكاطي الميليتي (Hécatée de Milet) خريطة ضمنها وصفا للمعمور شمل عالم الحيوانات وعادات السكان وتقاليدهم ومواضيع أخرى. ولقد جمع هذا المؤلف معلوماته هاته إما من خلال أسفاره، وإما من خلال ما حدثه به بعض المخبرين. ويتجلى من المعلومات المتعلقة بشمال غرب إفريقيا، حسب غزيل[2] (S. Gsell)، أن هيكاطي لم يزر المنطقة المطلة على المحيط. ولم تصل إلينا هذه المعلومات التي جمعها الإغريقي في مؤلفه إلا عن طريق ما أورده إيتيان البيزنطي (Etienne de Byzance)، وهي نادرة فيما يخص المنطقة التي تعنينا بحيث لايتضمن النص المذكور إلا اسمي مدينتين: «Thiggè، مدينة ليبية»، و «Thrigkè، مدينة واقعة في نواحي العمودين». ويجوز أن تطابق Thiggè مدينة طنجة القديمة، أما Thrigkè فقد تطابق مدينة ساحلية صغيرة كانت توجد، حسب سطرابون[3] بالقرب من رأس Kôteis (سبارطيل)، والتي كان الباربار يسمونها Trigx. ولقد سميت هذه المدينة باسم آخر، ربما من أصل فنيقي: Lygx، أورده الجغرافي أرتيميدور (Artémidore) الذي انتقد إيراطوسطين حينما خلط هذا الأخير بينها وبين ليكسوس (Lixos).

ويخبرنا مرسيان الهرقلي (Marcien d'Héraclée) أن أمير البحر تيموسطين (Timosthène) في عهد بطليموس الثاني (283– 246 ق.م.)، كان يجهل المناطق

---

[1] - BERARD (V.), *Les navigations d'Ulysse.* 3 : *Calypso et la Mer de l'Atlantide*, n^lle éd., Paris 1971, p.20 :

«(...) بحر المغرب هذا ملئ بالعجائب، وتحده الوحوش والمجتمعات الباربارية والآلهة. لكنه خال من البحارة على ما يبدو، فلا وجود لقرصان ولا شراع البتة. وعلى سفن أوليس، لم يسمع أبدا صوت الرقيب وهو يرصد في الأفق مغنما أو عدوا (...)».

[2] - GSELL (S.), Connaissances géographiques des Grecs sur les côtes africaines de l'Océan, *Mémorial H. Basset*, Paris 1928, pp. 293-312.

[3] - STRABON, XVII, 3.2.

الإفريقية الواقعة فيما وراء المضيق، بل وحتى تلك التي كانت تمتد ما بين المضيق وقرطاجة[1].

وحسب توفنو (R. Thouvenot)[2]، فإن القدامى تعرفوا على ساحل المغرب الأطلنطي في عهد متأخر نسبيا. ويرد توفنو ذلك إلى أن الحضارات الكلاسيكية الأولى، وبصفة خاصة حضارة الفراعنة في مصر والحضارة البابلية ظهرتا وتطورتا في أقصى الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وبالقرب من الخليج الفارسي؛ كما ترعرعت الحضارة الهيلينية حول بحر إيجه والبحر الإيوني. وباستثناء اكتشافات كل من بيطياس (Pythéas)[3] وأوطيمينيس (Euthyménès)[4]، وكلاهما ينتميان إلى حاضرة مرسيليا، فإن جهود القدامى انصرفت نحو اكتشاف البلاد المطلة على المحيط الهندي كالهند والصين المعروفة بثرواتها الهائلة في القدم.

ولا تشتمل مؤلفات القدامى التي تحدثت عن ساحل المغرب الأطلنطي إلا على أسماء المواضع، باستثناء إيراطوسطين (Eratosthène) الذي تحدث خلال وصفه لهذا الساحل عن الضباب الذي ينتشر على الشاطئ في الصباح والعشية، ويعيق الملاحة في هذه المياه؛ وپلينيوس الذي وصف منعرجات نهر اللكوس عند مصبه، وأهمية نهر سبو والميناء النهري الموجود عند مصب أم الربيع. أما طبيعة هذا الساحل، فلم يتناول وصفها أحد، من حيث الارتفاع أو الانخفاض، وهل الشاطئ صخري أو رملي، كما لم توصف طبيعة الموج الساحلي والرصيف القاري، وقرب قاع البحر في بعض المناطق، الخ. وكل ذلك يعكس، حسب توفنو[5] عدم اهتمام القدامى بالساحل المغربي الأطلنطي.

وسنورد فيما يلي ترجمة أهم النصوص القديمة التي تناولت وصف ساحل المغرب الأطلنطي، باستثناء رحلة حنون التي خصت بعدد هائل من الدراسات، وذلك منذ عصر النهضة الأوربية. ولعل ما يميز هذه الرحلة هو اختلاف الباحثين فيما يتعلق بصحتها وتاريخها وأهميتها. ولقد انكب اهتمام الباحثين بخصوصها عموما على أمرين، أولهما: دراسة ظروف الملاحة البحرية القديمة على طول الساحل المغربي الأطلنطي، وثانيهما:

---

[1] - FABRE (P.), Les Grecs à la découverte de l'Atlantique, *R.E.A.*, XCIV, 1992, n° 1-2, pp.11-21.

[2] - THOUVENOT (R.), La côte océanique du Maroc, ce qu'en ont connu les Anciens, *Bulletin de l'Enseignement public,* 38e Année, n° 215,4e Trimestre 1951, pp.38-48.

[3] - BROCHE (G.-E), *Pythéas le Massaliote. Découvreur de l'Extrême Occident et du Nord de l'Europe (IVe S. av. J.-C.)*, Paris 1935.

[4]- أبحر Euthyménès، وهو إغريقي مرسيلي الموطن، أمام ساحل المغرب الأطلنطي متجها نحو الجنوب إلى أن وصل إلى مصب نهر تعيش فيه أفراس النهر والتماسيح، اعتقد أنه النيل. وتساءل غزيل عن مدى مطابقة هذا النهر لذلك الذي ذكره حنون (الساقية الحمراء أو السينغال) وحيث تعيش نفس الحيوانات؟ راجع:
GSELL (St.), *Hérodote*, Alger 1915, p. 210; CARY (M.) et WARMINGTON (E.-H.), *Les Explorateurs de l'Antiquité*. Paris 1932. pp. 51-61 ; 69.

[5] - THOUVENOT (R.). La côte océanique du Maroc, ...pp. 38- 48.

تحقيق الترجمة الإغريقية لنص الرحلة التي ترجع إلى القرن II أو I ق.م. والتي وصلت إلينا عبر مخطوط هيدلبرغ (Heidelberg) الذي يرجع إلى القرن IX م[1].

ولقد كذب بعض الباحثين صحة الرحلة، كموني (R. Mauny)[2] الذي شك في قدرة أسطول حنون على تجاوز رأس جوبي (Juby) بل وحتى رأس نون. وكان موني قد بين أن السفن العربية قد عجزت بدورها عن تجاوز الرأسين المذكورين، وذكر أن جزر الكناري المعروفة خلال العصر القديم لم يعد اكتشافها البحار الجنوي Lanzarote Malocello إلا في 1336.

وذكر البكري أن آسفي كانت « آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من عين الأندلس إلى ناحية القبلة، وليس بعده للمراكب مذهب»[3].

أما رأس بوجدور فيبدو أنه لم يتجاوز قبل الحملة البرتغالية التي قادها Gil Eanes سنة 1434 في عهد هنري الملاح. ويعتبر اقفرار الشواطئ المغربية الأطلنطية الصحراوية ونظام الرياح والتيارات البحرية التي تتجه تقريبا بشكل دائم نحو الجنوب من العوامل الأساسية التي تفسر بطء هذا الاكتشاف. وكان البرتغاليون قد تغلبوا على صعوبة الرجوع بالإبحار في عرض البحر ما بين 30° و40° غرب خط غرينتش بفضل تطور صناعة السفن وتحسن ظروف الملاحة واختراع البوصلة.

واجتهد فريق ثان منذ القرن XIX في محاولة تأكيد صحة الرحلة ووصول حنون إلى ساحل إفريقيا المدارية أمام جبل Kakoulima في غينيا، أو أبعد من ذلك بكثير، إلى جبل الكامرون وجزيرة Fernando Po.

▪ **هيرودوت:**

ذكر هيرودوت[4] أن ليبيا (إفريقيا) محاطة بالبحر من جميع الجهات، باستثناء الجزء الذي يحد بآسيا، وأن ملك مصر نقاو كان أول من أعطى الدليل على ذلك. فبعد انتهائه من شق القناة الممتدة من النيل إلى الخليج العربي (البحر الأحمر)، بعث سفنا محملة ببحارة فينيقيين كلفهم بالرجوع إلى مصر عن طريق عمودي هرقل والبحر الجنوبي (المحيط الأطلنطي). وبعد وصفه لهذا الطواف، قال هيرودوت بأنه يعتبر الأول من نوعه

---

[1] - DESANGES (J.), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Ecole Française de Rome, 1978, pp. 39- 40 ; 83.

[2] - MAUNY (R.), *Les navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1443)*, Lisbonne 1960, pp. 29-30.

[3] - **المسالك والممالك**، ج1 ،ص ص. 88 - 89 :« وقال أهل الخبر إن الشيطان نزغ بين بني سام وبني حام فوقعت بينهم مناوشات وحروب كانت الدائرة فيها لسام وبنيه، وكان من آخر أمر حام أن هرب ...ومضى على وجهه يريد المغرب حتى انتهى إلى السوس الأقصى إلى موضع يعرف اليوم بآسفا، (...)».

[4] - HERODOTE, IV, 42.

فيما يخص التعريف بليبيا؛ وبعده «نجد المعلومات التي أمدنا بها القرطاجيون حول هذا البلد (...)»[1].

فحسب هيرودوت، تم أول طواف بحري حول القارة الإفريقية (حوالي 25.000 كلم) في عهد نقاو الثاني (609- 594 ق.م)، وهو فرعون مصري من السلالة XXVI، حكم خلال العهد الفرعوني المتأخر، وقام بإعادة تنظيم الأسطول المصري على غرار الأسطول الإغريقي، لكنه فشل في محاولته للحد من التوسع البابلي في كركميش (Karkémish) سنة 605 ق.م. ويعتقد أن هذا الطواف البحري الذي ربما قام به البحارة الفينيقيون المهرة والذي استغرق ثلاثة أعوام، انطلق بأمر من هذا الفرعون من البحر الأحمر[2] في نوفمبر، مراعاة لنظام الرياح والتيارات البحرية، ووصل أصحابه إلى قناة موزمبيق في فصل الربيع، وإلى أقصى جنوب إفريقيا في شهر يونيو حيث توقفوا ربما في جون سانت هيلين (Ste Hélène) شمال غرب الكاب (le Cap) ؛ ليزرعوا وينتظروا الغلة في نوفمبر، وينطلقوا بعد ذلك، مستعينين برياح بحرية ملائمة، ليصلوا إلى خليج بيافرا في مارس، وإلى سواحل ليبيريا في يونيو، ويتوقفوا من جديد في نوفمبر، في مكان ما من ساحل المغرب الأطلنطي، ليزرعوا ثم يحصدوا في يونيو ويرجعوا بعد ذلك إلى مصر عبر مضيق جبل طارق.

وأصعب ما يمكن تصديقه في هذه الحكاية، حسب هيرودوت[3]، هو أنهم شاهدوا غروب الشمس على يمينهم في بداية الطواف، ثم على يسارهم بعد ذلك. وتثبت هذه الملاحظة، حسب شارل بيكار[4]، أنهم تجاوزوا فعلا رأس الرجاء الصالح.

---

[1]- راجع:

MAUNY (R.), *Les siècles obscurs de l'Afrique noire,* pp.91-93 ; AUJAC (G.), *La Géographie dans le Monde antique,* Paris 1975, p.9 ; MOLLAT (M.) et DESANGES (J.), *Les routes millénaires*, pp. 67-68.

[2]- كانت أسفار المصريين القدامى عبر البحر الأحمر مألوفة منذ غابر العصور، ونظموا منذ عهد الإمبراطورية القديمة خطا بحريا كان يربط بين بيلوس على الشاطئ السوري وساحل البونت (Pount) في بلاد الصومال، راجع:

MONTET (P.), *La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès,* Paris 1946, pp. 244-255.

ويرى الزوجان بيكار أن المتوسطين أولوا اهتماما كبيرا بسواحل إفريقيا الصحراوية؛ بل وبإفريقيا السوداء في القرن الخامس ق.م. وأن طواف الملاحين الفينيقيين حول إفريقيا بتكليف من نقاو الثاني يعتبر أهم رحلة بحرية تمت خلال العصر القديم؛ قبل الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن 16. راجع:

PICARD (G.-Ch. et C.), *Vie et mort de Carthage,* Paris 1970, p. 93 ; SENAC (R.), Le périple africain par la flotte de Néchao, *La Revue Maritime*, n° 241, mars 1967, pp. 281-293.

[3] - HERODOTE, IV, 42.

[4] - CHARLES-PICARD (G. et C.), *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal* (IIIe S. av. J.-C.), 2è éd. Paris 1982, p. 227.

و يعتقد بروسار بدوره في صحة هذا الطواف، ويشير إلى أنه باستثناء خليج غينيا، فإن التيارات البحرية الساحلية مواتية للدوران حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب مرورا بالجنوب. راجع:

ثم حدثنا هيرودوت[1] بعد ذلك كيف أرغم سطاسبيس (Sataspès)، وهو حفيد الملك الفارسي داريوس (Darius)، في عهد أحشويرش الأول (Xerxès I) (486-465 ق.م.) على القيام بالطواف حول إفريقيا بعد أن ارتكب جريمة اغتصاب في حق بنت زوبير (Zopyre) ابن ميغابيز (Mégabyze). وفي حالة فشله، هدده أحشويرش الأول بالموت مرفوعا على الحازوق، الشئ الذي وقع بالفعل بعد عدم تمكن سطاسبيس من تنفيذ ما طلب منه، بسبب الهدوء المطلق الذي حال بينه وبين الاستمرار في طوافه هذا بعد تمكنه، انطلاقا من مصر، من عبور مضيق عمودي هرقل وتجاوز رأس صولوييس والإبحار جنوبا عدة أشهر...[2]

ويعتقد دوزانج (J. Desanges)[3] معتمدا على هيرودوت، أن رحلة سطاسبيس الفاشلة تمت ما بين سنتي 478 ق.م.، حيث لم تبق جزيرة ساموس (Samos) خاضعة لحكم أحشويرش الأول، و 465 ق.م.، وهو تاريخ موت الملك الفارسي المذكور؛ وأن هيرودوت سمع بها في ساموس على الأرجح، حيث هرب معتق سطاسبيس محملا بثروات هذا الأخير التي استولى عليها ساموسي رفض هيرودوت ذكر اسمه.

وتطرق هيرودوت[4] خلال حديثه عن شعوب ليبيا في الكتاب الرابع إلى "المقايضة الصامتة" التي مارسها أهالي المغرب القديم مع القرطاجيين، في مكان ما من الساحل الأطلنطي. ويرى موني (R. Mauny)[5] أن الذهب الذي يتحدث عنه هيرودوت يحتمل أنه استخرج جنوب الصحراء الكبرى، وقد يتعلق الأمر بذهب محلي أنتجته منطقة سوس بالمغرب. غير أن هذا الخبر الوارد في استقصاء هيرودوت يعتبر الوحيد من نوعه في مجموع النصوص القديمة المتعلقة بالمغرب، وبالتالي وجب التعامل معه بحذر.

ولو افترضنا، حسب موني[6]، أن هذا الذهب استمر في الوصول في عهد الرومان إلى حدود موريطانيا أو موغادور بكميات هامة، لما توانى هؤلاء في البحث عن مصادره

BROSSARD (Contre- amiral R. de), *Histoire maritime du monde*, t. I, Paris, 1974, pp. 49-50.

[1]- HERODOTE, IV, 43.
[2]- PICARD (G.-Ch. et C.), *Vie et mort de Carthage*, p. 93 ; MAUNY (R.), *Les siècles obscurs de l'Afrique noire*, pp. 93-95 ; COLIN (F.), Le récit de Sataspes s'inspire-t-il de sources égyptiennes ? *ZPE*, LXXXII, 1990, pp. 287-296.
[3] - DESANGES (J.), *Recherches* ... pp. 29-33.
[4] - HERODOTE, IV, 196.
[5] - MAUNY (R.), *Les siècles obscurs de l'Afrique noire*, p. 82.
[6] - *Id., Ibid.*

والتحكم في الطرق المؤدية إليها. ألم تقدم روما أيام طراجان (Trajan) على تنظيم حملة داسيا (la Dacie) بهدف الاستيلاء على ذهب هذه البلاد؟ وحسب موني، لم يكن ذهب السودان معروفا في العالم المتوسطي قبل وصول الفاتحين العرب إلى سوس والسودان خلال القرنين السابع والثامن[1]، وأن بداية استغلال مناجم الذهب في فاليمي (Falémé) وبوري (Bouré) لم تتم إلا خلال القرون الأولى بعد الميلاد. ولا يستثني موني استعمال الأهالي محليا لشذرات الذهب في زينتهم قبل بداية استغلال هذه المناجم بشكل مكثف.

ولقد وصف ياقوت الحموي[2] تجارة ذهب السودان، وقارن كركوبينو (J. Carcopino)[3] بين نصه ونص هيردوت وخلص إلى التشابه الكبير بين النصين باستثناء اختلاف واحد بخصوص العلامة التي كان القرطاجيون حسب هيردوت، والتجار البيض حسب ياقوت، يعلنون بها حلولهم بين ظهران السودانيين المستخرجين للذهب، بحيث كانت هذه العلامة عبارة عن قرع الطبول في نص ياقوت، وتصاعد الدخان في نص هيردوت. ويرى كركبينو[4] أن هذا الاختلاف بين المؤلفين دليل على عدم اعتمادهما على نفس المصدر، وأنه فيما عدا هذا الاختلاف فإن معلوماتهما متكاملة وجد متشابهة بحيث لولا معرفتنا بصاحبيهما لاعتقدنا أن النصين معاصرين لبعضهما. ومع ذلك فهناك ستة عشر قرنا على الأقل بين عصر ياقوت وعصر هيردوت، هذه المدة التي عرفت خلالها تجارة ذهب السودان تحولات كبرى بحيث اختفت قوافل سفن البحارة المتوسطيين وحلت محلها قوافل الجمالين العابرة للصحراء، كما عرفت بلاد المغرب خلال هذه المدة حلول الرومان محل القرطاجيين ثم الفتح الإسلامي. إلا أنه بالرغم من هذه التغييرات وعلى امتداد الستة عشر قرنا، فإن "المقايضة الصامتة" ظلت على حالها تتحكم في تجارة ذهب السودان. ويرى كركبينو[5] أن تاريخ ظهور هذه المقايضة موغل في القدم بحيث أن وصفها الدقيق في استقصاء هيردوت يوحي بأن آليتها آنذاك كانت محكمة التنظيم، الشئ الذي يعني أنها مرت بتجارب كثيرة وممارسة طويلة تعلم وتعود خلالها الأهالي وتجار شمال إفريقيا على هذا النوع من التبادل التجاري[6].

---

[1]- أورد الناصري، **الاستقصا**، ج 1، ص ص. 105-106، خبر بعث عبيد الله بن الحبحاب سنة 734م، خلال ولايته على المغرب، "حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري غازيا أرض المغرب، فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي شيئا كثيرا".

[2]- **معجم البلدان**، ج 2 ، ص. 608 .

[3] - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, pp. 108-109.

[4] - *Id. Ibid.*

[5] - *Id. Ibid.*

[6]- أشار البكري بدوره إلى "التجارة الصامتة" عند حديثه عن تجارة القرنفل في جزيرة قرطايل «(...) التي يسمع فيها الليل والنهار المعازف والطبول؛ (...). وفيها أشجار القرنفل وتشتريه التجار من قوم لايرونهم، إنما يضعونه أكواما على الساحل فتأخذه التجار وتترك هناك العوض. وقيل إن التجار يتركون البضائع على الساحل ويعودون إلى مراكبهم. فإذا أصبح من غد ذلك اليوم جاؤوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوما

وإذا كان هناك شبه إجماع على أن هيردوت فرغ من تأليف كتابه حوالي 430 ق.م.، فإن المؤرخين اختلفوا بالمقابل فيما يتعلق باطلاع أو عدم اطلاع هذا المؤرخ على نص رحلة حنون. فأبو التاريخ لم يذكر إسم حنون ولم يشر إلى رحلته الشهيرة. وكان غزيل[1] قد حاول تفسير صمت هيردوت أو جهله هذا وتردد بين تأويلين: إما أن هيردوت ربما جهل الرحلة، أو أنها لم تكن قد تمت بعد في عهده.

ويرى كركبينو[2] أنه إذا كان اطلاع هيرودوت على رحلة حنون قد تم بصفة خاصة بواسطة مخبريه أمر مشكوك فيه، فإن هؤلاء المخبرين قد حدثوه دون شك عن أبرز نتائج هذه الرحلة واستمرارها فيما بعد، ألا وهي سيطرة قرطاج على أسواق الذهب الواقعة على شواطئ ليبيا الأطلنطية. ولم يحدد هيرودوت مواضع هذه الأسواق التي أخبر فقط بأنها كانت تقع في ليبيا، خارج، أي فيما وراء عمودي هرقل؛ واكتفى بالإشارة إلى المتحكمين فيها، وهم القرطاجيون الذين أورد خبرهم فيما يخص "المقايضة الصامتة" مع الأهالي المستخرجين للذهب. ويعتبر كركبينو هاته الإشارة وهذا الوصف من بين المعطيات الأساسية لتحديد تاريخ رحلة حنون وفهم مدلولها.

وحسب كركبينو[3] فإن استكشاف حنون البعيد المدى لشواطئ الذهب على الساحل الأطلنطي لإفريقيا قد تم قبل فرض قرطاج سيطرتها التجارية التي حدثنا عنها هيرودوت، وبعد إحكام قبضتها على مضيق جبل طارق، هذا الإحكام الذي جاء نتيجة لضم قادس إلى الإمبراطورية القرطاجية. فرحلة حنون تمت بين الربع الأول من القرن الخامس ق.م.، وهي الفترة التي تزامن تحرير القرطاجيين للقادسيين من نير ترشيش[4]، والثلث الأخير من القرن نفسه حيث حدثنا هيردوت عن نتائج العملية الاستكشافية. فالرحلة تمت إذا ما بين 480 و 430 ق.م. أي حوالي 450 ق.م. في قلب الفترة التي تزامن استيلاء آل ماغون (les Magonides) على السلطة، وهي الأسرة الحاكمة التي كان حنون ينتمي إليها.

▪ **سطرابون:**

«يمتد جنوب ليكسوس ورأس كوطيس (Côtès) خليج يسمى الخليج الإمبوري (le golfe Emporique)، لأنه يشتمل على محطات تجارية فنيقية (*emporia*) .
ويشتمل كل الساحل الذي يمتد بعد الخليج المذكور على عدة أجوان...»[5].

من القرنفل، فإن رضيه أخذه وترك البضاعة؛ وإلا أخذ بضاعته وترك القرنفل:(...) وربما طلب أحدهم الزيادة فيترك البضاعة والقرنفل فيزاد فيه.(...) »؛ راجع **المسالك والممالك**، ج ، 1، ص. 215.

[1] - GSELL (S.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, I, 1913, p. 513 ; *Id.*, *Hérodote*, p. 239.
[2] - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, pp. 108-109.
[3] - *Id. Ibid.*
[4] - THOUVENOT (R.), *Essai sur la province romaine de Bétique*, Paris 1940, p. 67.
[5] - STRABON, XVII, 3,2.

«وكثيرة هي الأساطير الكاذبة التي اخترعها المؤرخون بخصوص ساحل ليبيا [شاطئ المغرب الأطلنطي]، ابتداء برحلة أوفيلاس (Ophélas) (...). وهكذا يحكى أنه يوجد في الخليج الإمبوري (le golfe Emporique) كهف يمتد بداخله البحر عند أقصى المد حتى مسافة سبع غلوات، وأمام هذا الكهف تمتد أرض منخفضة ومستوية حيث ينتصب مذبح لهرقل، لا يغمرها أقصى المد أبدا. وهذه بالطبع، في رأيي حكاية من الحكايات التي تحدثت عنها سابقا... وتشبهها حكاية أخرى تزعم أنه كانت توجد قديما في الخلجان الموجودة بعد الخليج الإمبوري، مؤسسات تجارية صورية (tyriens) لم يعد لها وجود الآن؛ وهي أكثر من ثلاثمائة مدينة، قد يكون الفاروسيون (les Pharusiens) والنيغريتيون (les Nigrites) قضيا عليها قضاء تاما. والفاروسيون والنيغريتيون شعبان يوجدان، حسب ما يقال، على بعد ثلاثين يوما من المشي من لانكس (Lynx)[1]».

« بعض الشعوب الباربارية في هذه النواحي [جنوب المغرب] تستعمل قشار الحيات وأسفاط السمك كملابس وأغطية»[2].

« انتقد أرطيميدور (Artémidore) إيراطوسطين (Eratosthène) لأن هذا الأخير زعم أن ليكسوس مدينة تقع عند أقصى غرب موروسيا، بينما هذه المدينة هي لينكس (Lynx)؛ ولأنه زعم أيضا أنه كانت توجد [على ساحل المغرب الأطلنطي] عدة مدن فينيقية زالت عن آخرها، بينما لا يوجد أي أثر على وجودها ...»[3].

▪ **بلينيوس:**

« (...) الرأس الأقصى الموجود على المحيط يسمى بالإغريقية أمبيلوسيا[4] (Ampelusia). وكانت توجد قديما فيما وراء عمودي هرقل مدينتا ليسا (Lissa) وكوطا (Cotta)، واليوم نجد طينجي (Tingi) التي أسسها أنطي (Antée)؛ ومنذ أن جعلها القيصر كلاوديوس (Claudius) مستعمرة، حملت إسم طرادوكتا جوليا (Traducta Julia) »[5].

« وتوجد طينجي على بعد 30000 خطوة من بايلو في بيتيكا (la Bétique)، بالنسبة للمسار الأقصر بينهما. وعلى بعد 25000 خطوة من طينجي، توجد على شاطئ المحيط مستعمرة أغسطس المسماة جوليا كونسطانسيا زيليس (Julia constantia Zilis

---

[1] - STRABON, XVII, 3, 3.
[2] - STRABON, XVII, 3, 7.
[3] - STRABON, XVII, 3, 8 ; AUJAC (G.), Les traités sur l'Océan et les zones terrestres, *R.E.A.*, 74, 1972, pp. 74-85 ; *Id.*, *Strabon et la science de son temps*, Paris 1966.
[4] - كانت المنطقة الواقعة شمال ليكسوس معروفة قديما بكرومها، وهي الكروم التي سمي باسمها رأس أمبيلوزيا والعرائش فيما بعد، انظر:

REBUFFAT (R), *D'un portulan grec du XVI^e siècle au périple d'Hannon, Karthago*, XVII, 1976, p. 147.
[5] - PLINE, *H.N.*, V, 2.

المعفاة من سلطة الملوك والتابعة لسلطة بيتيكا القضائية. وعلى بعد 35000 خطوة من زيليس، توجد ليكسوس التي جعلها القيصر كلاوديوس مستعمرة والتي كانت بالنسبة للقدامى موضع أساطير عجيبة»[1].

« يشتمل مصب نهر ليكسوس على جزيرة لا يغمرها المد بالرغم من كونها معزولة وأكثر انخفاضا من الأراضي المجاورة. وما زال يوجد فيها مذبح لهرقل...»[2].

« على بعد 50000 خطوة من ليكسوس، يوجد نهر سبوبوس (Sububus) الذي يجري محاذيا لمستعمرة بناصا (Banasa)، وهو نهر عظيم وقابل للملاحة...

مدينة ونهر سلا (Sala) على بعد 50000 خطوة من سبوبوس (Sububus) »[3].

« سمي البحر المحيط باسم جبال الأطلس...»[4].

V- 9، 10: ويتعلق الأمر هنا برحلة بوليبيوس (Polybe) التي أورد بلينيوس بعض فقراتها في تاريخه الطبيعي:

« توجد ليكسوس على بعد 112000 خطوة من مضيق قادس؛ وبعدها يوجد خليج يسمى سغيغي (Sagigi) ومدينة تقع على شناخ موليلاشا (Mulelacha)[5]، ونهرا سبوبا (Sububa) وسلاط (Salat)، ومرسى روتوبيس (Rutubis) على بعد 224000 خطوة من ليكسوس. وبعد [هذا المرسى] يوجد شناخ سوليي (Soleil)، ومرسى ريسادير (Rysaddir) ...».

وحسب دوزانج (J. Desanges)[6]، في تعليقه على الكتاب الخامس من **التاريخ الطبيعي**، فإن هذا الإسم المكون من *rus* و *addir* يعني « الرأس العظيم/ الضخم » (le cap puissant). فالأمر يتعلق إذن بمرسى يحمل اسم الرأس الذي يوجد عند قدمه. ويبدو، حسب دوزانج، أن هذا الرأس هو غير (Ghir) وليس (Sim). ومرسى ريسادير (Rhysaddir) لاينطبق على أگادير، ولكن على مرفأ قريب من رأس غير، وواقع في جون ينفتح جنوب شرق الرأس المذكور، والذي توجد بداخله ثغرة في الجرف تمثل مرسى طبيعيا جيدا.

---

[1] - PLINE, *H.N.*, V, 3.

[2] - PLINE, *H.N.*, V, 4.

[3] - PLINE, *H.N.*, V, 5.

[4] - PLINE, *H.N.*, V, 6.

[4] - ورد هذا الإسم في دراسة بيسنيي على شكل مولكلاشا (Mulclacha)، وهو حسب هذا الباحث مرسى كان يقع على شناخ بين ليكسوس وسوبور (Subur) عند رأس مولاي بوسلهام الذي يوجد بالقرب منه هور قد أرمل في عصرنا، وكان هذا الهور يشكل مرسى جيدا، حسب بيسنيي:
BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc, Archives Marocaines, 1, Paris, 1904, p. 337.

[6] - DESANGES (J.), Pline l'Ancien, *Histoire Naturelle*, Livre V, 1- 46, Paris, Les Belles Lettres, 1980, p.113, n.11.

وكان بيسنيي[1] قد أشار إلى أن بلينيوس نقل اسم هذا المرســـى عـــن بوليبيـــوس أو أغريبا، وهو الإسم الـــذي ورد فـــي اللـــوائح الأســـقفية علـــى شـــكل *Risardirensis episcopus*، وهو يوافق أگادير حسب بيسنيي.

« إنتاج جيتوليا للمريق والأرجوان »[2].

« يوجد على الساحل [الأطلنطي]، حسب الأهالي، على بعد 150000 خطوة مـــن سلاط (Salat)، نهر الأسنا (l'Asana) ذو المياه الملحة، ولكنه يـــشتمل علـــى مرســـى ممتاز »[3].

ويعتقد دوزانج (J. Desanges)[4] في تعليقه على نص بلينيـــوس أن نهـــر الأســـنا (l'Asana) يوافق نهر أم الربيع الذي يسميه بوليبيـــوس (Polybe)، حـــسب بلينيـــوس، أناطيس (Anatis)، وأن «المرسى الممتاز» ينطبق على أزمور التي تقـــع علـــى الـــضفة اليسرى من النهر، على بعد كيلومترين من المصب. ولقد لعب هذا المرســـى دورا مهمـــا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، قبل أن يرمل مصب النهر، حيـــث لـــم تعـــد أزمور متصلة بالمحيط.

« توجد بعض الجزر أمام بلاد الأوطولـــوليين (les Autololes) اكتـــشفها يوبـــا وأسس فيها مصابغ أرجوان جيتوليا[5] (Gétulie)

▪ **بطليموس:**

لم يشر بطليموس في إحداثياته إلى أي مرسى على ساحل المغرب المتوسطي، لكنه أعطى إحداثيات مرسيين فقط على الساحل الأطلنطي، وهما:

- مرسى روســـيبيس	32° 10' 6° 40' (Rousibis)
الواقـــع بـــين مـــصب كوســـا	32° 45' 6° 40' (Cousa)
- ومصب الأسنا	32° 7° (l'Asana)
- مرسى موسوكاراس[6]	30° 50' 7° 20' (Musocaras)
الواقع بين جبل الشمس	31° 15' 6° 45' (Mont du Soleil)
- ومصب فوط[1]	30° 30' 7° 30' (Phouth)

1- BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc, p. 344.

2 - PLINE, *H.N.*, V, 12.

3 - PLINE, *H.N.*, V, 13.

4 - DESANGES (J.), Pline l'Ancien, *Histoire Naturelle*, Livre V, 1- 46, p. 131.

5 - PLINE, *H.N.*, VI, 202, *alias* (VI, 36) ; JODIN (A.), *Les établissements du roi Juba II aux îles Purpuraires (Mogador)*, Tanger 1967.

5- كان هذا المرسى يقع جنوب رأس كانطان، حسب تيسو (Tissot) أو أگوز (Agouz) حسب مولر (Muller).

وحسب المعطيات الواردة في مؤلف بطليموس بخصوص المسافات، فإن موضع أگوز يوافق المرسى القديم أكثر. ولقد عثر في أسفي على بقايا نقوش لاتينية. راجع:

BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc, p. 342.

وعلاوة على المرسيين المذكورين، أعطى بطليموس إحداثيات جزيرتين مغربيتين واقعتين في المحيط الأطلنطي، وهما:

- جزيرة باينا (Paina) 5° 32’
- جزيرة إريطيا (Erytheia) [2] 6° 29’.

■ **رحلة سكولاكس:**

يعتبر دوزانج[3] رحلة المزعوم سكولاكس نصا غير متجانس وضعيف الرواية. وإذا كان بالإمكان التأكد من صحة المعلومات بخصوص الساحل الممتد من دلتا النيل إلى أوتيكا (Utique)، فإن النص يطرح عدة إشكاليات بالنسبة للساحل الواقع بعد أوتيكا والممتد حتى قرني، بالرغم من التقدم الملحوظ الذي عرفه علم الآثار الفنيقي والبوني في العقود الأخيرة.

« بالنسبة لمن يبحر فيما وراء عمودي هرقل، في اتجاه البحر الخارجي وليبيا على يساره، يوجد خليج كبير يمتد حتى رأس هرميس؛ لأنه هنا أيضا يوجد رأس هرميس. وفي وسط الخليج توجد منطقة ومدينة بونطيون[4]. وبجوار المدينة توجد بحيرة كبرى تحتوي على عدة جزر. وعلى ضفاف هذه البحيرة ينبت القصب والسعد والحماض والأسل (...). وتسمى هذه البحيرة كيفيسياس (Kêphêsias)، ويسمى الخليج كوطيس (kôtès)، وهو يتوسط الأراضي الممتدة من عمودي هرقل إلى رأس هرميس. (...) بعد رأس هرميس، يوجد نهر الأنيديس (l’Anidès) الذي يصب في بحيرة كبرى. وبعد نهر

---

[1]- ورد اسم هذا النهر أيضا في مؤلف فلافيوس جوزيف (*Antiquités Judaïques*, I,6,2)، وهو يوافق حسب بيسنيي نهر تانسيفت، راجع:
BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc p. 342 ; ROSENBERGER (B.), Note sur Kouz, un ancien port à l’embouchure de l’oued Tensift, *Hespéris-Tamuda,* VIII, 1967, p. 29 :
«(...) سمى مؤلفو العصر القديم وادي تانسيفت فوت، وكوساريس أو كوسينوس؛ ويبدو بسهولة أن إسم قوز مشتق من الإسمين الأخيرين. بينما لايمكن القول بأن "تانسيفت" مشتق من "فوت"»؛ وانظر :البكري، **المسالك والممالك**، ج 2 ؛ ص. 762 :« (...) وتسير السفن من ساحل نول إلى وادي السوس ثلاثة أيام؛ ثم من وادي السوس إلى مرسى أمقدول، وهو مرسى مشتى مأمون وهو ساحل وادي السوس. ثم إلى مرسى قوز، وهو رباط يعمره الصالحون وهو ساحل أغمات؛ ثم إلى مرسى أسفي؛ (...)».

[2] - ROGET (R.), *Le Maroc chez les auteurs anciens,* Paris 1924, pp. 36-38 ; AUJAC (G.), *Claude Ptolémée, astronome, astrologue, géographe : connaissance et représentation du monde habité*, Paris 1993 ; THOUVENOT (R.), La côte atlantique de la Lybie d’après le géographe Ptolémée, *Hommage à la mémoire de J. Carcopino*, publié par la Société archéologique de l’Aude, Paris 1977, pp. 267-275.

[3] - DESANGES (J.), *Recherches sur l’activité des Méditerranéens aux confins de l’Afrique,* p. 120.

[4] - ποντίων (Pontion) : وتطابق حسب تيسو المريس (المواني). وهي منطقة تعاطى أهلها الصيد كما يدل على ذلك اسمها. وذلك منذ قديم الدهر (قبور وآثار مغليثية في تلال المريس). ولقد أشار تيسو إلى أهمية الصيد البحري في منطقة المريس خلال العصر القديم؛ راجع:
TISSOT (Ch.), *Recherches...*, p. 197.

الأنيديس (غريفة) [في اتجاه الجنوب]، نهر كبير آخر، الليكسوس (le Lixos)، ومدينة الفنيقيين ليكسوس (Lixos)، ثم مدينة أخرى يسكنها الليبيون فيما وراء النهر [ليكسوس]، وكذا مرسى[1]. وبعد ليكسوس، نهر كرابيس (Krabis) (Krathis ?) ومرسى، ومدينة للفنيقيين تسمى تومياطيريا[2] (Thumiatêria). وانطلاقا من تومياطيريا (...) إلى رأس صولوييس (Soloeis) الأكثر امتدادا في البحر. وتعتبر هذه الجهة الأكثر شهرة وقداسة في كل ليبيا. وفوق أقصى طرف هذا الشناخ ينتصب هيكل رائع مكرس لبوصيدون (Poséidon). وفوق المذبح تم رسم صور للناس والأسود والدلافين، ويقال إن هذا عمل ديدال (Dédale)...».

وورد في الفقرة الثالثة من رحلة حنون:« ثم أبحرنا في اتجاه المغرب، ووصلنا إلى شناخ صولوييس المكسو بالغابات». ولقد تضاربت آراء الباحثين ومحاولاتهم الهادفة لتحديد موضع الشناخ المذكور المتحدث عنه في هذه الفقرة. وهكذا يتطابق هذا الشناخ وموضع سلا القديمة (شالة) حسب كامبومانيس (Campomanes)[3] الذي اعتقد أن تسمية سلا (Sala) ما هي إلا تطورا لكلمة (Soloeis). أما فيفيان دو سان مارطان (L. Vivien de S[t] Martin)[4]، ومولر (C. Muller)[5]، وغزيل (S. [6]Gsell)، وكركبينو (J. Carcopino)[7]، فإنهم اعتقدوا أن الشناخ المذكور يوافق رأس كانطان (Cap Cantin)، وهو ما رفضه شميط (P. Schmitt)[8] الذي قال أن صولوييس يطابق رأس الحنك؛ بينما اعتقد بيرطولو (A. Berthelot)[9] أن هذا الشناخ يوجد جنوب رأس كانطان، وبالضبط في موضع رأس غير (cap Ghir) الحالي. وهناك من حدد هذا الموضع جنوب

---

[1]- يعتقد بيسني أن هذه المدينة المجهولة الإسم توافق العرائش الحالية، انظر:

BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc, p. 337.

[2]- وردت في رحلة حنون (الفقرة 2) على شكل Thymiaterion، وهي توافق حسب روبيفا طنجة، راجع:

REBUFFAT (R), D'un portulan grec du XVI[e] siècle au périple d'Hannon, *Karthago*, XVII, 1976, p. 147.

[3] - CAMPOMANES (P.R. de), *Antiguedad maritima de la Republica de Cartago, con el periplo de su general Hannon.* (Edicion bilingue grecocastellana), Madrid 1756, p. 49 ; *in* : CASARIEGO (J.-E.), *El periplo de Hannon de Cartago,* Madrid 1947, p. 42, n.24 ; p. 43.

[4]- VIVIEN DE SAINT-MARTIN (L.), *Le Nord de l'Afrique dans l'Antiquité grecque et romaine. Etude historique et géographique,* Paris, 1863, p. 421.

[5] - MULLER (C.), *Geographi Graeci Minores*, t. I, Paris 1855, p. 3.

[6] - GSELL St., *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, I, p. 482.

[7] - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, pp. 90-95.

[8] - SCHMITT (P.), Connaissance des Iles Canaries dans l'Antiquité, *Latomus*, XXVII, 1968, p. 364.

[9] - BERTHELOT (A.), *L'Afrique Saharienne et Soudanaise, ce qu'en ont connu les Anciens*, Paris 1927, p. 185.

رأس غير، واعتقد بأن صولوييس يوافق رأس بوجدور، وهو احتمال ضعيف جدا لا يجب أخذه بعين الاعتبار حسب كسارييغو[1].

ولقد لاحظ تيسو (Ch. Tissot)[2] افتقار الشاطئ المغربي في نواحي رأس كانطان إلى مواضع ملائمة للنزول إلى البر؛ فهي منعدمة تماما بجوار الرأس الأبيض، بينما نجد شمال رأس كانطان على بعد بضع مآت من الأمتار جون صغير استغله أهالي قرية بدوزة في أنشطتهم المرتبطة بالبحر، واختاره حنون قديما كنقطة صالحة للنزول.

وإذا لم يحدد حنون بالضبط الموضع الذي شيد فوقه الهيكل الذي كرس لبوصيدون، فإن سكولاكس[3] وصف لنا في رحلته هذا الموضع، وهو عبارة عن أعلى قمة رأس كانطان حيث أقيم المذبح الذي زين بنحائت تمثل صورا آدمية وكذا أسودا ودلافينا نسبت إلى الفنان الأسطوري ديدال (Dédale)[4]. ولقد استعمل سكولاكس لتسمية هذا الموضع مصطلح αχρωτηριον الذي يعني كل جزء ناتئ أو مرتفع كقمة جبل أو رأس أو شناخ، والذي يجسده ذلك المرتفع ذو القمة المستديرة والمشرف على رأس كانطان. ويشكل هذا المرتفع شكل نبكة (*tumulus*) تمثل النقطة التي تغير عندها مرتفعات الساحل الأطلنطي اتجاهها. وعلى رأس هذه النكبة، لاحظ تيسو[5] مجالا مسورا بحائط من الأحجار دائري الشكل، يطلق عليه الأهالي مصطلح "حش"، (ج حشت)، يحتمل أنه يحتضن قاعدة بناء المذبح القديم، لم يتمكن تيسو من التنقيب فيه نظرا لقداسة المكان. ويحمل "حش" رأس كانطان هذا، حسب تيسو، إسم "مجمعة الصالحين"، ويعتبر من بين أقدس مزارات هذه الناحية التي تشمل علاوة على "الحشت"، على قباب ومزارات الأولياء وزوايا لم يسميها تيسو، والتي تعتبر في نظره استمرارا وتأكيدا لشهرة المنطقة في هذا الميدان منذ القدم، حسب وصف سكولاكس[6].

وتعني كلمة صولوييس (Soloeis)، التي يعتقد أنها عبارة عن نسخ لكلمة صولوي (Soloi) الفنيقية، صخر أو صخور، وهي تسمية تنطبق تماما على رأس كانطان الذي هو

---

[1] - CASARIEGO (J.-E.), *El periplo de Hannon de Cartago*, pp. 42- 43, n. 27.

[2] - TISSOT (Ch.), Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, pp. 245-247.

[3] - Périple du Pseudo-Scylax, in : DESANGES (J.), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*, pp. 412- 414.

[4] - DAREMBERG (Ch.) et SAGLIO (Ed.), *Dictionnaire des Antiquités grecques et romaines*, T. II, vol.1, *Daedalus*, pp. 4-9.

5 - TISSOT (Ch.), Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, pp. 245-247.

[6] - مصطفى غطيس، "عالم البحر في معتقدات سكان المغرب" : **المغرب والأندلس**، دراسات في التاريخ والأركيولوجية. تطوان 2006 . ص ص. 7 – 39 .

عبارة عن كتلة صخرية يصل ارتفاعها إلى 60 م، وتمتد داخل المحيط على شكل صخور يبرز أعلاها فوق سطح الماء، وذلك على مسافة ميل ونصف[1].

وكان الفنيقيون قد أسسوا صولوييس (Soloeis) أخرى شمال غرب صقلية، وكانت هذه المدينة تتوفر، حسب كساريغو[2]، على مرفأ ومعبد مخصص للإله ملقار (Melkart) أو هرقل الفينيقي، حدثنا عنها توسيديد (Thucydide) بعجالة[3].

ولقد تحدث بلينيوس بدوره عن هذا الشناخ *«promunturium Solis »* خلال وصفه لساحل المغرب الأطلنطي[4]، وهو يقع بين مرفأ روطوبيس (Rutubis)[5]، الواقع على بعد 224 ميل جنوب ليكسوس، ومرفأ ريسادير (Rhysaddir)[6]. وإسم صوليس (Solis) هذا ما هو، حسب دوزانج [7] .(J) Desanges، إلا تلييننا (إعطاء كلمة غير لاتنية صيغة لاتنية) لكلمة صولوييس (Σoλoεις) الإغريقية التي ما هي بدورها إلا نسخا غير مضبوط لكلمة سيلا (sela) الفنيقية (ج سيلاييم) (selaim)، والتي تعني صخر؛ وهو يوافق، حسب الباحث نفسه، رأس كانطان (Cap Cantin).

وكان بطليموس (IV،2،1) قد حدد موضع هذا الشناخ، وحرف اسمه نظرا لكونه اعتمد على تسميته اللاتينية وترجمها إلى الإغريقية على هذا الشكل Ηλίου οpoς، "جبل الشمس" (Mont du Soleil))، وإحداثياته الجغرافية: '45 °6 طولا، و '15 °31 عرضا[8]، وهو يطابق رأس كانطان. ووضع بطليموس جبل الشمس هذا بين مصبي أم الربيع وتانسيفت. وما التسمية الاغريقية الواردة في كتاب بطليموس (Ηλίου οpoς) إلا ترجمة للإسم اللاتيني *«promunturium Solis »* الذي ذكره بلينيوس[9] نقلا عن بوليبيوس (Polybe) وأغريبا (Agrippa). وكلمة (Solis) هاته هي تحريف لـ (Soloeis).

---

1 - DEMERLIAC (J.-G.) et MEIRAT (J.), Hannon et l'empire punique, Paris 1983, pp.74-75.

2 - CASARIEGO (J.-E.), El periplo de Hannon de Cartago, p. 40.

3 - THUCYDIDE, *La Guerre du Péloponnèse*, VI, 2.

4 - PLINE, *H. N.*, V, 9.

5- يعتقد دوزانج أن هذا المرفأ وجد على بعد 30 كلم جنوب مصب أم الربيع، وقد يطابق طيط (Tît) (مولاي عبد الله)، راجع:

PLINE L'ANCIEN, *H. N.*, Livre V, 1- 46 ; Texte établi, traduit et commenté par J. Desanges, p. 49 et 112, n. 9.

6- يعتقد دوزانج (J. Desanges) أن هذا المرفأ كان يقع بالقرب من رأس غير (cap Ghir)، في الجون الذي ينفتح جنوب شرق الرأس المذكور، هذا الجون المناسب للرسو نظرا للشق الموجود في الجرف الذي يشرف عليه؛ راجع: المصدر السابق، ص. 49 ، و ص.113 ، الحاشية 11.

7- المصدر نفسه، ص.49 ، والحاشية 10 ؛ ص ص. 112 - 113 .

8 - ROGET (R.), *Le Maroc chez les auteurs anciens*, p. 36.

9 - PLINE, *H. N.*, V, 9.

وذكر هيرودوت[1] قبلهما رأس صولوييس (Soloeis)، حيث قال أن هـذا الـشناخ ينهي في الغرب الشاطئ الشمالي لليبيا الذي يبتدئ في مصر. وورد اسم هذا الرأس ثانيـة في الكتاب الرابع من مؤلف هيرودوت، حيث حكى صاحب **الاستقصا** رحلة سطاسبيس[2]: «... وعبر سطاسبيس المضيق ثم جاوز الشناخ الليبي المسمى برأس صولوييس، وأبحر بعد ذلك في اتجاه الجنوب...». واختار هيرودوت لتسميته كلمة αχρωτηριον[3] ، بمعنى رأس أو شناخ، وقد تعني هذه الكلمة أيضا الجبل المرتفع أو قمة الجبل، عـوض χερας[4] أي قرن، وهي كلمة استعملها أيضا الرحالة والجغرافيون القدامى لتسمية رأس (كمـصطلح جغرافي)، الشئ الذي قد يعني أن الأمر يتعلق بشناخ مرتفع، ضخم الكتلة، وهو ما يطـابق كانطان كما أسلفنا.

ولقد اعتقد بعض الدارسين أن الـرأس المـذكور هنـا يطـابق رأس سـبارطيل (Spartel) الواقع في أقصى شمال غرب القارة الإفريقية، بالقرب من طنجة، بناء علـى قول هيرودوت الذي ذكر رأس صولوييس مباشرة بعد العمودين. فحسب دوزانج[5] ، رأس صولوييس الذي يعني بالبونية "رأس الصخور"، لا يمكن أن يطـابق إلا رأس سـبارطيل، نظرا لأنه ليس هناك تغيير هام في الاتجاه بعد اجتياز رأس كانطـان. ويعتبـر دوزانـج إشارة هيرودوت الواردة في حديثه عن رحلة سطاسبيس « الذي تعـدى عمـودي هرقـل ودار حول رأس صولوييس ليتجه صوب الجنوب»، الوصف الجغرافي الوحيد الذي يتـسم بالدقة في نص هيرودوت هذا.

وكان روبيفا[6] من قبله قد أكد بدوره مطابقة رأس صـولوييس لـرأس سـبارطيل وليس لرأس كانطان نظرا لكون هذا الأخير لم يكن أبدا مغطى بالغابات التي تحدثت عنهـا رحلة حنون (الفقرة الثالثة)، ثم إن هذا الرأس لا يجسد تحولا في اتجاه الساحل المغربي.

غير أن غزيل[7] أشار إلى أن ليبيا تمتد حسب وصف هيرودوت[8] بعيدا فـي اتجـاه الغرب، فيما وراء العمودين اللذين يوجد رأس سارطيل قريبا منهما. ويخلص غزيل إلـى

---

[1] - HERODOTE, II, 32.

وأضاف مترجم هيرودوت إلى الفرنسية في الطبعة التي اعتمدتها في بحثي هذا:

Hérodote, *L'Enquête*, Texte présenté, traduit et annoté par A. Barguet, Paris, Gallimard, 1964, p. 1375 :

«1- رأس صولوييس يوافق رأس كانطان على الساحل الغربي للمغرب».

[2] - HERODOTE, IV, 43.

[3] - HERODOTE, IV, 43 ; BAILLY (A.), *Dictionnaire grec français*, Paris 1950, p. 69 : « cap, promontoire ».

[4] - BAILLY (A.), *Dictionnaire grec français*, p. 1080.

5 - DESANGES (J.), Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique، pp. 30 ; 96.

6 - REBUFFAT (R), D'un portulan grec du XVIe siècle au périple d'Hannon, p. 147.

[7] - GSELL (S.), *H.A.A.N.*, I, pp. 481- 482.

[8] - HERODOTE, IV,185 .

القول بأن رأس صولوييس الذي تحدث عنه حنون يطابق راس كانطان، وإن أصبح هذا الأخير اليوم مجردا من أشجاره، شأنه شأن عدة مناطق في شمال إفريقيا فقدت غطاءها النباتي منذ العصر القديم. صحيح أنه فيما وراء هذا الرأس لا أثر للهور الذي تحدث عنه حنون، إلا أنه يمكننا أن نفترض أن الهور المذكور قد جف، خاصة وأن وصفه يدل على أنه لم يكن عميقا. لكن الإشكال الذي يصعب حله بالنسبة للفقرة الرابعة من رحلة حنون، يتعلق بسير أسطوله بعد أن جاوز رأس صولوييس في اتجاه الشرق لمدة نصف يوم. فبعد رأس كانطان يتجه الشاطئ صوب جنوب الجنوب الشرقي على مسافة أقصاها 15 كلم، ثم صوب الجنوب فالجنوب الغربي، ومن جديد صوب الجنوب. فإذا كانت معلومات النص صحيحة، فهذا يعني أن الشاطئ في هذه الناحية قد عرف تغييرات هامة، وهذه فرضية ما زالت موضع جدال.

ومن الباحثين من ذهب إلى القول، حسب غزيل[1]، أن رأس صولوييس (Soloeis) الذي تحدث عنه حنون يطابق رأس غير (cap Ghir) الذي يشكل رعلا أضخم وأكثر ارتفاعا من رأس كانطان، ثم إن الشاطئ يتوجه بعد رأس غير نحو الشرق بشكل واضح، وبعد ذلك نحو الجنوب الشرقي. أما الهور الواقع حسب النص بالقرب من البحر، فوضعه أصحاب هذا الرأي نحو مصب سوس.

ويعارض غزيل هذا الرأي قائلا أنه لو سلمنا بمطابقة صولوييس لغير، فإن حنون سيكون قد ابتعد جدا عن تيمياطيريون لتأسيس باقي المستعمرات بالرغم من توفر المواضع الملائمة بين تيمياطيريون وغير، هذه المواضع التي كانت عبارة عن منافذ لبلاد خصبة؛ ثم إن مستوطنات حنون في هذه الحالة ستكون قد أسست فوق مجال ساحلي ضيق ممتد بين نقطة واقعة على بعد يوم جنوب وادي سوس ومصب وادي درعة المسمى في الرحلة بليكسوس، حسب غزيل[2]، وهو شاطئ يفتقر لمواضع صالحة لرسو السفن في ناحية لا تكتسي أهمية المناطق الأخرى. ومن جهة أخرى، دائما حسب غزيل، تؤكد مقارنة نص حنون بنص سكولاكس مطابقة صولوييس لرأس كانطان.

وحسب كركبينو[3]، فلا مجال للشك في أن رأس كانطان يطابق رأس صولوييس بالرغم من تعريه من الأشجار التي كانت تغطيه منذ 2400 سنة. ويؤكد هذه المطابقة وصف سكولاكس في رحلته لشناخ صولوييس، هذا الوصف الذي ينطبق تماما على رأس كانطان اليوم من حيث امتداده الملحوظ في المحيط، كما يؤكدها موضع صولوييس الذي حدده المزعوم سكولاكس قائلا:« يستغرق الإبحار مساحلة من عمودي هرقل إلى رأس

---

[1] - GSELL (S.), *H.A.A.N.*, I, pp. 481- 482.
[2] - *Id. Ib.*
[3] - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, p. 90.

هرميس [شرق مصب وادي غريفة (oued Gherifa[1])]يومين. ويتطلب قطع المسافة الفاصلة بين رأس هرميس (Hermès) ورأس صولوييس ثلاثة أيام». وبما أن رأس كانطان يقع على بعد حوالي 570 كلم من مدخل المضيق (جبل طارق)، فإن هذه المسافة توافق مراحل سكولاكس المذكورة.

ولا يطلعنا حنون في نص رحلته عن المدة التي استغرقها في سيره بحرا في اتجاه الغرب (في اتجاه الجنوب الغربي بالضبط)، لقطع المسافة الفاصلة بين تيمياطيريون ورأس صولوييس حيث شيد الملك القرطاجي هيكلا كرس لأحد آلهة البحر، طابق الإغريق بينه وبين إلههم بوصيدون (Poseidon)[2].

ولقد ورد في رحلة سكولاكس بخصوص رأس صولوييس:«... كل هذه الناحية هي الأكثر شهرة والأكثر تقديسا في ليبيا. وعلى قمة الرأس [صولوييس] ينتصب مذبح كبير مكرس لبوصيدون...»[3]. وإشارة سكولاكس هذه لاتدع مجالا للشك في أن الأمر يتعلق، حسب غزيل[4]، بنفس الرأس، وإن كان هناك احتمال في أن يكون هذا الإسم (Soloeis) – وهو كلمة فنيقية تعني صخر– قد أطلق على عدة أرعل (ج رعل) أخرى في هذا الشاطئ. غير أن سكولاكس يقول أن السفر بحرا من عمودي هرقل إلى صولوييس كان يستغرق خمسة أيام، وهي إشارة دقيقة تؤكد مطابقة رأس صولوييس لرأس كانطان نظرا لتناسب المسافة مع عدد أيام الإبحار بالنسبة للسفن القديمة.

ولقد استعمل سكولاكس لتسمية هذا الشناخ كلمتي αχραν[5] و αχρωτηρίω[6] على التوالي. ويمكن تلخيص الوصف المذكور فيما أسلفناه بخصوص الارتفاع وضخامة كتلة صولوييس الذي يمتد بعيدا في البحر ويقع في ناحية جد مشهورة ومقدسة في ليبيا. وعلى رأس هذا الشناخ يوجد معبد كبير مخصص لعبادة بوصيدون وقد نقشت على جدرانه رسوم تعكس صور آدميين وحيوانات برية وبحرية من إنجاز النابغة ديدال[7].

---

1 - ROGET-COEYTAUX (Rde), Index de topographie antique du Maroc, PSAM, 4, 1938, p. 13.

2 - DAREMBERG (Ch.) et SAGLIO (Ed.), *Dictionnaire des Antiquités grecques et romaines,* T. 4, vol. I, pp. 59-72.

3 - Périple du Pseudo-Scylax, 112, *in* : DESANGES (J.), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique,* pp. 412- 414.

ويعتقد كساريغو أن سكولاكس اتبع في وصفه لشناخ صولوييس ما ورد في نص حنون بخصوص هذا الموضع؛ راجع: CASARIEGO (J.-E.), *El periplo de Hannon de Cartago,* p. 41.

4 - GSELL (S.), *H.A.A.N.*, I, pp. 480- 481.

5- بمعنى شناخ، انظر: BAILLY (A.), *Dictionnaire grec français,* p. 64.

4- بمعنى رأس أو شناخ أيضا، انظر: BAILLY (A.), *Dictionnaire grec français,* p. 69.

7 - GRIMAL (P.), *Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine,* Paris 1982 : Dédale.

واعتمادا على مدة الإبحار، والمسافة الفاصلة بين عمودي هرقل من جهة، وتيمياطيريون وشناخ صولوييس من جهة ثانية، وعلى مفهوم تسمية هذه المدينة الذي يعني موقد البخور، افترض كساريغو[1] أن يكون المعبد القائم فوق شناخ صولوييس ومستوطنة تيمياطيريون قد أسسا بالقرب من بعضهما نظرا لتكاملهما، بحيث كان سكان المستعمرة يشرفون على صيانة المعبد وعلى تيسير ظروف مقام الحجاج الذين يقصدونه من جهات أخرى، نظرا لأهميته.

غير أن هذا الافتراض يبقى ضعيفا نظرا لكون مستعمرة تيمياطيريون لم تؤسس بعد المعبد، بل قبله؛ وهذا يعني أن المدينة لم تظهر مع ظهور الأنشطة المرتبطة بمعبد مخصص لإله عظيم كبوصيدون، وحاجيات العابدين من الحجاج ومتطلباتهم. ثم إن الوصف الطوبوغرافي لموضع تيمياطيريون يختلف تماما عن نظيره بالنسبة لشناخ صولوييس كما يطلعنا عليهما حنون.

ولقد لجأ بعض الباحثين إلى المواقعية لتحديد موضع صولوييس؛ وهكذا اعتقد مارسي[2] أن هذا الإسم مركب من كلمتين ليبيتين: « *sul-wais* » (أثر حافر الحصان).

ويرى كركبينو[3] أن تسمية رأس كانطان قديما بصولوييس ترجع إما إلى الصوريين الذين قد يكونوا سموا هذا الرأس لأول مرة باسم فينيقي الأصل، أو فنقوا (phénicisé) الإسم الليبي الذي كان موجودا قبلهم، متبعين في ذلك سنة نهجها الرومان بعدهم لما حلوا في المغرب محل القرطاجيين حيث لم يترجموا إلى لغتهم الإسم الفنيقي للرأس المذكور، واكتفوا فقط بنقل اسمه الأصلي وكتابته كتابة صوتية على شكل «*promunturium* *Solis* » (شناخ الشمس). فـ *sul-wais* (أثر حافر الحصان)، أو Soloeis (الصخر)، أو Sol(is) (الشمس)، ما هي إلا صيغات اختلف تركيبها اختلافا طفيفا خلال عمليات دمجها في لغات الشعوب المتعاقبة على الموضع ونواحيه، لكنها تنعت كلها شناخ كانطان الحالي الذي سماه بلينيوس[4] «*promunturium Solis* » ووضعه جنوب سلا القديمة (Sala)، وجنوب روسيبيس (Rusibis) (الجديدة)، وسماه بطليموس (*Solis mons* = Ηλίου ορος) ووضعه شمال فوت (Fut) (واد تانسيفت).

فلقد دأب القدامى كلما حلوا ببلد جديد، على عدم البحث عموما في لغاتهم عن كلمات تترجم أسماء الأماكن في لغة سابقيهم، واكتفوا بنقل هذه الأسماء إلى لغاتهم نقلا صوتيا يراعي النطق لا غير[5]. وبناء على ذلك، اعتقد كركبينو[1] أن حنون لما استأنف

---

[1] - CASARIEGO (J.-E.), *El periplo de Hannon de Cartago*, p. 41.
[2] - MARCY (G.), Notes linguistiques autour du périple d'Hannon, *Hespéris*, XX, 1935, p. 39.
[3] - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, pp. 90-92.
[4] - PLINE, *H. N.*, V, 9.

[5]- مصطفى غطيس، تمودة، ص ص. 6 - 7.

رحلته صوب رأس كانطان – الذي كان الفينيقيون قبل ذلك قد سموه باسم فينيقي، أو فنقوا اسمه الليبي – فإنه كان يعلم بوجود الرأس المذكور واسمه الفينيقي الذي ذكره بطريقة تلقائية في نص الرحلة، كما كان يعرف أنه سيطأ أرضا سبقه إليها الصوريون في الماضي.

وحسب كتاب "الطرق البحرية"[2] (*Instructions Nautiques*)، فإن « رأس كنطان يشرف على المحيط بشكل عمودي تقريبا، وتوجد قمته التي بنيت فوقها منارة، على ارتفاع 60 م فوق مستوى سطح البحر ». ويعتقد كركبينو[3] أن هذه المنارة عوضت دون شك هيكل بوصيدون القرطاجي الذي ربما بني بدوره فوق موضع هيكل إيل (El) الفنيقي.

وينهي المزعوم سكولاكس رحلته الواصفة لشاطئ المغرب الأطلنطي قائلا: « ويستغرق الإبحار مساحلة من عمودي هرقل إلى رأس هرميس (Hermès) يومين، ومن رأس هرميس إلى رأس صولوييس ثلاثة أيام، ومن صولوييس إلى قرني (Cernè)، سبعة أيام. وجملة عدد أيام الإبحار من عمودي هرقل إلى قرني 12 يوما. وفيما وراء جزيرة قرني يستحيل الإبحار بسبب قلة عمق البحر والوحل والطحالب. ويبلغ عرض هذه الطحالب شبرا، وطرفها جد مستدق إلى درجة أنها تشك. والتجار هنا فينيقيون، عندما يصلون إلى قرني ينزلون من سفنهم المستديرة القعر في الشاطئ وينصبون خيامهم في الجزيرة، ثم يفرغون سفنهم من أوساقها التي يتم حملها إلى القارة في قوارب صغرى. ويوجد في القارة الإثيوبيون الذين تتم التجارة معهم...

والإثيوبيون يأكلون اللحم ويشربون الحليب، ويصنعون خمرا كثيرا من إنتاج كرومهم... ولهم مدينة كبيرة تقصدها سفن الفينيقيين التجارية عن طريق البحر»[4].

ولقد لخص بيسنيي (M. Besnier)[5] في دراسته القيمة: "**الجغرافية القديمة للمغرب**" أهم النصوص القديمة التي تناولت بالوصف جزءا من ساحل المغرب الأطلنطي بمدنه ومراسيه، من العرائش إلى أكادير، ومن بينها نص المزعوم سكولاكس.

وعلى الشاطئ الأطلنطي، من رأس سبارطيل إلى جزيرة موغادور، تم اكتشاف عدة مواضع أثرية متفاوتة الأهمية، اتخذها البحارة الفينيقيون والبونيون مرافئ لسفنهم ومراكز لمبادلاتهم التجارية. من بينها نذكر كوطا الواقعة مباشرة جنوب رأس سبارطيل والتي كانت تعتبر أول موضع صالح لإيواء السفن القادمة من البحر المتوسط؛ كما كان هذا الموضع بالنسبة للسفن القادمة من جنوب المغرب آخر مرسى آمن لما تحول ريح

---

1 - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, pp. 90-92.

2 - *Instructions Nautiques*, Océan Atlantique Est, I, Paris 1932, p. 212.

3 - CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, p. 92.

4 - DESANGES (J.), Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique, pp. 87-120 ; 404- 414.

5 - BESNIER (M.), Géographie ancienne du Maroc, pp. 337-344.

الشرق القوية ودخولها إلى بوغاز العمودين. وكانت كوطا التي تم تعميرهـا منـذ القـرن الثالث ق.م. من أهم مراكز إنتاج السمك المملـوح والغـاروم فيمـا يـسمى ب "دائـرة المضيق"[1].

وجنوب كوطا كان يوجد مرفأ الأقواس[2] عند مصب نهر غريفة الذي كان مركـزا تجاريا وفلاحيا وصناعيا هاما، اشتمل على مصانع لتـصبير الـسمك وعلـى محتـرف للخزفيات التي استعملت أساسا لوسق منتجات المنطقة. ولقد أثبتت التنقيبات الأثرية التـي تمت في الأقواس أن الأهالي اختاروا هذا الموضع لإقامة مراكز صناعة السمك المملـوح، لأن هذا الموضع يوجد وسط منطقة زراعية جد غنية، وبالقرب من مـصب نهـر قابـل للملاحة ولرسو السفن، وعلى طول طريق تم استعمالها منـذ العـصر النيـوليتي. ولقـد تطورت الأقواس بحكم نشاطها الاقتصادي لتصبح سوقا كبرى ومرسى هاما، وذلـك منـذ القرن الخامس قبل الميلاد.

وكانت ليكسوس أهم المراكز البحرية في المغرب القديم، وارتبط اقتصادها ارتباطا أساسيا بمرساها الذي كان بحكم موقعه ونشاطه الهام وتنظيمه المحكم في غايـة الأهميـة. وبرز نشاط هذا المرسى بشكل خاص من خلال منتجات مصانع تمليح السمك التـي كـان نشاطها يرتبط بأنشطة أخرى مكملة لها كإنتاج الملح والمريق الذي كانت تجارته مربحـة. وبلغ نشاط مجمع ليكسوس الصناعي أوج ازدهاره في القرن الأول ق.م. وخاصة خـلال عصر يوبا الثاني. وعرف هذا المجمع بعد ذلك عدة تغييرات لـم تـؤثر علـى مـساحة المصانع ولا على طاقة إنتاجها، ودام ذلك إلـى غايـة القـرن الثالـث حيـث عرفـت الإمبراطورية الرومانية بأسرها أزمة اقتصادية هامة. وفي القرن الرابع يبدو أن ليكـسوس عرفت انتعاشا اقتصاديا، واسترجعت مصانع الصيد نشاطها حتى بداية القـرن الخـامس حيث هجرت بشكل نهائي. وتعود معظم الخزفيات الفنيقية في ليكسوس إلى الفترة الممتـدة ما بين القرن الثامن والقرن السابع ق.م. فأقدم البقايا الأثرية في موضع الخـروب ترجـع إلى ماقبل 750 ق.م. بل إن بعضها يقترب من 800 ق.م[3].

---

[1] - PONSICH (M.), *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région,* Paris 1970, pp. 184 ; 206-207 ; 283-284 ; *Id., Aceite de oliva y salazones de pescado. Factores geo-economicos de Betica y Tingitana*, Madrid 1988, pp. 150 ; 158-159 ; HESNARD (A.), Le sel des plages (Cotta et Tahadart, Maroc), *Mélanges de L'Ecole Française de Rome,* 110, 1998, pp. 167-192.

[2] - *PONSICH (M.), Kouas, port antique et carrefour des voies de la Tingitane,* B.A.M., *VII, 1967, pp. 369-405 ; LOPEZ PARDO (F.), Nota sobre las amforas II y III de Kuass (Marruecos),* Ant. Afr., *XXVI, 1990, pp. 13-23.*

[3] - *LIXUS* ; Colonia fenicia y ciudad punico-mauritana. Anotaciones sobre su ocupacion medieval. C. Aranegui Gasco, editora cientifica, *Saguntum*, Extra -4, 2001, pp. 82 ; 94 ; 187 ; 196 ; 253.

ولقد أبحر الفينيقيون في اتجاه مرفأ بناصا النهري انطلاقا من محطة تموسيدا التي ارتادها الفينيقيون منذ القرن السابع ق.م. مستغلين حركة المد في الذهاب والجزر في الرجوع. ولقد تم العثور بوفرة في تموسيدا وبناصا بشكل خاص، على عدد هام من القطع النقدية التي سكت في قادس، وهو ما يؤكد حسب دبييرو (G. Depeyrot)[1] أن المدينتين الواقعتين على ضفاف نهر سبو كانت لهما علاقات تجارية مستمرة مع الخارج عبر المحيط الأطلنطي. وكان مرسى بناصا النهري من بين المراسي المغربية القديمة التي صدر منها القمح عبر سبو ثم المحيط الأطلنطي فالبحر المتوسط[2]. كما ساهم في المبادلات التجارية التي ربطت المغرب القديم بغرب حوض البحر المتوسط[3].

واستوردت تموسيدا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر سبو منتجات غرب حوض البحر المتوسط، وصدرت المنتجات المحلية، وخاصة الأسماك ومشتقاتها، كما تشهد على ذلك أثقال شباك الصيد والصنانير التي عثر عليها في هذا الموضع. ولقد وصلت منتجات العالم الروماني إلى تموسيدا حيث نجدها منتشرة في الطبقة الأركيولوجية الثالثة التي تعود إلى القرن الأول ق. م. واشتملت هذه الطبقة على أمفورات إيطالية وقناديل وأوان خزفية وقطع نقدية (685) قطعة، 380 منها تم تأريخها بدقة، نذكر من بينها 25 قطعة سكت في غادير (Gadir) الإيبيرية. وهو دليل على أن المنتجات الرومانية كانت تصل إلى تموسيدا عبر المدن الأندلسية المرومنة بواسطة الملاحة الساحلية[4].

وشكل مصب نهر أبي رقراق وسلا القديمة (شالة) موضعا جغرافيا هاما لرسو سفن الفينيقيين الذين اكتشفوا مزاياه منذ محاولاتهم الأولى للإبحار أمام هذا الشاطئ. وترجع أقدم البقايا الأثرية الفينيقية التي عثر عليها في هذا الموضع إلى القرن السابع ق.م. وكانت سلا (شالة) محطة رئيسية بين ليكسوس وموغادور في طريق البحارة القدامى نحو المغرب الأقصى. وتنحصر المنتوجات التي استوردتها سلا القديمة منذ بداية عصر أغسطس إلى غاية الاحتلال الروماني (40 – 43 م)، حسب نتائج الحفريات، في تماثيل أتيكية حديثة (néo-attiques)، وخمور إيطالية وبيتيكية، وأسماك مملوحة، ومرق

---

[1] - DEPEYROT (G.), *Zilil* I ; *Etude du numéraire.* Recherches archéologiques franco-marocaines à Dchar Jdid, Colonia Iulia Constantia Zilil, Ecole Française de Rome, 1999, p. 19.

[2]- THOUVENOT (R), Une remise d'impôts en 216 ap. J.-C., *CRAI*, 1946, p. 554.

[3] - LUQUET (A.), Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc. Le Maroc punique, *BAM*, IX, 1973-1975, p. 250.

[4]- REBUFFAT (R.), Quatre ans de fouilles à Sidi Ali ben Ahmed (Thamusida), *MEFR*, 75, 1, 1963, pp. 67-78 ; *Id., Thamusida. Fouilles du Service des Antiquités du Maroc II*, Ecole Française de Rome, Mélanges d'archéologie et d'histoire, suppléments, 2, Paris, 1970, 359 p., 46 fig. et 58 pl. h.t ; *Id., Thamusida. Fouilles du Service des Antiquités du Maroc III*, Ecole Française de Rome, Mélanges d'archéologie et d'histoire, suppléments, 2, Paris, 1977, 480 p., 102 pl. h.t ; MAYET (F)., Marques d'amphores de Maurétanie tingitane (Banasa, Thamusida, Volubilis), *MEFR*, 90, 1, 1978, pp. 357- 393.

السمك الإيبيري، وأدوات برونزية، وأواني خزفية ذات برنيق أحمر إيطالية الصنع، وأواني غالية صنعت في (La Graufesenque)، وقوارير للعطور قبرصية أو إيونية الأصل...[1] . ويرى بوب[2] أن سكان سلا كانوا في بداية العصر الميلادي أكثر تأثرا بالتأثيرات الخارجية والدرجات الأجنبية بالمقارنة مع باقي المدن الداخلية القديمة في المغرب. وتعتبر سلا المدينة الوحيدة في موريطانيا الغربية حيث عثر على أقداح رقيقة الجوانب ومنمقة برسوم، وهي معاصرة للخزفيات الإيطالية ولايعرف لها مثيل إلا في قادس.

وتعتبر موغادور أول محطة تجارية جزيرية فينيقية تمت دراستها خارج حوض البحر المتوسط. وهي أقصى موضع وصلته سفن القدامى في اتجاه الغرب على الساحل الأطلنطي المغربي[3]. ولقد لخص بوب (J. Boube)[4] البقايا الأثرية التي اكتشفت في موغادور والتي تؤرخ للمبادلات الأولى التي تمت بين الأهالي والفينيقيين الذين توافدوا على الجزيرة. وأهم هذه البقايا تمثلها الأمفورات الفينيقية الثقيلة التي ترجع إلى القرن السابع ق.م. وكذلك شقف الخزفيات الحمراء الفينيقية، كما اكتشفت في أقدم الطبقات الأركيولوجية بعض الأواني الإغريقية الأصل. ويتعلق الأمر بقطع لأمفورات إيونية الأصل ترجع إلى النصف الثاني من القرن السابع ق.م.، وهي أمفورات جد معروفة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، في إيتروريا بل وحتى في بعض شواطئ البحر الأسود[5]. وتعتبر هذه الأواني الخزفية (الفينيقية والإغريقية) التي حملها التجار الصوريون أو البحارة الإيونيون أو الوسطاء القادسيون إلى المغرب، أقدم الشواهد الأثرية على التوغل التجاري للشرق الأوسط في شواطئ المغرب الأقصى[6].

عرف شاطئ المغرب الأطلنطي تغيرات هامة منذ الزمن الجيولوجي الرابع، غير أن مميزاته الجغرافية المتمثلة أساسا في نظام الرياح والتيارات البحرية والعباب وتكسر الأمواج الضخمة على الشاطئ، وظاهرة التراقص الأكبر الاعتدالي... جعلت منه ساحلا غير ملائم للملاحة وفقيرا من حيث المآوي بسبب تضاريسه الوعرة. وهو ما قد يفسر عدم اهتمام القدامى بهذا الساحل؛ فبعد المضيق، "لاوجود إلا للظلمات" على حد تعبير

---

[1]- BOUBE (J.), Fouilles archéologiques à Sala : problèmes de la recherche historique au Maroc, *Hespéris-Tamuda*, VII, 1966, p. 23-32 ; *Id.*, Les origines phéniciennes de Sala de Maurétanie, *BCTH*, 17 B, 1981, p. 155-170 ; *Id.*, *Les nécropoles de Sala*, Paris 1999, pp. 10 ; 16-17.

[2]- BOUBE (J.), Index des marques de potiers italiques découvertes au Maroc, *BAM*, XII, 1979-1980, p. 232.

[3] - LUQUET (A.), Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc. Le Maroc punique, p. 292.

[4] - BOUBE (J.), *De l'empire romain aux villes impériales, 6000 ans d'art au Maroc*, Musée du Petit Palais, Paris, 1990, p. 30.

[5]- VILLARD (F.), Céramique grecque du Maroc, *BAM*, IV, 1960, p. 1-26.

[6] - BOUBE (J.), *De l'empire romain aux villes impériales*, p. 30.

الشاعر الإغريقي باندار[1]. وقادني الحديث عن الساحل الأطلنطي المغربي إلى وصف البحر المحيط المتعذر بلوغه في مصادر الإغريق الأولين الذين ألهوه، بل جعلوه أب الآلهة وأب كل الكائنات. كما يبدو البحر المحيط من خلال هذه المؤلفات عنصرا جغرافيا يتميز بعنفه وترامي أطرافه وإحاطته بالعالم. ورأينا من خلال النصوص الجغرافية القديمة الإغريقية واللاتينية والرحلات، مسألة المسافات والمجاري بين الفرض الأطلنطية وكذا المراحل ومدد الإبحار بينها. واعتمادا على تقارير التنقيبات الأثرية، استعرضت في عجالة أنشطة المرافئ الأطلنطية القديمة وإشعاعها الاقتصادي بفضل المحيط. ولقد تلقى المغرب القديم تأثيرات هامة عبر هذه المراكز البحرية شملت الميدان الاقتصادي والثقافي والديني. وكان تأثير البحر بارزا في هذه الفرض التي عاشت مرتبطة بالحياة البحرية أشد الارتباط، كما يتجلى ذلك في بعض مظاهر ديانتها، وبعض جوانب معمارها، وبعض قطع أثاث دورها...

مصطفى غطيس mghottes@hotmail.com

[1] - PINDARE, III[e] *Néméenne*, vers 21-26, ct IV[e] *Néméenne*, vers 65-72 :
« (...) من غير السهل الاستمرار في الابحار في اتجاه المحيط المتعذر بلوغه؛ هناك فيما وراء العمودين اللذين نصبهما ذاك البطل ، ذاك الإله، دليلا شهيرا على نهاية ملاحته... لكن يستحيل تجاوز قادس، فبعدها لا وجود إلا للظلمات (...)».

مصادر ومراجع البحث

- ABOULFEDA, *Géographie d'Aboulféda ;* Traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissements par M. Reinaud ; t. II, 1ère partie, Paris 1848.
- ANDRÉ (A), *Le littoral atlantique marocain, étude de géographie physique*, Travaux du C.G.E.R.R. n°6, Univ. De Poitiers 1975, pp.57-76.
- AUJAC (G.), *Strabon et la science de son temps*, Paris 1966.
- AUJAC (G.), Les traités sur l'Océan et les zones terrestres, *R.E.A.*, 74, 1972, pp. 74-85.
- AUJAC (G.), *La Géographie dans le Monde antique,* Paris 1975.
- AUJAC (G.), *Claude Ptolémée, astronome, astrologue, géographe : connaissance et représentation du monde habité*, Paris 1993.
- AVIENUS, *Description de la terre. Les régions maritimes. Phénomènes et pronostics d'Aratus, et pièces diverses.* Paris 1843.
- BERARD (V.), *Les navigations d'Ulysse.* 3 : *Calypso et la Mer de l'Atlantide*, nlle éd., Paris 1971.
- BERTHELOT (A.), *L'Afrique Saharienne et Soudanaise, ce qu'en ont connu les Anciens,* Paris1927.
- BOUBE (J.), Fouilles archéologiques à Sala : problèmes de la recherche historique au Maroc, *Hespéris-Tamuda*, VII, 1966, pp. 23-32.
- BOUBE (J.), Index des marques de potiers italiques découvertes au Maroc, *BAM,* XII, 1979-1980, pp. 217-235.
- BOUBE (J.), Les origines phéniciennes de Sala de Maurétanie, *BCTH*, 17 B, 1981, pp. 155-170.
- BOUBE (J.), *De l'empire romain aux villes impériales, 6000 ans d'art au Maroc*, Musée du Petit Palais, Paris, 1990.
- BOUBE (J.), *Les nécropoles de Sala*, Paris 1999.
- BROCHE (G.-E.), *Pythéas le Massaliote. Découvreur de l'Extrême Occident et du Nord de l'Europe (IVe S. av. J.-C.)*, Paris 1935.
- BROSSARD (Contre- amiral R. de), *Histoire maritime du monde*, t. I : De l'Antiquité à Magellan, Paris 1974.
- BRUNOT (L.), *La mer dans les traditions et industries indigènes à Rabat et Salé*, Paris 1920.
- CARCOPINO (J.), *Le Maroc antique*, Paris 1943.
- CARY (M.) et WARMINGTON (E.-H.), *Les Explorateurs de l'Antiquité*, Paris 1932
- CASARIEGO (J.-E.), *El periplo de Hannon de Cartago,* Madrid 1947.
- CHARLES-PICARD (G. et C.), *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal* (IIIe S. av. J.-C.), 2è éd. Paris 1982.
- COLIN (F.), Le récit de Sataspes s'inspire-t-il de sources égyptiennes ? *ZPE,* LXXXII, 1990, pp. 287-296.
- DAREMBERG (Ch.) et SAGLIO (Ed.), *Dictionnaire des Antiquités grecques et romaines.*
- DEMERLIAC (J.-G.) et MEIRAT (J.), *Hannon et l'empire punique*, Paris 1983

- DEPEYROT (G.), *Zilil I ; Etude du numéraire.* Recherches archéologiques franco-marocaines à Dchar Jdid, Colonia Iulia Constantia Zilil, Ecole Française de Rome, 1999.

- DESANGES (J.), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique,* Ecole Française de Rome, 1978.

- FABRE (P.), Les Grecs à la découverte de l'Atlantique, *R.E.A.*, XCIV, 1992, n° 1-2, pp. 11-21.

- GATTEFOSSE (J.), L'Atlantide et le Tritonis Occidental, *Bulletin de la Société de Préhistoire du Maroc,* 6è année, n° 2, 2è sem., 1932, pp. 53-139.

- GRIMAL (P.), *Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine*, Paris 1982.

- GSELL (St.), *Hérodote*, Alger 1915.

- GSELL (S.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* 8 vol., Paris 1913-1928.

- GSELL (S.), Connaissances géographiques des Grecs sur les côtes africaines de l'Océan, *Mémorial H. Basset,* Paris 1928, pp. 293-312.

- HARDY (G.) et AURES (P.), *Les grandes Etapes de l'histoire du Maroc*, Paris 1921.

- HERODOTE, *L'Enquête*, Texte présenté, traduit et annoté par A. Barguet, Paris, Gallimard, 1964.

- HÉSIODE, *Théogonie*, Texte établi et traduit par P. Mazon, Paris 1964.

- HOMERE, *L'Iliade*; Traduit et présenté par M. Meunier, Paris 1972.

- HOMERE, *L'Odyssée,* Texte établi et traduit par V. Bérard, T. I : chants I-VII, Paris 1955 ; T. II : chants VIII- XV, Paris 1959.

- *Instructions Nautiques,* Océan Atlantique Est, I, Paris 1932.

- *LIXUS* ; Colonia fenicia y ciudad punico-mauritana. Anotaciones sobre su ocupacion medieval. C. Aranegui Gasco, editora cientifica, *Saguntum*, Extra -4, 2001.

- LOPEZ PARDO (F.), Nota sobre las amforas II y III de Kuass (Marruecos), *Ant. Afr.*, XXVI, 1990, pp. 13-23.

- LUQUET (A.), Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc. Le Maroc punique, *BAM*, IX, 1973-1975, pp. 237-293.

- LUQUET (A.), Note sur la navigation de la côte atlantique du Maroc, *B.A.M.,* IX, 1973-1975, pp. 297-304.

- MANILIUS, *Astronomiques, in* : Œuvres complètes avec la trad. en français de Nisard, Paris 1843.

- MARCY (G.), Notes linguistiques autour du périple d'Hannon, *Hespéris*, XX, 1935, pp. 21-72.

- MARTIAL, *Ephgrammes*, T. I, (Livres 1-7), Texte établi et traduit par H. Z. IZAAC, 3e éd., Paris 1969.

- MAUNY (R.), *Les navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1443)*, Lisbonne 1960.

- MAUNY(R.), *Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Histoire et archéologie,* Paris 1971.

- MAYET (F.), Marques d'amphores de Maurétanie tingitane (Banasa, Thamusida, Volubilis), *MEFR*, 90, 1, 1978, pp. 357- 393.

- MOLLAT DU JOURDIN (M.) et DESANGES (J.), *Les routes millénaires*, Paris 1988.

- MONTAGNE (R.), Les marins indigènes de la zone française du Maroc, *Hespéris*, III, 1923, pp. 175-216.

- MONTET (P.), *La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès*, Paris 1946.

- MULLER (C.), *Geographi Græci Minores*, t. I, Paris 1855.

- ONRUBIA PINTADO (J.), Les relations entre les îles Canaries et l'Afrique du Nord pendant les temps préhispaniques. Archéologie et ethnohistoire d'une aire marginale, *TLAPEMO*, 1985, pp. 1-23.

-OVIDE, *Les Métamorphoses*, Traduction, introduction et notes par J. Chamonard, Paris 1966.

- PAULIAN (A.), Le thème littéraire de l'Océan, *Caesarodunum* n° 10, *Actes du Colloque « Du Leman à l'Océan »*, Tours 1975.

- PICARD (Ch.), *L'océan Atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade*, Paris 1997.

- PICARD (G.-Ch. et C.), *Vie et mort de Carthage*, Paris 1970.

- PINDARE, *Néméennes* ; T. III, Texte établi et traduit par A. Puech, 4e éd., Paris, Les Belles Lettres, 1967.

- PLINE L'ANCIEN, *Histoire Naturelle*, Livre V, 1- 46 ; 1ere partie : L'Afrique du Nord. Texte établi, traduit et commenté par J. Desanges, Paris, Les Belles Lettres, 1980.

- PLUTARQUE, *Vies*, T. I, Thésée – Romulus, Paris 1957.

- PONSICH (M.), Kouas, port antique et carrefour des voies de la Tingitane, *B.A.M.*, VII, 1967, pp. 369-405

- PONSICH (M.), *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, Paris 1970.

- PONSICH (M.), *Aceite de oliva y salazones de pescado. Factores geo-economicos de Betica y Tingitana*, Madrid 1988.

– RAMIN (J.), *Mythologie et géographie*, Paris 1979.

- REBUFFAT (R.), Quatre ans de fouilles à Sidi Ali ben Ahmed (Thamusida), *MEFR*, 75, 1, 1963, pp. 67-78.

- REBUFFAT (R.), Thamusida. Fouilles du Service des Antiquités du Maroc II, Ecole Française de Rome, Mélanges d'archéologie et d'histoire, suppléments, 2, Paris, 1970.

- REBUFFAT (R), D'un portulan grec du XVIe siècle au périple d'Hannon, Karthago, XVII, 1976, pp. 139-151.

- REBUFFAT (R), *Thamusida. Fouilles du Service des Antiquités du Maroc III*, Ecole Française de Rome, Mélanges d'archéologie et d'histoire, suppléments, 2, Paris, 1977.

- ROGET (R.), *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris 1924.

- ROGET-COEYTAUX (Rde), *Index de topographie antique du Maroc*, PSAM, 4, 1938

- ROSENBERGER (B.), Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'oued Tensift, *Hespéris-Tamuda*, VIII, 1967, pp. 23- 66.

- SCHMITT (P.), Connaissance des Iles Canaries dans l'Antiquité, *Latomus*, XXVII, 1968, pp. 362-391.

- SENAC (R.), Le périple africain par la flotte de Néchao, *La Revue Maritime*, n° 241, mars 1967, pp. 281-293.

- STRABON, *Géographie*, Livre XVII ; Traduction de Letronne, Paris 1819.

- THOUVENOT (R.), *Essai sur la province romaine de Bétique*, Paris 1940.
- THOUVENOT (R), Une remise d'impôts en 216 ap. J.-C., *CRAI*, 1946, pp. 548-558.
- THOUVENOT (R.), La côte océanique du Maroc, ce qu'en ont connu les Anciens, *Bulletin de l'Enseignement public*, 38e Année, n° 215, 4e Trimestre 1951, pp. 38- 48.
- THOUVENOT (R.), La côte atlantique de la Lybie d'après le géographe Ptolémée, *Hommage à la mémoire de J. Carcopino*, publié par la Société archéologique de l'Aude, Paris 1977, pp. 267-275.
- THUCYDIDE, *La Guerre du Péloponnèse ;* Texte présenté, traduit et annoté par D. Roussel, Paris 1964.
– TISSOT (Ch.), Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de l'Institut de France*, 1ère série, t. IX, Paris 1878, pp.139-322.
- VILLARD (F.), Céramique grecque du Maroc, *BAM*, IV, 1960, p. 1-26.
- VIRGILE, *Les Bucoliques, Les Géorgiques* ; Traduction, chronologie, introduction et notes par M. Rat, Paris 1967.
- VIVIEN DE SAINT-MARTIN (L.), *Le Nord de l'Afrique dans l'Antiquité grecque et romaine. Etude historique et géographique*, Paris, 1863.

مدينة تشمس من خلال النصوص العربية الوسيطية

ذ. مصطفى شقروف

سنعمد في هذا المقال على استخراج النصوص من المصادر العربية في العصر الوسط المتعلقة بمدينة تشمس، ومحاولة تحليل بعض معطياتها، إلا أن المهمة الرئيسية تبقى موكولة إلى البحث الأثري، الذي يعتبر الوحيد القادر على استخلاص النتائج والتدقيق فيها لما له من آليات وإمكانيات علمية تخوله للقيام بهذه المهمة، وهذا ليس تقليلا منا لأهمية المعطيات التي جاءت بها الشهادات والنصوص المصدرية العربية، بقدر ما هي تزكية لهذه المصادر، والاعتراف بدورها كمورد أساسي يستخرج منه علم الآثار معلوماته من أجل الكشف عن مجال التمدن ببلاد المغرب في العصر الوسيط في إطار ما يسمى بالأركيولوجية الإسلامية.

وقد تبين لنا من خلال هذه المحاولة أن الجغرافيين العرب من مشارقة ومغاربة كانوا أكثر اهتماما من غيرهم من المؤرخين بأصول المدن المغربية والشعوب التي أسستها. كما أبانت هذه المحاولة أن النصوص والشهادات العربية الوسيطية لم تفلح البتة في تعويض المصادر الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية بخصوص الحقب ما قبل الإسلام، التي تراجعت فيها مساهماتها بشكل كبير، وأن عملية البحث في هذه الحقب تبقى موكولة إلى الأركيولوجيا.

1/ إشكالية التسمية والتوطين :

لم يعرف أي موقع أركيولوجي نقاشا حادا حول إشكالية الاسم كما عرفه هذا الموقع، سواء في الكتابات الغربية، أو النصوص العربية المشرقية والمغربية، وذلك راجع لتنوع صيغه وتعددها.

أول الإشارات لاسم هذا الموقع أو المدينة وردت عند الجغرافي المشرقي ابن حوقل المتوفى عام 977م تحت اسم **تشمس** Tashmmus[1]، وعند البكري الأندلسي المتوفى سنة 1094م **تشومس** Tushummés[2]، وعند الإدريسي (1099-1153) **تشمس** Tushammus[3]، أما في كتاب الاستبصار لمؤلف مغربي مجهول من أهل القرن

---

[1] - ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، بريل 1938، ص79-80.

[2] - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (من كتاب المسالك والممالك)، نشر دي سيلان، الجزائر 1857، ص 114.

[3] - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في افتراق الآفاق ، تحقيق جماعة من الباحثين، نابولي، إيطاليا بدون تاريخ، ص166

الثاني عشر الميلادي فقد جاءت تسميتها بصيغة تُشُمُّس Tushummus[1]، في حين كتبها كل من ياقوت الحموي (1179-1229) ب تشمس بضمتين وتشديد الميم والسين المهملة Tushummus[2]، والحميري ب تشومس Tushummés[3] .

نفس الإشكال نلمسه في المصادر الأجنبية، وخاصة في الخرائط الأوربية للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فقد كتب اسم هذه المدينة بالأحرف اللاتينية بالصيغ التالية : Tussimussi وTuximuxi وTaximus وTuximus.

مصدر آخر من القرن السادس عشر الميلادي : Esmeraldo de Situ orbis لمؤلفه الرحالة البرتغالي Duarte Pacheco Pereira جاء فيه اسمها بصيغة مختلفة[4].

هل هي أسماء متعددة لموقع واحد، أم لأماكن مختلفة جغرافيا ؟ للحسم في الموضوع لا بد من تدخل علم الآثار.

أما عن أصل تسمية تشمس فهو غير معروف، وإن كان الاحتمال أن يكون من أصل فينيقي نقل إلى العربية، فكثير من أسماء الأماكن على الساحل الأطلسي فينيقية الأصل، منها من احتفظ بنفس الاسم، ومنها من تغير[5].

أما بخصوص الموقع الجغرافي لمدينة تشمس فقد حددته النصوص المصدرية الوسيطية على الشكل التالي :

يذكر ابن حوقل أن "تشمس... تركب وادي تشمس هذا المعروف بسفدد وبينها وبين البحر نحو ميل. ويمد سفدد هذا شعبتان تقع فيه إحداهما من بلاد دنهاجة من جبلي البصرة، والثانية من بلد كتامة... فيه يحمل أهل البصرة تجارتهم في المراكب، ثم يخرجون إلى البحر المحيط "[6].

أما البكري فقد اكتفى بوصفها بأنها "تشومس... كثيرة المياه... ويسمى بذلك الموضع سفدد"[7]

---

[1]- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء 1985، ص140.

[2]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، الجزء الثاني، ص32.

[3]- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980، ص141.

[4]- أنظر: معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا 1995، الجزء السابع، ص 2382.

[5]- لقد تم العثور على قطع نقدية ضربت في ليكسوس في المرحلة الموريطانية قبل الاحتلال الروماني، كتبت على إحدى هذه النقود عبارة MQM SMS وتعني « Temple du Soleil » أي "مقام شمس". ويعتقد أن الموقع كان مخصص لسك النقود في ليكسوس. راجع في هذا الشأن :

J. Alexandropoulos, *Contribution à la définition des domaines monétaires numides et maurétaniens* , in Studia Phoenicia, IX, 1992, p. 138.

[6]- ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص79-80.

[7]- أبو عبيد الله البكري، مصدر سبق ذكره، ص 794.

في حين حددها الإدريسي على أنها "تشرف على نهر سفدد وبينها وبين البحر نحو ميل... نهر سفدد وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب ومنه يشرب أهل تشمس... وهذا الوادي أصله من مائين يخرج أحدهما من بلد دنهاجة من جبلي البصرة والماء الثاني من بلد كتامة ثم يلتقيان فيكون منهما نهر كبير وفي هذا النهر يركب أهل البصرة في مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر "[1].

وأيضا صاحب الاستبصار قائلا : "بقربها بحيرة كبيرة تسمى أمسنا يصب فيها البحر... ومصب واديه في البحر على خمسة عشر ميلا أو نحوها، على المدخل حصن كبير قديم يسمى تشمس"[2].

نفس الوصف نجده عند كل من ياقوت الحموي : "تشمس... تركب وادي شفدد وبينها وبين البحر المغربي نحو ميل، يمد وادي شفدد شعبتين تقع إليه إحداهما من بلد دنهاجة من جبلي البصرة والثانية من بلد كتامة... وفيه يحمل أهل البصرة تجارهم في المراكب ثم يخرجون إلى البحر المحيط "[3].

ويوضح ابن سعيد الأمر أكثر قائلا : "نهر القصر وهو مشهور عند المسافرين (في البحر) يأوي إليه المراكب المتوسطة حتى يستقيم لها الهواء في البحر المحيط وعلى جانبه الجنوبي عند البحر العرائش وعلى جانبه الشمالي تشمس"[4] .

وكذا الحميري : "تشومس : مدينة في المغرب من جهة أصيلة... وبقربها بحيرة كبيرة تسمى أمسنا يصب فيها ماء البحر"[5] .

من خلال هذه الإشارات التي استقيناها من المصادر العربية يتضح أن المسافة التي كانت تفصل تشمس عن البحر نحو ميل[6]، وأن المدينة كانت تقع عند مصب نهر سفدد، الذي يتغذى من مياه منابع كل من بلد دنهاجة وبلد كتامة، ويصب في البحر المحيط. نستنتج من هذه الأوصاف أن نهر سفدد يتوافق مع طبوغرافية الواد المسمى المخازن المار بالقرب من القصر الكبير، والذي يتغذى من نفس الشعبتين ويصب في النهر المعروف بنهر اللوكوس، الذي يصب بدوره في المحيط الأطلسي بالغرب من مدينة العرائش[7].

---

1 - الشريف الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص166.

2 - مجهول، مصدر سبق ذكره، ص140.

3 - ياقوت الحموي، مصدر سبق ذكره، ص32.

4 - عبد المنعم الحميري، مصدر سبق ذكره، ص141.

5 - ابن سعيد المغربي، مصدر سبق ذكره، ص80.

6 - الميل ج أميال وحدة قياس طول قدرها 1609 أمتار.

7 - اللوكوس هو أحد الأنهار الرئيسية الأربعة التي تتغذى من مياه جبال الريف الغربية، والتي تتكون من واد مرتيل وواد لاو الذين يصبان في البحر الأبيض المتوسط، ثم واد اللوكوس وواد تهدارت اللذين يصرفن مياه الضفة الجنوبية الغربية نحو المحيط الأطلسي. ولنهر اللوكوس عدة روافد، لكنها تكاد تكون موسمية، أهم هذه الروافد وأطولها واد المخازن. للمزيد من المعرفة أنظر معلمة المغرب، الجزء 20، 2004، ص6902-6903.

هذه المقارنة تدفعنا إلى الاعتقاد، وبدرجة كبيرة، أن نهر سفدد يقصد به في المصادر العربية الوسيطية نهر اللوكوس، وأن المدينة المسماة بتشمس التي تصفها مصادرنا العربية الوسيطية بأنها كانت تقع على وادي سفدد، وأنها كانت تبعد عن البحر المحيط نحو ميل هي التي تقع حاليا على واد اللوكوس، وهذا الوصف يتطابق مع الربوة المعروفة حاليا بالشميش أو بالشميس[1].

وإذا قمنا بتحليل نصي لكل من ابن سعيد المغربي والحميري فإننا سنخرج بنفس النتيجة، حيث أن ابن سعيد يوطن تشمس على الجانب الشمالي للنهر، وفي مقابلها على الجانب الجنوبي لنفس النهر تقع مدينة العرائش[2]، أما الحميري فقد وطن هو بدره أثناء حديثه عن الساحل الأطلسي مدينة تشمس من جهة أصيلة، أي في الضفة التي تأتي فيها أصيلة مباشرة بعد تشمس[3].

إن هذا الوصف وهذه الطبوغرافية نجدها تتطابق مع موقع مدينة ليكسوس الأثرية التي تقع بدورها على ربوة الشميش أو الشميس جنوب واد اللوكوس وعلى بعد ميل تقريبا عن المحيط الأطلسي، وبالتالي فمدينة تشمس ربما كانت تقع فوق أو بالقرب من مدينة ليكسوس الأثرية، خصوصا وأن نصوص مصادرنا العربية تذكر هي الأخرى أوصافاً مثل : "فيها آثار للأول" أو "مدينة قديمة أزلية أولية" أو "مدينة عليها سور من البناء الأول" الخ[4]. وهذه الآثار تعود لمدينة ليكسوس، والتي كانت تسمى في الماضي، حسب بعض الدارسين باسم مدينة تشميش (Tchemich) أو الشميس، أي مدينة الشمس[5].

Ressources en eau du Maroc – El Gharbaoui, *La terre et l'homme dans le péninsule tingitane*, Rabat 1981.

[1] - لا زالت أنقاض هذه المدينة توجد إلى يومنا هذا واضحة المعالم على ربوة عالية قرب الطريق الرئيسية الرابطة بين العرائش وطنجة، ووقف على هذه الأنقاض مجموعة من المؤرخين الأجانب كالرحالة الألماني بارت Barthالذي زارها في أواسط القرن الماضي 1845، والدبلوماسي الفرنسي شارل تيسو Tissou صاحب كتاب *Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane,* 1877، وكذلك الفرنسي لامرتنيير La Martinière. حيث أشاروا إليها في أبحاثهم الأركيولوجية على أن هذه الأنقاض هي أنقاض ليكسوس المعروفة باسم "الشميش أو الشميس"، المذكورة في المصادر التاريخية القديمة.

[2] - ابن سعيد، *مصدر سبق ذكره*، ص80.

[3] - الحميري، *مصدر سبق ذكره*، ص141.

[4] - المصادر العربية تسوق مجموعة من الإشارات تبرز فيها أزلية مدينة تشمس نجدها عند كل من ابن حوقل والبكري وصاحب الاستبصار وياقوت الحموي والحميري.

[5] - راجع محمد الصغير غانم، *التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان 1979، ص91. يعتقد أن اسم الشميس الذي نسب إليها راجع لكونها كانت تعبد بها آلهة الشمس "ميلقارط" « Melkart »، ويخبرنا بلين Pline في هذا الصدد "أنها كانت حسب أقوال القدامى موضع الأساطير العجيبة"

Ahmed Almaknassi , *Archéologie Marocaine : Lixus*, Tétouan 1961 ; p. 8.

وقد ساعدت عمليات الحفر الأثرية التي قام بها فريـــق Tarradell[1]، الــذي تـــسلم مهمة الإشراف على مصلحة الآثار في الشمال المغربي فـــي ســـنة 1948 بـــالقرب مـــن الأطلال في موقع لكسوس الأثري، على العثور على بقايا مسجد إسلامي صغير بمحـــراب في اتجاه القبلة، وعلى جانبيه حجرتان، واحدة كانت خاصة بـــالمنبر وأخـــرى بالإمـــام، وبفنائه خزان لجمع ماء الوضوء[2]. من المحتمل أن يكون هذا المسجد هو نفسه الذي جـــاء ذكره عند الحميري نقلا عن صاحب الاستبصار: "وبين البحر والبحيرة مـــسجد مقـــصود معظم يسكن حوله النســـاك"[3].

تبقى هذه الآثار الإسلامية التي تم العثور عليها في ليكسوس وسط البناء الرومـــاني القديم دليل على أن المدينة عمرت في آخر عهودها بالفـــاتحين العـــرب، الـــذين فـــضلوا الاستقرار بها مستغلين ما تبقى فيها من أسوار وأعمدة التي بقي بعضها منتصبا في ذلـــك العصر، حيث أقاموا بها مدة محدودة، لينتقلوا منها فيما بعد ويؤسسوا لهم مدينـــة جديـــدة على ضفة النهر المقابلة، هي مدينة العرائش الحالية. وبعد هجرة العـــرب منهـــا دمـــرت تشمس تدميرا كليا، وغطت أنقاضها على مر الزمن الأتربة.

لم تنفرد مدينة تشمس دون غيرها من المدن بهذا العمران الإسلامي، بل نجد مثلـــه في وليلي على عهد المولى إدريس الأول، والقصر الـــصغير المـــذكور فـــي النـــصوص العربية الوسيطية باسم "قصر الأول"، أي القصر الذي بناه الرومان قبل الفـــتح الإســـلامي لبلاد المغرب.

من خلال هذا التحليل نعتقد أن مصادرنا كانت تقصد بمدينة تشمس تلـــك المدينـــة الإسلامية التي بنيت فوق مدينة ليكسوس الفينيقية، إلا أن هذه المدينة الإسلامية ربما تكون قد دمرت هي الأخرى بفعل الحروب النصرانية على العرائش وتشمس، إذ أصبحت هـــذه الأخيرة والمنطقة بأكملها هدفا للغارات الإيبيرية. ويذكر الناصري في هذا الـــصدد : "لمـــا

---

[1] - في سنة 1948 وتحت إشراف Tarradell تم اكتشاف مجموعة من الطبقات المؤلفة لموقع ليكسوس وتؤرخ كل طبقة لمرحلة أركيولوجية، حيث توجد على عمق خمسة أمتار تقريبا طبقة سفلى بناؤها يعود للفترة الفينيقية ممزوجة في نفس الوقت بالبناء الموريطاني الأول، ثم فوقه البناء الروماني الأول، ثم فوقه النوع الروماني الذي عاصر الإمبراطورية، وفوق كل هذه الطبقات يأتي البناء المتأخر الذي انقرضت معه المدينة، وفوق كل هذه المجموعة من الطبقات توجد طبقة بناؤها بسيط يرجع عهدها إلى العصور الأولى للفتح الإسلامي للمغرب، تحتوي على مجموعة هامة من الكسرات الخزفية الإسلامية المختلفة الصنع والألوان، وبعض القطع من الفخار المطبوخ نقشت عليه كتابات عربية بالحروف الكوفية. Ahmed Almaknassi , *Archéologie Marocaine* : *Lixus*, Tétouan 1961 ; p. 9

[2] - أحمد المكناسي، *مدينة ليكسوس الأثرية*، دار كريماديس للطباعة، تطوان 1961، ص27.

[3] - أثناء التنقيبات الأثرية التي أجريت حول موقع ليكسوس في سنوات الخمسينيات، عثر الباحث الأثري الإسباني M. Tarradell على موقع مخصص للعبادة معتقدا أن الأمر يتعلق بكنيسة تعود إلى الفترة الرومانية الأخيرة، إلا أن الأبحاث الأثرية الأخيرة أثبتت أن البناية هي مسجد إسلامي يعود لفترة الحكم الإدريسي للمنطقة.
Au cours de ses recherches à Lixus aux années 50, M. Tarradell identifiait la mosquée comme étant une basilique paléochrétienne.

كان المحرم من سنة 668هـ / 1268-1269م هجم النصارى علـى مدينـة العـرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها و سـبوا نـساءها وانتهبـوا أموالهـا و أضرموها ناراً و رجعوا عودهم على بدءهم" [1] .

وفي نفس السياق يذكر البحارة البرتغالي Valentin Fernandes أنه لاحظ خلال رحلته عبر الساحل المغربي سنة 914-915هـ / 1506-1507م وجود مدينة العـرائش وفي الجهة المقابلة لها على الضفة اليمنى لوادي اللوكوس حصنا صغيرا[2]. وإذا ما دققنـا في التاريخ الذي أجرى فيه Valentin Fernandes رحلته سنلاحظ أنه غير بعيـد عـن الزمن الذي كتب فيه الحسن الوزان مؤلفه "وصف إفريقيا"، إلا أننا نجد هذا الأخير لم يشر إلى هذا الحصن أو يذكر اسمه، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد أن حصن تشمس ربما كـان قـد اندثر ولم يجد الحسن الوزان أثرا له، وهذا ما نلمسه من قوله : "كانت العـرائش كثيـرة السكان لكن بعدما سقطت هاتان المدينتان (العرائش وأصيلا) في أيدي النـصارى غـدت العرائش مهجورة". لكن الباحث R . Roget، وهو يتتبع المواقع البحرية مـا بـين سـلا وأصيلا، أشار في كتابه Le Maroc chez les auteurs anciens p.40 إلـى وجـود موقع باسم تـشـمـش، مما يدفعنا إلى التساؤل التالي : هل هذا الموقع هو نفـس موقـع تشمس القديمة، أم أن هناك عدة أسماء لعدة مواقع أخرى مختلفة في الزمان والمكـان ؟[3].

2/ جرد كرونولوجي للشهادات المصدرية الوسيطية حول مدينة تشمس :

ابن حوقل : (من كتاب القرن الرابع الهجري)

يقول : "تشمس وهي مدينة لطيفة قديمة أزلية أولية جاهلية، وعليها سور من البنـاء الأول، تركب وادي تشمس المعروف بسفدد وبينها وبين البحر نحو ميـل. ويمـد سـفدد شعبتان تقع فيه إحداهما من بلاد دنهاجة من جبلي البصرة، والثانيـة مـن بلـد كتامـة. وكلتاهما ماء كثير فيه يحمل أهل البصرة تجارتهم في المراكب، ثم يخرجون إلـى البحـر المحيط ويعودون إلى البحر الغربي فيسيرون منه حيث شاءوا، وبين مدينة تـشمس هـذه والبصرة دون المرحلة على الظهر"[4].

---

[1] - معلمة المغرب، مرجع سبق ذكره، ص2381.

[2] - أنظر : معلمة المغرب، مرجع سبق ذكره، ص2382، P . de Cenival et Th. Monod, *Description de la côte de l'Afrique de Ceuta au Sénégal* par Valentin Fernandes.

[3] - نفس المرجع، ص2381.

[4] - ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص79-80.

البكري : (من كتاب القرن الخامس الهجري).

يقول : "ثم إلى مدينة تشومس مدينة ميمون بن القاسم وهي مدينة أولية عليها سور صخر كبير آهلة كثيرة المياه والثمار ويسمى بذلك الموضع سفدد ويتسع هناك"[1].

الإدريسي : (من كتاب القرن السادس الهجري) .

يقول : "ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الأعظم آخذاً في جهة الجنوب إلى أرض تشمس، وتشمس كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة، وتشرف على نهر سفدد، وبينها وبين البحر نحو ميل ولها قرى عامرة بأصناف من البربر وقد أفنتهم الفتنة أبادتهم الحروب المتوالية عليهم. ومن تشمس إلى قصر عبد الكريم وهو على مقربة من البحر وبينه وبين طنجة يومان، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة على ضفة نهر لكس... وعلى مقربة منها في طريق القصر نهر سفدد وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدم ذكرها وهذا الوادي أصله من مائين يخرج أحدهما من بلد دنهاجة من جبلي البصرة والماء الثاني من بلد كتامة ثم يلتقيان فيكون منهما نهر كبير وفي هذا النهر يركب أهل البصرة في مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاؤوا. وبين تشمس والبصرة دون المرحلة على الظهر"[2].

صاحب الاستبصار : (من كتاب القرن السادس الهجري).

يقول : "مدينة تشمس : وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار للأول، وهي على نظر واسع كثيرة الخصب والزرع والفرع، وهي تشبه بلاد الأندلس، وبقربها بحيرة كبيرة تسمى أمسنا، يصب فيها البحر سبعة أعوام وتصب هي في البحر سبعة أعوام، وينقطع البحر عنها فتظهر فيها جزائر بينها غدران يتصيد فيها أنواع السمك، وبين البحر والبحيرة مسجد يسكن حوله النساك وأهل الخيرة، وأمرهم مشهور بتلك الجهات معروف. ومصب واديه (أي قصر صنهاجة) في البحر على خمسة عشر ميلا أو نحوها، على المدخل حصن كبير قديم يسمى تشمس قدمنا ذكره، وكان إدريس بن القاسم بن

---

[1] ـ البكري، مصدر سبق ذكره، ص114. من الممكن أن يكون ميمون بن القاسم هذا الذي ينتمي إلى الأسرة الإدريسية قد جدد المدينة، لأن الجدة كنزة بعد موت إدريس الثاني قسمت المملكة بين أبنائه الأمراء الذين ملكوا المنطقة و أسسوا بها مجموعة من المدن والحصون وجددوا أخرى كانت موجودة.

[2] ـ الشريف الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص166. الجديد في شهادة الإدريسي هو تسميته للماء الذي يمد سفدد والذي يمر بالمحاذاة من مدينة قصر عبد الكريم بنهر لكس، وهذا النهر معروف حاليا باسم واد المخازن، بينما وادي سفدد هو الذي يطلق عليه اليوم "اللوكوس"، وهو اسم قريب جدا من كلمة "لكس" التي جاء ذكرها عند الإدريسي. فواد المخازن هو من روافد نهر اللوكوس وبالتالي كان من السهل أن يأخذ الواحد اسم الآخر. نعتقد أن الإدريسي وقع له خلط في تدوين الأحداث الماضية التي شهدتها المنطقة بحكم أن مدينة تشمس ومدينة ليكسوس يتواجدان في موقع واحد، فربما يقصد بالحروب المتوالية عليهم تلك المواجهات التي وقعت بين الرومان والسكان المحليين البربر في ليكسوس بموريطانيا الطنجية آنذاك.

إبراهيم العلوي قد أحيا رسمه وإزهره، فهو إلى الآن معمور ويسكنه المتعيشون من البحر ومنه، تشحن المراكب بالزرع"[1].

ياقوت الحموي : (من كتاب القرن السادس الهجري).

يقول : "تشمس بضمتين وتشديد الميم والسين المهملة، مدينة قديمة بالمغرب عليها سور من البناء القديم تركب وادي شفدد وبينها وبين البحر المغربي نحو ميل، يمد وادي شفدد شعبتين تقع إليه إحداهما من بلد دنهاجة من جبلي البصرة والثانية من بلاد كتامة وكلاهما ماء كثير وفيه يحمل أهل البصرة تجارتهم في المراكب ثم يخرجون إلى البحر المحيط ويردون إلى البحر الغربي فيسيرون حيث شاؤوا منه وبين مدينة تشمس هذه وبين البصرة دون مرحلة على الظهر وهي دون طنجة بأيام كثيرة"[2].

ابن سعيد المغربي : (من كتاب القرن السابع الهجري).

يقول : "نهر القصر وهو مشهور عند المسافرين (في البحر) يأوي إليه المراكب المتوسطة حتى يستقيم لها الهواء في البحر المحيط وعلى جانبه الجنوبي عند البحر العرائش، وعلى جانبه الشمالي تشمس، وكانتا مدينتين في مدة العلويين ثم صارتا قريتين بالفتن"[3].

الحميري : (من كتاب القرن الثامن الهجري).

يقول: "تشومس: مدينة في المغرب في جهة أصيلة وهي مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول، وهي على نظر واسع كثير الخصب والزرع والضرع وهي تميز بلاد الأندلس، وبقربها بحيرة كبيرة تسمى أمسنا يصب فيها ماء البحر سبعة أعوام تصب هي في البحر سبعة أعوام وينقطع البحر فتظهر فيها جزائر بينها غدران يتصيد فيها أنواع السمك، وبين البحر والبحيرة مسجد مقصود معظم يسكن حوله النساك وأهل الخير وأمرهم مشهور بتلك الناحية معروف"[4].

الحسن الوزان : (من كتاب القرن السادس الهجري).

أما عن الحسن الوزان فإنه كما سبقت الإشارة لم يذكر موقعا أو مدينة باسم تشمس، لكن في المقابل ذكر مدينة أخرى من الصعب توطينها في الوقت الحالي تحمل

---

[1] - مجهول، مصدر سبق ذكره، ص140. نستنتج من نص صاحب الاستبصار أن تشمس في القرن السادس الهجري كانت محطة نهرية تستقبل الزرع والفرع القادم من المناطق القريبة ليعاد تصديره إلى المناطق النائية.

[2] - ابن سعيد المغربي، مصدر سبق ذكره، ص138. وصف ابن سعيد لموقع مدينة تشمس يتوافق مع طبوغرافية مدينة ليكسوس التي لم يبقى منها سوى الأطلال، هذا الموقع نجده اليوم على بعد 5 كلم من العرائش شمال النهر المعروف اليوم باللوكوس، وهو النهر الذي سماه ابن سعيد بنهر القصر هو النهر الذي يسمى حاليا بواد المخازن أحد روافد نهر اللوكوس.

[3] - ياقوت الحموي، مصدر سبق ذكره، ص390. لم يقدم لنا ياقوت الحموي أي جديد نفس المعلومات سبق ووردت عند كل من ابن حوقل والإدريسي، وهذا يعني أن ياقوت الحموي نقل عن هؤلاء وهي عادة جرى عليها معظم الجغرافيين العرب.

[4] - الحميري، مصدر سبق ذكره، ص141. لم يقدم لنا الحميري أي شيء جديد باستثناء توطينه لتشمس في جهة أصيلة، أي في الضفة التي توجد فيها أصيلة مباشرة.

اسم الجزيرة[1]. فالأوصاف التي أعطاها الحسن الوزان للجزيرة تنطبق إلى حد كبير على تشمس، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار رأي بعض الدارسين الذي يقول بأن تشمس كانت لا تزال قائمة في الفترة التي كان الوزان يؤلف فيها كتابه "وصف إفريقيا"، معتمدين في ذلك على مسألة ذكر الوزان لمعاهدة الصلح بين ملك فاس وقائد الأسطول البرتغالي، والتي عقدت كما هو معلوم بمدينة تشمس يوم الخميس 30 رمضان 894 / 27 غشت 1481[2].

وغير بعيد عن فترة الحسن الوزان كما أشرنا سلفا، لاحظ الرحالة البرتغالي فالنتان فرنانديز أثناء مروره بالساحل المغربي وجود العرائش وفي الجهة المقابلة لها على الضفة اليمنى لوادي اللوكوس حصنا صغيرا، مما يوحي بأن حصن تشمس أعيد بناؤه بعد الهجوم النصراني الذي ذكره الناصري في سنة (1269-1268م) على مدينة العرائش وتيشمس[3].

خلاصة القول يتضح من خلال عرضنا لهذه الشهادات والنصوص أن مدينة تشمس غلب عليها الطابع الإسلامي، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك الآثار القديمة التي ظلت صامدة أمام التغيرات البيئية لفترات طويلة، والتي لاحظها الجغرافيون خلال العصور الوسطى يمكن أن نقول بأن هذه البقايا الأثرية تنتمي بدون شك إلى فترات سابقة من مجيء الإسلام، حيث سكن الموقع في أول الأمر من طرف الفينيقيين الذين أسسوا فوق ربوة شمس مدينة ليكسوس، ونظرا للموقع الإستراتيجي الذي حضيت به هذه الربوة فقد استقر فيها العرب الفاتحون بدورهم بعد دخول الإسلام إلى بلاد المغرب.

كما يتضح أيضا من الشهادات المصدرية أن مدينة تشمس ظلت رغم تعاقب الحضارات عليها مدينة قائمة بذاتها لها مواردها الفلاحية والتجارية والصناعية التي تميزت بها منذ القرن الأول ق.م، ونخص بالذكر صناعة تمليح السمك[4]. كما ظلت أيضا

---

[1] - وقد كتب في هذا الصدد ما يلي : "هذه الجزيرة واقعة في مصب نهر اللوكوس، على نحو عشر أميال من المحيط ومائة ميل من فاس، وكان بهذه الجزيرة مدينة صغيرة هجرت في بداية الحروب مع البرتغاليين، وليس على ضفاف النهر سوى غابة وقليل من الأراضي الفلاحية". الحسن الوزان، مصدر سبق ذكره، ص309.

[2] - كتب الناصري في هذا الصدد ما يلي : "لما كان محرم من سنة 69/668 - 1268 هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وانتهبوا أموالها وأضرموها نارا ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا بلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لأنه كان مشغولا بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم". الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، الجزء الثالث، ص31.

[3] - معلمة المغرب، مرجع سبق ذكره، ص 2381

[4] - A propos des usines de salaison de poisson de Lixus: M. Ponsich et M. Tarradell, *Garum et industries antiques de salaison dans la Méditerranée occidentale*, PUF, Paris, 1965, p. 9- 37.

محافظة على مكانتها العسكرية بفضل موقعها الاستراتيجي فوق ربوة عالية[1]، تتحكم من خلاله على عملية الحماية والدفاع وكذا الإبحار عبر النهر الذي كان يجري في سفحها. بخصوص هذا النهر، فباستثناء مصدر واحد لمؤلف مجهول الذي أشارا إليه باسم **لوكوس** Loukkos، فبقية المصادر الأخرى كتبته تحت اسم **سفدد** Safdad أو **شفدد** Shafdad.

على أي، تبقى المكانة التي حضيت بها فئة الجغرافيين من خلال أوصافهم لبلاد المغرب في مؤلفاتهم الجغرافية أكثر أهمية وشمولية من غيرهم من المؤرخين، حيث أثارت أوصافهم مجموعة من الإشكاليات لذا الباحثين، والتي ستبقى عالقة ما لم تتدخل الأركيولوجيا وخاصة الإسلامية للحسم فيها.

---

[1] - قامت هذه المدينة فوق هضبة محاذية للنهر يبلغ ارتفاعها الأقصى 80 مترا، وتقدر مساحتها ب 75 هكتارا، والتي كانت تيسر مهمة الحماية والدفاع.

بعض إشكاليات حروب الاسترداد في الأندلس

ذ. محمد الشريف

يمثل الوجود العربي الإسلامي في الأندلس امتدادا لحركة الفتح الإسلامي التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية. ونجح المسلمون في السيطرة على معظم نواحي شبه الجزيرة الإيبيرية، فأقاموا بها مدة تقارب ثمانية قرون، إلى أن اضطروا إلى إخلائها كلية في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي (897 هـ / 1492م)، عقب نجاح ما يسمى بحرب أو حركة الاسترداد المسيحية، وهي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون على مجموع لعمليات العسكرية التي نفذها الإسبان المعارضون للوجود العربي بالأندلس منذ نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع. إنها ترجمة حرفية للمصطلح الإسباني "الريكونكيستا" *Reconquista* . ومن نافلة القول أن هذا المصطلح لا يرد في المصادر العربية بتاتا، ولا نعثر على ما يقابله أو يقوم مقامه، أو يشابهه في دلالاته.

وتعد حروب الاسترداد عنصرا كبير الأهمية في تكوين إسبانيا الحديثة، ويعتبرها الشعب الإسباني من أهم الأحداث الوطنية الخالدة في تاريخه القومي، ويرى فيها مقاومة إسبانية قومية، ويعدها أمجد مراحل الكفاح الإسباني خلال تاريخ إيبيريا على مر عصورها التاريخية.

وليس غريبا إن وجدنا الدراسات الأوربية، وعلى الأخص الدراسات الإسبانية، تولي اهتماما كبيرا لحركة الاسترداد؛ إلا أن الطابع الانتقائي يسِمُ معظم تلك الدراسات، لتعمّدها إبراز جوانب معينة في الموضوع، أو تتسم بالغلو في تَقييم الحركة، بل وتتصف في كثير من الأحيان بطابع قومي متطرف، وديني متعصب، بتصويرها حروب الاسترداد على أنها صراع صرف بين الإسلام والمسيحية؛ وبعض تلك الدراسات تفسح المجال لكثير من الأساطير الخارقة، إبرازا للتأييد الإلهي للإيبيريين في مقاومتهم لأعدائهم المسلمين، خاصة في المراحل الأولى للمقاومة المسيحية للوجود الإسلامي بالأندلس.

إن دراسة حركة الاسترداد – التي وضعت حداً لوجود العرب في القارة الأوربية- تخلق لنا حالة حزن وألم، خاصة حينما نقف على صفحاتها المغرقة في القسوة والدموية، وما آل إليه مصير المسلمين الأندلسيين. إنها صفحات تدفعنا إلى تقديم قراءة صراعيّة لتاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية في العصر الوسيط، تختلف جذريا عن القراءات التوافقيّة التسامحيّة التي تعودنا عليها ونحن ندْرس تاريخ الأندلس وحضارتها.

من جهة أخرى تحفزنا دراسة حروب الاسترداد لتخطي مرحلة التغني بأمجاد أجدادنا وبإنجازاتهم، لنتأمل تأملا واعياً في الجوانب المشرقة والكئيبة – على السواء- من

تاريخ أسلافنا، لنتعرّف في صدق على أسرار كبوتهم وعثراتهم الماضية، لنستفيد من ذلـك في حاضرنا، ورسم معالم مستقبلنا.

وليس هناك من شك في أن دراسة تاريخ حركة الاسترداد، منذ أن ظهرت بـداياتها في أعقاب الفتح الإسلامي لإيبيريا إلى أن انتهت بجلاء المسلمين عنها في أواخـر القـرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري، تكشف لنا عـن أسـرار كثيـر مـن عثـرات المسلمين في ماضيهم، وهي عثرات تتشابه معظم أسبابها، وعناصرها، وأشكالها، مع تلـك التي نعانيها، نحن حفدتهم، في الوقت الحاضر؛ إذ ما أشبه اليوم بالبارحة[1].

من المقاومة إلى حروب الاسترداد

لقد انطلقت حركة المقاومة الإسبانية للوجود العربي الإسلامي بالأندلس مـن إقلـيم أشتوريس المطل على الجزء الأوسط من ساحل بحـر كنتبريـة المطـل علـى المحـيط الأطلسي، وذلك في أواخر عام 99 هـ/718م، أي بعد نحو سبع سنوات فقط مـن فـتح المسلمين إيبيريا. فقد تجمع فلول القوط المنهزمين والتجئوا إلى مغارة تدعى كوفادونغا تقع في سلسلة جبال كانتبرية المنيعة في أعلى قممها التـي يطلـق عليهـا الإسـبان منـاقير أوربا Picos de Europa بينما يسميها المؤرخون المسلمون الصخرة، ويجعلونهـا فـي جليقية.

أما القائد الذي التفت حوله هذه الفلول فيدعى بلايو (أو بلاجيوس)، وتعرفه الروايـة العربية باسم بلاي. وهو شخصية يحيط بأصلها الغموض، لكنه على الأرجح ينتمـي إلـى أصل قوطي نبيل.

وتقول بعض الروايات أنه كان ابنا للدوق فافيلا، دوق كنتبرية، وأنه كـان الـساعد الأيمن للملك لذريق. وقد وقع بلاي أسيرا بيد المسلمين، وسجن في قرطبة، لكنه تمكن من الفرار في زمن الحر بن عبد الرحمان الثقفي سنة 98 هـ/ 718م، واتجـه إلـى منطقـة أشتوريس في الشمال الغربي من البلاد[2]. وأخذ ينتقل في هذه المنطقة حتى استقر به المقام في قرية كانجادي أونيس، حيث التف حوله نفر من القوط الهاربين من المـسلمين ومـن الإيبيريين والرومان المقيمين في هذه المنطقة، فأخذ يحرضهم علـى الوثـوب بالمـسلمين ويعيب عليهم الاستسلام والتراجع. وقد لوحق بلاي من قبل منوسة، القائد البربري المـسلم في منطقة الأشتوريس، لكن بلاي تمكن من الإفلات منه والاختفاء في الجبال المنيعة. وقد استهون المسلمون أمر هذه الشرذمة الصغيرة وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية[3].

ولم تلبث أحداث هذا التمرد أن تطورت إلى ثورة فعلية على المـسلمين فـي عـام 103 هـ/722 م، وهي ثورة جرت إلى صدام عسكري بين الفريقين في آكام كوبادونغـا

---

[1] - د. عبد المحسن طه رمضان، **الحروب الصليبية في الأندلس**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2001، ص 16

[2] - د. حسين مؤنس، " بلاي وميلاد أشتريس"، مجلة كلية الآداب، جامعة فواد الأول، مجلد 11، ج 1، القاهرة، 1949

[3] - المقري، أبو العباس أحمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ج3، بيروت، دار صادر، 1988، ص 17 (نقلا عن ابن حيان)

Covadonga المعروفة عند المسلمين بصخرة بلاي، أو الصخرة فقط... وهو صدام أصيبت فيه القوات الإسلامية بأول هزيمة لها على مستوى إيبيريا كلها منذ فتحها. وكان إغفال أمر هؤلاء المقاومين من أعظم الأخطاء التي ارتكبها العرب في الأندلس، فقد قويت معنويات بلاي وجماعته بانسحاب المسلمين فانضم إليه العديد من الأنصار الذين اختاروه ملكا عليهم.

لقد بالغت المصادر اللاتينية في تصوير معركة كوبادونغا فجعلتها شيئا أشبه بالفتح المبين الذي تم بإرادة وتدبير القوى الإلهية، وزاد مؤرخو الإسبان هذا النصر تقديرا وإجلالا فجعلوه بداية لصراعهم من أجل إخراج المسلمين من الأندلس. ولا جدال في أن انتصار مسيحيي أشتوريس على المسلمين في تلك المعركة كان ضعيفا هزيلا في حد ذاته، إذ اقتصر على انحسار النفوذ الإسلامي عن الجزء الجبلي القاحل الذي دارت عليه وحوله المعركة في أقصى شرق أشتوريس[1].

وانتهز ألفونسو دوق كنتبرية -التي لم يكن قد شملتها موجة الفتح الإسلامي الأولى، أو امتدت إليها السيطرة الإسلامية فيما بعد- الفرصة وضم تلك المنطقة إلى دوقيته منذ العام الأول لاعتلائه الحكم في عام 739 م وأعلن **ميلاد أول كيان سياسي مسيحي في الشمال مستقل عن الكيان الإسلامي الأندلسي في الجنوب**، عرف بمملكة أشتوريس التي كانت بمثابة أول تعبير ملموس نحو تكوين جبهة إسبانية مسيحية في شمال إيبيريا ضد المسلمين في تلك الفترة المبكرة.

ويعد ألفونسو الأول (الكاثوليكي) المؤسس الحقيقي لإسبانيا النصرانية، فقد وسع مملكته وقواها وأزاح عنها خطر المسلمين إلى حين. فحكم في ظروف مواتية (121-140 هـ/ 739-757 م) لأن الخلافات الداخلية كانت قد شغلت المسلمين عنها لسنوات طويلة، فسرعان ما تضخمت مساحة مملكته على نحو لم يكن في الحسبان بحيث **امتدت سيطرتها على كل ما يقع شمال نهر دويرة** Duero من إقليم جليقيا (غاليسيا) المطل على المحيط الأطلسي غربا حتى بلاد البشكنش (الباسك) شرقا، **أي ما يوازي نحو ربع مساحة إيبيريا.**

وتطوت استراتيجية هذه المملكة من مجرد الدفاع عن نفسها إلى الهجوم والضغط على المسلمين، ثم تبلورت أهدافها النهائية في تقرير **أحقيتها وحدها في الحياة والسيطرة على إيبيريا**، الأمر الذي لم تقدر معه لوجهتيْ نظر أشتوريس والأندلس أن تلتقيا على هدف، أو أن تتعايشا في سلام ومودة أو حسن جوار، وإنما اتسمت العلاقات بينهما بالعداء الصارخ.

---

[1] - حول معركة كوفادونجا والأراء التي أثيرت حولها، انظر حسين مؤنس، **فجر الأندلس**، القاهرة، 1959، ص 318-342

لقد أوصل المسلمون بأنفسهم مملكة أشتوريس إلى هذه الغايات، وأفسحوا لها بطريقة غير مباشرة الطريق إلى تحقيقها، إذ واكب الفترة الملازمة واللاحقة لنشأتها انشغال المسلمين عنها فيما نشب بين بعضهم البعض من صراعات، بدأت بصراع العرب والبربر الذي ما كاد ينتهي بإخلاء البربر طواعية لمناطق استيطانهم في إقليمي أشتوريس وجليقية، حتى حلت محله حروب ضارية بين العرب أنفسهم.

وهكذا كانت حركة التمرد في إقليم أشتوريس بشمالي إيبيريا وما أعقبها من قيام مملكة فيه مستقلة عن النفوذ الإسلامي في الأندلس، أول تعبير إسباني مسيحي لإعاقة المسلمين على نطاق إيبيريا كلها، ويشكل فترة هامة وحرجة للغاية من تاريخ المسلمين فيها، إذ صارت أشتوريس على هذا النحو البؤرة التي انبثقت منها فكرة المقاومة ضدهم، قبل أن تظهر في غيرها من أقاليم إيبيريا، فابتدأت بها أولى مراحل التقلص التدريجي البطيء للنفوذ الإسلامي في إيبيريا، وهو تقلص تكفلت القوى المسيحية التي تلت مملكة أشتوريس (قشتالة، ليون، أرغون، برشلونة) بإتمام مراحله على صورة أشد وأقسى، وذلك فيما عرف بحركة الاسترداد التي انتهت بالفعل بإجلاء المسلمين عن آخر معاقلهم واستعادة الإسبان السيطرة عليها كلية عام 1492م أي بعد ما يقرب من ثمانية قرون على فتح المسلمين لها عام 711م[1].

إن فكرة حدود ثابتة قارة بين الممالك المسيحية والإسلامية لم تكن لتتوافق مع منطق الريكونكيستا[2] : فكل تقدم مسيحي باتجاه الجنوب لم يكن ليمثل سوى مرحلة أو خطوة في مسار طويل، وأن الأراضي المسترجعة كان يتم تنظيمها وكانت تقسّم حسب التراتبية الاجتماعية للتعمير في أفق التحضير لهجوم آخر مستقبلي. وهكذا نجد أن التحصينات الأولى في مملكة قشتالة، بما في ذلك القصور، التي شيدت نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية القرن الثاني عشر، تم التخلي عنها وهجرها حينما توسعت الحدود أكثر باتجاه الجنوب، وحينما لم يعد لها دور عسكري[3].

ومن المؤكد الآن أن حركة المقاومة المسيحية قد بدأت ضد من استولوا على البلاد، لا ضد ديانة. فالعامل الديني كان ثانويا في تحريك عملية المقاومة وحركة الاسترداد في بداياتها. ولم يبرز هذا العامل جليا في الصراع الإيبيري- العربي الإسلامي إلا مع ترسخ التقليد الديري، خاصة في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية. لقد لعب "الشعور الوطني" دورا كبيرا في نشأة حركة الاسترداد، فلم تكن هذه الأخيرة حربا دينية، بقدر ما كانت حرب تحرير، مارسها الإسبان على مدى امتداد ثمانية قرون متتالية لتخليص بلادهم

---

[1] - د. عبد المحسن طه رمضان، **الحروب الصليبية في الأندلس**، م. س.

[2] - هذا ما يستخلص من دراسة خوسي أنطونيو مارابال :

A. Maravall, *El concepto de España en la Edad Media*, Madrid, 1963

[3] - Ph. Jansen, A. Nef, Ch. Picard, *La Méditerranée entre pays d'Islam et monde latin (milieu Xe-milieu XIIIe siècle)*, SEDES, 2000, p. 296-297

من الوجود العربي الإسلامي. أو لنقل أنهم **نجحوا في خلق ضميرهم الجمعي من خلال صراع لم يتوقف، ولم يكن يفصل البتة بين الدفاع عن العقيدة المسيحية والدفاع عن الوطن** المغتصب.

وإلى حدود القرن الثاني عشر لم تكن المدونات التاريخية المسيحية تطلق على خصومهم تسميات مرتبطة بمعتقدهم الديني (مسلمين، أو كفار...) وإنما أطلقت عليهم تسميات ذات مدلول إثني (من قبيل الموروس، = السكان الأقدمون لمريطانيا الطنجية الرومانية، أي البربر. أو السراسان Sarakenoi وهي كلمة أطلقها الإغريق على قبائل الرحل جنوب فلسطين، أي العرب).

أما المصادر العربية فإنها لا تثير بتاتا قضية الصراع الديني في هذه المرحلة وإنما تتحدث عن الصراع حول الأرض ومن يحق له الاستيلاء عليها. يذكر ابن حيان أن بلاي "عاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، **ودافع عن أرضه**، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عمّا بقي بأيديهم **من أرضهم**"[1].

وفيما بعد نجد أن فرذلند أمير جليقية يشترط على أهل مدينة طليطلة- لعقد الصلح- شروطا لا يقدرون عليها فقالوا له : لو كنّا نقدر على هذه الأشياء، وهذه الأموال لنفقناها على البرابرة، واستدعيناهم لكشف هذه المعضلة. فقال لهم فرذلند : ... وأمّا استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا، وتهددونا به، ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، **فإنّما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أوّل أمركم، فقد سكنتموها ما قُضِي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا عنا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم**، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم[2].

ولئن كان الدافع الديني خافتا في بداية الحركة، فإنه سرعان ما أصبح العنصر المهيكل لمجموع تحركات القوى المسيحية، خاصة بعد تسرّب الأنظمة الديرية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وعلى رأسها نظام كلونيCluny، ونظام سيستيرسيCistercy . وأضفت الكنيسة على حركة الاسترداد صبغة الحرب الصليبية، ومنحتها نفس امتيازاتها. ولقد أبان البابا أينوسان الثالث- تولى كرسي البابوية سنة 1191 م، وهو من أصل إسباني- عن حماسة منقطعة النظير لحركة الاسترداد. وزاد البعد الديني أهمية بعد إنشاء "النظم الدّيرية العسكرية"Ordres militaires، مثل "نظام قلعة رباح Calatrava " سنة 1161، و"نظام شانت ياقب Santiago" سنة 1170، و" نظام القنطرة Alcantara " سنة 1213، وغيرها من الأنظمة العسكرية التي قامت ونشطت في مناطق الثغور المتاخمة

---

[1] - **نفح الطيب**،ج3، ص 17، نقلا عن ابن حيان

[2] - ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ج 3، بيروت، ط 2، 1980، ص 281-282

لأراضي المسلمين في الأندلس، ودعمتها أنظمة ديرية أخرى من مختلف أصقاع أوروبا المسيحية، واشتد أعضاؤها في محاربة الأندلسيين بهمة وحماس، وفي ردع القوات المغربية في مسعاها لاستنقاذهم.

لقد مرت حركة الاسترداد بين مد وجزر، فكانت تخبو شرارتها، وتنحسر امتداداتها، حينما تكون الجبهة الأندلسية المغربية قوية متماسكة، وتعود إلى الحيوية والنشاط حينما تضعف تلك الجبهة بفعل التناحر، والانشقاقات، والحروب الداخلية.

لقد عرفت حركة الاسترداد أقوى اندفاع لها في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد، وهو **عصر دول الطوائف بالأندلس** (422 هـ/ 1023م - 485 هـ/ 1092م). ففي هذا العصر انفرطت عرى وحدة الدولة بالأندلس، وتجزأت إلى عدد كبير من الدويلات المتناحرة فيما بينها، وأصبح التاريخ الأندلسي مطبوعا بالصراعات بين ملوك الطوائف، وبتدخل الملوك المسيحيين في الشؤون الداخلية للأندلس أكثر فأكثر. وزاد الأمر خطورة الضعف العسكري الكبير الذي أضحت عليه الطوائف بالمقارنة مع الممالك المسيحية الشمالية. واستغل المسيحيون هذه الظروف وعبّدوا الطريق أمام حركة الاسترداد.

وكان استيلاء ألفونسو السادس، ملك ليون وقشتالة، على مدينة **طليطلة**، "درّة وسط الأندلس"، سنة 478 هـ/ 1085، من أهم أحداث حركة الاسترداد، في القرن الحادي عشر، فقد "كان له نفس الصدى الذي حدث عند سقوط هذه المدينة يوم كانت عاصمة القوط الغربيين في أيدي المسلمين، قبل ذلك بأربعمائة سنة، بحيث سرى هذا الاستيلاء في جميع أنحاء الأندلس والمغرب مسرى الألم والحسرة"[1]، مما كان حافزاً أساسيا، دفع أمير المرابطين، يوسف بن تاشفين، إلى التدخل العسكري في شبه الجزيرة الإيبيرية، ليكبح جماح حركة الاسترداد مؤقتا، بالانتصار الساحق الذي حققه في معركة الزلاقة، يوم الجمعة 12 رجب، سنة 479 هـ/ 23 أكتوبر1086م، بعد مضي سنة واحدة على سقوط طليطلة. ومنذئذ توحّدت العدوتان : الأندلسية والمغربية، وأصبحت الأندلس ولاية مغربية داخل الإمبراطورية المغربية الكبرى، وغدا المغرب- طيلة العصر المرابطي والموحدي والمريني- عنصرا فاعلا في الأحداث الأندلسية، ومعنيا بصفة مباشرة بالدفاع عن المسلمين في الأندلس أمام الزحف المسيحي، وتحالف الدول الإسبانية - البرتغالية، المؤيدة من قوى أوربية متطوعة في حرب طاحنة، لم تكن تهدأ إلا لتنطلق من جديد، عاتية، مثل الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي.

لقد سالت دماء المغاربة خلال صدّهم للزحف المسيحي، وفي دفاعهم عن الأندلس، ووجدنا من السلاطين والأمراء المغاربة من استشهد هناك ذودا عن الأرض الأندلسية

---

[1]- ليفي بروفنسال، "ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة سنة 1085 م"، ضمن كتابه : **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم، القاهرة، د. ت. ص 120

وأهلها. وحينما دخل المغرب المريني طور الاحتضار، مسبوقا بسقوط القواعد الأندلسية الكبرى، عقب سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة (قرطبة سنة 633 هـ / 1236، بلنسية سنة 636 هـ/ 1238، شاطبة سنة 644 هـ/ 1246م، مرسية سنة 640 هـ/ 1243، جيان سنة، 643 هـ /1246، إشبيلية سنة 646 هـ/ 1248...)؛ كان ذلك إيذانا بنهاية الأندلس : "وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ... وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة..."[1].

ولعل أشهر الحروب التي خاضها المغاربة بالأندلس لوقف مد حركة الاسترداد- فضلا عن معركة الزلاقة سنة 479 هـ/ 1086 م، هي معركة الأرك سنة591 هـ/ 1195، ومعركة العقاب سنة 609 هـ/ 1212، ومعركة طريف سنة741 هـ/ 1340م[2].

يجدر بنا أن نذكر بالانتصار الكبير الذي أحرزه الموحدون **بمعركة الأرك** 591/ صيف 1195 م[3]. إلا أن هذا الانتصار كان مثل انتصار الزلاقة "انتصارا دفاعيا بحتا لم يعقبه استيلاء على أراضي جديدة مهمة. فالخليفة المنصور لم يحصل من انتصاره الكبير في معركة الأرك "على أكثر من نصف دزينة من الحصون الحدودية الخالية من السكان"، حسب تعبير ويسي ميراندا[4].

أما **معركة العقاب** "التي كانت السبب في هلاك الأندلس"- حسب المؤرخين المغاربة، فتمثل بداية عهد جديد في تاريخ حروب الاسترداد، فقد مالت بشكل نهائي كفة هذه الحروب لصالح المسيحيين على حساب المسلمين، بعدما بقيت كفتها تتأرجح بين هذا الطرف وذاك منذ استعادة المسيحيين لطليطلة عام 1085م، وأدت هذه الهزيمة- على لمدى البعيد- إلى انهيار الأندلس وضياعها تدريجيا من يد المسلمين، فقد كانت "نقطة تحول نهائي في حروب الاسترداد لأنها وضعت حدا لمسلسل التدخلات الناجحة للإمبراطوريات المغربية في شؤون الأندلس، ذلك أن المحاولات التي سوف يقوم بها المرينيون لاحقا لن تحول دون الفقدان التدريجي والحتمي للأندلس"[5].

---

[1] - محمد الشريف، **المغرب وحروب الاسترداد**، تطوان، 2006، ص 6

[2] - حول مختلف هذه المعارك انظر :

A. H. Miranda , *Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasions africanas (almoravides, almohades y benimerines*), Madrid, CSIC, 1965

[3] - حول معركة الأرك، يستحسن الرجوع إلى أعمال المؤتمر الدولي بمناسبة الذكر المائوية الثامنة لوقوعها، والذي نظمته جامعة كاستيا لا مانشا سنة 1996

Izquiedo R., y Ruiz F. (éd.), *Alarcos 1195*. Congreso Internacional Conmemorativo del VIII Centenario de la Batalla de Alarcos, Cuenca, Universidad de Castilla -La Mancha, 1996

[4] - أمبروسيو هويثي ميراندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2004، ص 422

[5] - نفسه.

أما **معركة طريف** عند ريو سالادو *Rio de Salado* يوم سابع جمادى الثانية 741 هـ/ 28 نوفمبر 1340م، التي أسفرت عن مذبحة للمسلمين، وأسر عدد من الجنود، ومن بينهم أحد أبناء أبي الحسن، ووفاة زوجة السلطان الحفصية التي قتلت مع زوجة أخرى، وهروب السلطان بنفسه نحو سبتة، فقد كانت آخر سهم في جعبة المغاربة للدفاع عن الأندلس.

والواقع أن السلطان المريني سيكتفي بمساعدة الأندلسيين من بعيد. فعندما حوصرت الجزيرة الخضراء في بداية سنة 743 هـ/ يوليوز 1342م اكتفى أبو الحسن بمساعدة المحاصرين من مدينة سبتة، وإرسال المؤونة لهم بحرا، بانتظار استسلام المدينة للعدو. وبسقوط الجزيرة الخضراء في بداية شوال 743 هـ/ مارس 1343م فقد المغرب المريني نقطة هامة للعمليات العسكرية ولانتقال الجيوش، وأصبح ألفونسو الحادي عشر سيد مياه الزقاق بدون منازع.

منذ هذه الفترة لا نجد اهتماما كبيراً بالنقطتين اللتين كانتا ما تزالان تحت الإدارة المرينية، وما لبث المرينيون أن تنازلوا عن رندة للنصريين سنة 1361م وفي سنة 1374 تنازلوا لهم عن جبل طارق، وبذلك لم يعد هناك وجود مريني بأرض الأندلس. بل أصبح المغرب نفسه، وقد دخل مرحلة الانحلال والضعف، ميدان تدخل ودسائس نصرية لا تنتهي.

لقد حدت مجموعة من العوامل المعقدة من جدوى التدخل المريني بالأندلس، وعلى رأسها : الانشغال في الحروب مع الجار الزياني، والفتن الداخلية بالمغرب، والصراع على السلطة، والتناقض المريني النصري، وعدم توفر المرينيين على أسطول كبير، واختلال التوازن بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة. ومع ذلك فإننا لا ننفي أن المغرب المريني "استطاع أن يؤخر كارثة الأندلس بنحو قرنين من الزمن، لما بذله من دفاع مجيد عن الفردوس المفقود"[1]، لكن انقطع العبور المغربي إلى الأندلس ترك الأندلسيين يواجهون لوحدهم زحف حركة الاسترداد الجارف الذي توج بسقوط غرناطة، عاصمة النصريين، سنة 1492م.

محاولة تفسير أسباب الانتصارات العسكرية المسيحية خلال حروب الاسترداد :

إن الفترة التي أعقبت الانحلال الموحدي بالمغرب والأندلس بعد معركة العقاب قد عرفت توسعا مذهلا لحركة الاسترداد. فقد مال فيها التوازن كليا لصالح النصارى، وتكالبت القوى المسيحية خلالها على جزيرة الأندلس من كل جانب، فكانت " **فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحرب،**

---

[1] - محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، الرباط، ط 2، 1996، ص 19

ووضيعة ومداراة في السلم. واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها"[1]. وتمتد هذه الفترة حسب ابن خلدون حوالي نصف قرن من 622 إلى 670 هـ/ 1225-1271م.

فقد بدأ الزحف المسيحي الكبير بغرب الأندلس حينما استطاع البرتغاليون - بمساعدة الصليبيين القادمين من أوربا الغربية- من انتزاع قصر أبي دانس سنة 1217، واستولى مسيحيو مملكة ليون على قاصرش Caseres سنة 1227. بيد أن خلفاء المنتصرين في معركة العقاب، الملكيْن النشيطين فرناندو الثالث القشتالي (1217-1252) وخايمي الأول الأرغوني (1213-1276) هما اللذان نجحا - بعد التغلب على المشاكل التي صاحبت توليتهما على عرش بلديهما- في إعطاء الدفعة القوية للتوسع المسيحي على حساب السلطات الضعيفة التي أصبحت تتقاسم الأندلس آنذاك. ففي بضعة سنوات نجحت أرغون في الاستيلاء على الجزر الشرقية وشرق الأندلس، واستولت البرتغال على إقليم الغرب بأكمله، وتحركت قشتالة للزحف على أراضي الوادي الكبير ومدنه. (الاستيلاء على ميورقة 1229-1233 وعلى بلنسية 1238 وعلى قرطبة 1236 وجيان1246 واشبيلية 1248... ووضعت مرسية تحت حماية فرناندو الثالث سنة 1243...).

وحينما نريد أن نعرف الأسباب الكامنة وراء انهيار الجبهة الأندلسية أمام زحف حركة الاسترداد هذه، غالبا ما تثار مجموعة من العوامل، منها ما هو ديموغرافي (ازدياد عدد النصارى)، ومنها ما هو استراتيجي، فضلاً عن الفرقة في صفوف المسلمين، وتفوق خصومهم التكنولوجي في مجال السلاح، وقصور المسلمين في التمكن من أخذ أو استرداد المدن المسوَّرة، كطليطلة ولشبونة، واستبعاد معظم الأندلسيين عن الخدمة في الجيش منذ أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) والمنصور محمد بن أبي عامر (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، والاعتماد على عناصر من غير أهل البلاد في الدفاع عنها... إلخ[2].

أطروحة العقلية الانهزامية للأندلسيين :

يتحدث بعض الباحثين العرب عن "**العقلية الانهزامية**" التي استولت على الأندلسيين منذ سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس سنة 478 هـ/1085 م، والتي صورها أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، حين قال بعد ضياع المدينة :

يا أهلَ أندلسٍ حُثّوا مَطيَّكمُ ** فما المَقامُ بها إلاَّ منَ الغلَطِ
الثَّوبُ يُنسلُ منْ أطْرافهِ وأرى ** ثوْبَ الجَزيرةِ مَنْسُولاً منَ الوَسَطِ
ونَحنُ بيْنَ عَدُوّ لا يفارِقُنَا ** كيْفَ الحياةُ مع الحَيّاتِ في سَفَطِ؟

---

[1] - عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الجزء السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 223-225

[2] -انظر مثلا دراسة د. محمد حناوي، **النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف**، الرباط، 2003

ويتجلى من صرخة هذا الشاعر أن مسلمي الأندلس كانوا يشعرون بـأنهم أجانب، وأنهم بأرض ليست بأرضهم، حان وقت حثّ المطايا لمفارقتها. ومما يؤكد هذا الأمر قول شاعر مجهول أورده أحمد المقري[1] :

يا أهل أندلسٍ رُدُّوا المُعارَ فمـا ** في العُرف عاريَةٌ إلاّ مُرَدّاتُ

أَلَمْ تَرَوْا بِيَذَقَ الكفار فرزَنَـة ** وشَاهُنا آخرَ الأبياتِ شَهْماتُ

هكذا يبدو أن الأندلسيين كانوا يشعرون أنهم استعاروا إلى أجَل غير أرضا غير أرضهم، أو أنهم مُنحوا "عارية" لا بد أن ترد إلى أصحابها الشرعيين.

وقد أعاد هذه الصرخة الشاعر إبراهيم ابن الدباغ الإشبيلي بعد هزيمة العقاب 609 هـ/1212م، كاشفا عما أصاب النفس الأندلسية من انهيار، وما لاح على العزائم من خور، فبدا الجميع عاجزين مذعورين مستسلمين[2] :

وقائلة : أراك تطيل فكرا ** كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها : أفكر في عقاب ** غدا سببا لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام ** وقد دخل اللا من كل باب[3]

فالشاعر لا يدعو أهل بلده إلى التكتل أمام الخطر وإلى نبذ ما بينهم من أسباب الانقسام والفرقة بل إنه يحثهم على الرحيل (فما في أرض أندلس مقام). "فمغادرة السفينة الأندلسية وشأنها، قد هيأت لها إذن عقلية انهزامية استولت على النفوس منذ قرون"[4].

أطروحة خفوت الروح الجهادية:

وقد يدعم هذه الأطروحة ما ذهبت إليه بعض الدراسات الأوربية من كون الحقائق السوسيولوجية والمادية لم تكن وحدها وراء الضعف الأندلسي، وأن هناك قضية مرتبطة بالثقافة والعقلية الأندلسية، التي لم تفسح المجال كثيرا لبروز **إيديولوجية محركة للجهاد** على المستوى الشعبي، مشابهة لتلك التي كانت تحرك المسلمين المشارقة ضد الصليبيين على عهد الزنكيين والأيوبيين. هذا ما يذهب إليه (بيير غيشكار) في أطروحته عن "مسلمي بلنسية في مواجهة حركة الاسترداد"، استناد على ما خلص إليه (دومنيك أورفوا)[5]، الذي كتب يقول بأن الانصهار بين المذهب وفكرة الجهاد التي نجحت في خلق حركة عملية ضد الصليبيين في المشرق قد فشلت بالأندلس، حيث ألقيت مهمة بالجهاد على عاتق المغاربة البربر[6]. وفي مقال له حول الجهاد على عهد المرابطين ينتقد (فانسان

---

[1] - المقري، **نفح الطيب**، م.س.، ج 4، ص 352، 447

[2] - د جمعة شيخة، **الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي**، ج 2، تونس، 1994، ص 181-182

[3] - المقري، **نفح الطيب**، م.س.، ج 4، ص 464

[4] - محمد الطالبي، " الهجرة الأندلسية إلى إفريقة أيام الحفصيين" ضمن كتابه : **دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط**، منشورات الجامعة التونسية، 1982، ص 170-171

[5]- D. Urvoy, "Sur l'évolution de la notion de *gihad* dans l'Espagne musulmane"; *Mélanges de la Casa de Velazquez*, 9; 1973, pp. 335-371

[6] - D. Urvoy, "Sur l'évolution de la notion de *Gihad*,", op.cit., p. 358

لا غاردير) فكرة خفوت الروح الجهادية بالأندلس خلال القرن الثاني عشر، ويسوق عددا من الأمثلة لعلماء وفقهاء شاركوا في الجهاد. لكنه يدافع بدوره عن كون الجهاد ظل ذا طابع رسمي، ولم يتسرب عميقا في الوعي الأندلسي. ونشك أن تكون الأمور قد تغيرت لاحقا، وبقي الجهاد مسؤولية ملقاة على عاتق الدولة ولم تلمس الأندلسيين عموما.

أطروحة ميل الأندلسيين لقبول السيطرة المسيحية :

ونرى أن هذه التفسيرات (العقلية الانهزامية للأندلسيين وخفوت روح الجهاد لديهم) ترتبط بخيط ما مع أطروحة ميناديس بيدال – صاحب المؤلف الشهير "إسبانيا السيد"- حول **"ميل" الأندلسيين إلى قبول السيطرة القشتالية أو الأرغونية بفعل المكوّن الإسباني المشترك** الذي قد يكون وحّد سكان شمال شبه الجزيرة الإيبرية وسكان جنوبها، وكان أكثر قوة وعمقا من الاختلاف الثقافي والديني الذي يفرق بينهما.[1] وهي الأطروحة قد تبناها أغلب مؤرخي منتصف القرن العشرين أمثال (سانشيز ألبرنس). يتحدث بيدال عن مسلمي الأندلس- باعتبارهم ورثة إسبانيا قبل الغزو الإسلامي أكثر من كونهم ورثة الثقافة العربية "الأجنبية"- وبأنهم كانوا، في فترة الاسترداد "**أكثر ميل" نحو التوافق** مع "إخوانهم في الدم والعرق"، أي مع مسيحيي ممالك الشمال، إن لم يكونوا **ميالين لقبول السيطرة السياسية للملوك المسيحيين**. وهكذا يكتب ميناديس بيدال في "إسبانيا السيد"، بأن "الأندلس التي استعادت بسرعة استقلالها عن المشرق، قد أسْبَنت إسلامها، والعناصر العرقية الأسيوية والإفريقية قد تم تقريبا امتصاصها وإدماجها في العنصر الأهلي المحلي، بحيث أن الغالبية العظمى من المسلمين الإسبان كانوا ببساطة إيبيريين – رومانيين أو قوطيين، تكيفوا مع الثقافة الإسلامية، وكان بإمكانهم **التفاهم بسهولة** مع إخوانهم بالشمال الذين ظلوا أوفياء للثقافة المسيحية. لهذا السبب، حينما أصبح الشمال مهيمنا عسكريا، **مالت الأندلس بسهولة نحو الخضوع**، لأنه كانت تنقصها الروح الوطنية والدينية".

ونعثر على **فكرة الاستمرارية في الزمان والمكان لنفس الحضارة "الإسبانية" المستندة على التلاؤم الإثني لشبه الجزيرة الإيبيرية** عند مؤلفين آخرين أمثال *Ubieto Artera* الذي كتب يقول : " خلال العصر الوسيط، كانت أغلبية سكان شبه الجزيرة الإيبيرية يعتنقون الديانة الإسلامية. فمن غير المنطقي اعتبار "الموروس" في هذه الفترة شيئا غريب عن أنفسنا... فالتعارض بين المسلمين والمسيحيين الذي نقدم على ضوئه العصرِ الوسيط الإسباني... غير منطقي ولم يظهر سوى في القرن 16 م حينما ربَطت المشاكلُ الدينية والسياسية الأوربية الديانةَ المسيحيةَ بإسبانيا، والخطرَ التركي بالإسلام".

إن السهولة التي أخضع بها المسيحيون مناطق شاسعة من الأندلس وخاصة شرقها البلنسي، وخضوع عدد كبير من الجماعات القروية للجيش المسيحي، من شأنها- ظاهريا- أن تدعم أطروحة " الاستمرارية" هذه. بيد أنه ينبغي الحذر **من التبسيطات، لأن**

[1] -Menendez Pidal, *España del Cid*, 1969. I. p. 77

أسبابا أخرى يمكن أن تفسر لنا موقف الجماعات القروية الأندلسية التي تركت لشأنها من قبل السلطات المركزية، والمتشبثة بأرضها، ومن دون قدرات للتصدي للغزاة المسيحيين، الذين لم تتأخر في الثورة عليهم كما، تشهد بذلك عدد من حقائق التاريخ الأندلسي[1]. ينبغي أن ندرس كل حالة لمعرفة طريقة خضوع مختلف مناطق الأندلس للجيش المسيحي. ولذلك فإننا **نتردد في الأخذ بهذا التفسير الإتنو سيكولوجي**؛ وبالتالي يتعين علينا البحث عن أسباب أخرى لتفسير النجاح النهائي لحركة الاسترداد.

أطروحة التفوق العسكري للمسيحيين :

من الممكن – ولو من الصعب إثبات ذلك- أن يكون أهل الأندلس من المسلمين قد أصيبوا في سنوات 1230-1250 بالإحباط أمام دينامية المسيحيين الغازين وشراستهم. ولا شيء يؤكد في المقابل أنهم لم يكونوا متشبثين بعقيدتهم وبحضارتهم وبأرضهم، أو أنهم لم يكونوا عازمين على الدفاع عن تلك المكونات. إن التوسع الديموغرافي قد ساهم بلا شك في تفسير الضغط المسيحي على الإسلام، ولكن لا شيء يثبت أن المسلمين كان عددهم قليلا ليلا يتصدوا له.

والواقع أن الأندلسيين قد وجدوا أنفسهم وحيدين – بعد انحلال البنية السلطوية للموحدين- في مواجهة تفوق أعدائهم العسكري نتيجة انتصاراتهم المتتالية عليهم. إن مؤلف أول مدونة عامة *Primera* Crónica *General* يوضح بجلاء عدم قدرة الأندلسيين العسكرية حينما يتحدث عن ابن هود، أمير مرسية، الذي تعرض لهزيمة قاسية على يد الليونيين سنة 1230. يقول صاحب المدونة : " كان هذا الملك -ابن هود- يخشى القيام بحملات عسكرية كبيرة، لأنه في كل مرة كان يهزم ويجد نفسه في موقف صعب، ولهذا السبب حتى ولو قيل له بأن ملك قشتلة فرناندو لا يصحبه سوى نفر قليل، لم يكن يثق في ذلك"[2].

ونفس الشيء بالنسبة لأمير بلنسية، زيان بن مردنيش، الذي تعرض بعد ذلك لهزيمة في أنيشة سنة 1237. إن كلا الزعيمين الأندلسيين كانا في بداية أمرهما قائدين عسكريين، ويتمتعان بشهرة طيبة كرجُلَيْ حرب. لكن يبدو أنهما وجدا نفسيْهما أمام الضعف البنيوي للتركيبة السوسيو سياسية والثقافية الأندلسية، وهو ضعف نسبي ولا شك، تكرس بفعل المواجهة مع تشكلات اجتماعية وممالك مسيحية أكثر دينامية وعدوانية وميالة للتوسع.

[1] - Pierre Guichard, *De la conquête arabe à Reconquête: Grandeur et fragilité d'al Andalus*, el Legado Andalusi, Granada, 2000, pp. 236

[2]- Cité par Pierre Guichard, *De la conquête arabe à Reconquête: Grandeur et fragilité d'al Andalus*, el Legado Andalusi, Granada, 2000, p.230

فتسليح الجيش الأندلسي – كما تظهر بعض الصور – كان ضعيفا مقارنة بالجيش المسيحي[1]. ومن المحتمل كذلك أنه **ابتدء من هذه الفترة بدأ الهوة تتسع على مستوى التعدين والتقنيات بين العلم الإسلامي والعالم المسيحي**[2]. وانطلاقا من هذا الاختلال البنيوي بين التشكيلتين يذهب بعض الباحثين إلى أن المسيحيين كانوا يتقدمون على حساب مجتمع أندلسي مدني لا يتوفر على إمكانيات الدفاع عن نفسه، نظرا لاختلال بنياته الدولتية. لقد ظل المجتمع الأندلسي في عمقه مجتمعا مدنيا، تهيمن عليه نخبة من الفقهاء والكتاب، وكان– على عكس المجتمع المسيحي "الفيودالي"– لا يخصص جزء معتبر من موارده للاعتناء بالقطاع العسكري القرين لطبقة الفرسان[3].

ولا يخالجنا شك في أن فهم التقدم الكبير الذي حققته حركة الاسترداد بالأندلس يحتم علينا الأخذ بعين الاعتبار الخصائص "الفيودالية" لدول الممالك المسيحية بشمال إسبانيا ولمجتمعاتها، والتي من شأنها أن تجعلنا نفهم "التباينات الحاسمة بين المجتمع الغازي والمجتمع المغزو"، وتسهل علينا فهم "اختلاف قدراتهما العسكرية" فهما جيدا. فالمجتمع المسيحي للممالك الشمالية "مجتمعا مهيكلا من أجل الحرب" *A society organized for war* كان – حسب تعبير (إلينا لوري)[4]. ويبدو من المنطقي أن نفترض وجود علاقة وثيقة بين طبيعته الفيودالية وميله للتوسع، كما توضح ذلك راينا باستور Rayna Pasteur في مؤلفها "من الإسلام إلى المسيحية"[5]

---

[1] - يتجلى ذلك بوضوح من خلال المصادر العربية. ونسوق مثال للمذبحة التي تعرض لها أهل اشبيلية بفحص طلياطة سنة 622 هـ/ ماي -يونيو 1225م يقول الحميري : " ... فأغار الروم الغربيون على تلك الجهة فغنموا ما وجدوا، واستاقوا ما أصابوا؛ والعادل، صاحب المغرب يومئذ، بإشبيلية ووزيره أبو زيد بن يوجان، ومعهما أهل الدولة وأشياخ الأمر، لا غناء لديهم ولا مدفع عندهم، إذ كان الأمر قد أدبر، ورونق الدولة قد تغير، ... وكان خبر هؤلاء الروم بلغ إشبيلية قبل ذلك بأيام، واجتمع جمع كثير من العامة في المسجد الجامع، فلما فرغ من صلاة الجمعة قاموا فصاحوا بالسلطان يحملونه على الخروج. قلما كان يوم السبت، **خرج المنادي ينادي الناس بالخروج على العدوّ، فأخذوا في ذلك وتجهزوا، وخرج بعضهم في ذلك اليوم، ولما كان يوم الأحد جد بالناس الخروج، فخرجوا على كل صعب وذلول، كبارهم وصغارهم، بسلاح وبغير سلاح، كما يخرجون إلى نزههم في البساتين والجنات**، فتكامل جمعهم في جبهة طلياطة يوم الأحد، **ولم يخرج معهم من الخيل إلا دون المائة، والروم في عدد ضخم، عليهم الدروع وبأيديهم الأسلحة، وأكثر جمع المسلمين بغير سلاح، إلا ما لا قدر له، وإنما هم أهل السواق والباعة**، .... فلما رأى الروم ذلك، مالوا على أولئك العامة، فلما رأوهم مستقبلين لهم أخذوا في الفرار، فوقع القتل بهم، فأفني منهم بالقتل كثير، وأسر منهم كثير، وأفلت كثير. وكان الناس بعد يختلفون في مقدار من أتى القتل عليه من أهل إشبيلية والأسرُ، فمقلل ومكثر. فالمكثر يقول بلغوا عشرين ألفا، وقيل دون ذلك، فالله أعلم".محمد بن عبد المنعم الحميري، **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، بيروت، 1980، ص 395

[2] - P. Guichard, *De la conquête arabe à Reconquête: op.cit,* , p.230

[3]- P. Guichard, *Les musulmans de Valence façe à la Reconquête XI-XIIIè siècles*, Damas, 1990, t 2, p.390

[4]- H Lourie, "A society organized for war: medieval Spain", *Past and Present*, 35, 1966, pp 54 sqq

[5] R. Pastor de Togneri , Del Islam al Cristianismo en las fronteras de dos formaciones económico-sociales, Barcelona, 1975

في هذا الإطار فإن العنف المصاحب للصراع الطبقي، وعلى رأسه العنف الأرستوقراطي -الذي أوضحه (بيير بوناسي) في دراسته حول قطالونيا في القرن العاشر[1]، والذي لا نشك في أنه امتد إلى حدود القرن 12 و 13 م - يمكن أن يتحول إلى قهر المزارعين والفلاحين في الداخل، **أو إلى مشاريع خارجية بهدف ضمان الغنيمة للفرسان**، ومنحهم الأراضي وجماعات قروية جديدة لاستغلالها.

لذلك نجد من الباحثين من يقترح **تفسير مسار حركة الاسترداد بجعل الطبقة الأرستوقراطية والعنف الفيودالي في قلب حركة التوسع.** " إن إحدى الحلول المجربة للتغلب على الأزمة التي كانت تضرب طبقة الأسياد القطلانيين والأرغونيين نهاية القرن 12 م، تتمثل في التوسع نحو الشمال، وقد توقفت فجأة على أسوار موريط Muret . ومع وفاة بيير الكاثوليكي، انمحى دور الموحد التي كانت تلعبه الملكية التي كانت تتجاوز – دون أن تحل– التناقضات الداخلية للطبقة المسيطرة، ودخلت هذه الأخيرة من جديد في صراعات داخلية بين مكوناتها المختلفة. وكان ينبغي البحث عن الحل في الاستمرار في السيطرة على المناطق الجنوبية... وهكذا تم البحث عن **حل التناقضات الداخلية بالاتجاه نحو الخارج، نحو الأراضي البلنسية**".

والواقع أن تفسير حروب الاسترداد على ضوء نمط الإنتاج الفيودالي وجعله العنصر الأساسي في فهم التوسع المسيحي في القرن 11–13 في شبه الجزيرة الإيبيرية، هو مجرد اختزال ظاهرة معقدة وإخضاعها قسرا لمصطلحات ومفاهيم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الماركسي. كما يصعب علينا تقديم العناصر السيكولوجية والمعنوية والدينية وحدها كعناصر قمينة بتفسير نجاح حركة الاسترداد. ولا يكفي كذلك أن نفسر التقدم العسكري بفعل الشجاعة والحماس الديني للغازين مثلما لا يمكننا تفسير التوسع التجاري للجنويين والبيزيين في البحر المتوسط في القرن 12م بفعل الخصال التجارية لمواطني الجمهوريات الإيطالية. إن هذه العناصر لا يمكن نفيها في تفسير شمولي للظواهر التاريخية، بيد أنه ينبغي وضعها في إطار سياسي واجتماعي وتقني الذي شجع على ظهورها والذي ترتبط به تلك العناصر.

لا يبدو أن الحضارة الأندلسية كانت أقل شئنا من الحضارة الغربية اقتصاديا وثقافيا وتقنيا. بل العكس هو الحاصل إن نحن نظرنا في تفاصيل الأمور. بيد أن التفوق العسكري للقطلانيين والأرغونيين يبدو أمرا لا جدال فيه، مما يوحي بأن المستوى العالي للثقافية والتنظيم الإداري والسياسي، والثروات الاقتصادية للأندلسيين لم يكن موجهة – على غرار التشكيلة السوسيو سياسية المسيحية المنافسة نحو تحريك جيد للقدرات القتالية الشرسة. وهو ما يظهر جليا من عدد الفرسان الذي كان يمكن أن يرمي به المسلمون في المعارك مع القوات المسيحية.

---

[1] - P. Bonnassie, *La Catalogne du milieu du Xè à la fin du XIè siècle*, Toulouse, 1975-1976

وهذا الطابع غير المعسكر، اجتماعيا وسيكولوجيا للتشكيلة السياسية والاجتماعية الأندلسية لعب بلا شك دورا مهما في عدم قدرته على التحرك بطريقة مواتية أمام الضغط المسيحي المتزايد[1].

إن الأندلسيين لم يكونوا "مدنيين غير مسلحين" أو عزل من السلاح، لا في المدن ولا في البوادي، وخاصة في المناطق الحدودية. فحين تسليم حصونهم للعاهل الأرغوني يتم التنصيص في عدد من الحالات على أن المسلمين سيحتفظون بأسلحتهم. وفي بعض الأحيان يتم التنصيص على أن من أراد الهجرة من المناطق التي سقطت يمكنهم ذلك مع حمل سلاحهم ورماحهم. ومن الواضح أن الجماعات القروية والحضرية- وليس الجيوش النظامية- هي التي كانت تدافع عن حصونها.

ولم يكن الفرسان المسيحيون يعتبرون المواجهة العسكرية مع سكان الحصون الإسلامية محسومة سلفا. بل كان المسلمون يستميتون في الدفاع عن حصونهم بشجاعة أشاد بها الملك جاك المحارب نفسه. فلم يتم الاستيلاء على **بريانة**، المدينة الصغيرة في شرق الأندلس، مثلا في خريف 1233 إلا بعد حصار دام ثلاثة أشهر. ويجب أن نتوقف هنا للإشارة إلى أمر مهم، حسب مذكرات الملك الأرغوني كان بمدينة بريانة المحاصرة في هذا الوقت 7000 شخص ما بين رجل وامرأة وطفل، ولم يكن من بينهم سوى سبعة فرسان كان المسيحيون يعرفونهم بسبب الخرجات المتكررة التي كانوا يقومون بها للاستحواذ على بعض رؤوس الماشية السائمة بين أسوار المدينة ومعسكر المحاصرين. وهذه النسبة الضعيفة للفرسان نجد سندا لها في عدد من النصوص التي نتوفر عليها. **النسبة هي : 5 فرسان من ألف راجل**. وفي المعركة الحاسمة التي خاضها زيان بن مردنيش في بويك دي سيبويا -وكان قد جمع كل القوى البلنسية المتوفرة وحصل على دعم من جزيرة شقر وشاطبة- لم يتمكن من الحصول سوى على ستمائة فارس.

لا شك أن القوى التي كانت يحركها المسيحيون في حروب استرداد لم تكن بدورها هائلة جدا. فقد كان الملك يسير في غالب الأحيان حاميات متوسطة لا يتجاوز عدد أفرادها بضع مئات فارس، ولم تكن تصل في بعض الأحيان إلى مائة فارس. لكن هذه الأعداد كان يتم تحريكها مؤقتا انطلاقا من **شبكة فيودالية أكثر عددا وكثافة**، لم يكن يستعمل منها سوى قسم خلال كل حملة عسكرية أو غارة.

فالأندلسيون لم يكونوا "عزل من السلاح" وإنما كانوا "غير مسلحين جيدا". لأنه لم يكن ثمة طبقة فرسان مهيمنة في التنظيم السوسيو سياسي الأندلسي تستمد موارد عيشها من فئة الفلاحين والمزارعين. فالنمط الخراجي الذي يعتقد أنه كان سائدا بالأندلس كان لا يجعل من الفارس مكونا أساسيا وله اعتبار اجتماعي خاص، كما هو الشأن بالنسبة لطبقة الفرسان في المجتمع المسيحي. ومن المؤكد أن قسطا مهما من الموارد الضريبية كان

---

[1] - هذا هو أساس أطروحة الأستاذ بيير غيشار في كتابه السالف الذكر حول مسلمي بلنسية في مواجهة حركة الاسترداد.

يستفيد منها الموظفون والفقهاء والأدباء، وهم مدنيون لا عسكريون. وهذا الأمر نقف عليه على طول الفترة الأندلسية، وخاصة خلال فترة الزحف المسيحي في القرن 13 م[1].

لم يتمكن المرابطون ولا الموحدون من تحطيم البنية السوسيو سياسية الأندلسية، ولو أنهم فرضوا على هذا المجتمع المدني جدا سلطة قبلية بربرية واستعملوا قسما مهما من الواردات الضريبية لتمويل الحرب ضد النصارى. بيد أنه لم يستطيعوا تغيير تنظيم المجتمع الأندلسي نفسه. وبغياب الحاميات الموحدية لم يعد هناك أمام المسيحيين سوى جند أندلسيين غير كافيين للتصدي للزحف المسيحي الجارف خلال سنوات 1230-1245. فلا التقاليد الأندلسية ولا عقليتهم ولا بنيات مجتمعهم ودولتهم كانت تسمح بتجاوز هذا الضعف العميق الذي لم يكن الأندلسيون واعين به على ما يبدو.

إن الجماعات القروية والحضرية التي تشكل عمق التنظيم السوسيو سياسي لم يكن لها أن تتوحد إلا بوجود سلطة قوية ذات برنامج موحد ومحرك كما كان الشأن مع المرابطين. بينما كانت السلطنات الأندلسية ضعيفة ومقسمة إيديولوجيا من دون وسائل كافية للتحرك العسكري. إن حلم قيام دولة أندلسية قوية بما فيه الكفاية للتصدي للزحف المسيحي لم يكن لينبثق من الثقافة الأندلسية الإسلامية التي لم تكن بطبيعة الحال تطرح سوى **مفهوم** **"الأمة"** التي كانت في ذلك الزمن تتعارض معها الحقيقة المؤسفة المتمثلة في التشرذم السياسي للأندلسيين.

أما نجاح التجربة النصرية بغرناطة منذ سنة 1237 م فترجع إلى كونها قد توفرت لديها مجموعة من المؤهلات لم تكن تتوفر لحكومات بلنسية ولا لحكومات مورسية بشرق الأندلس. لقد ضحى النصريون بجيان وقرطبة وإشبيلية، وربحوا فترة هدنة ثمينة أتاحت لهم إعادة تنظيم دفاع منطقة الأندلس الجبلية الواقعة جنوبا، والأكثر صعوبة للاختراق من قبل القوات المسيحية مقارنة بالسهول والهضاب الشرقية والساحلية لشرق الأندلس. ومن جهة أخرى استفاد النصريون – أكثر من ولاة الشرق– من الصراع الديبلوماسي والعسكري بين قشتالة وأرغون، وكذا من قربهم الكبير من بلاد العدوة حيث اجتاز المغاربة مياه المضيق مرات متعددة لحمايتهم. في نفس الفترة بدأت تتضح وتتبلور فكرة الدولة السلالية *Etat dynastique* إن لم نقل دولة وطنية *national*، افتقدها الأندلسيون في الفترات السابقة من تاريخهم[2].

[1] - هذا هو أساس أطروحة الأستاذ بيير غيشار في كتابه السالف الذكر حول مسلمي بلنسية في مواجهة حركة الاسترداد.

[2] Guichard, *Les musulmans de Valence*, op. cit., p. 391-392 -

صورة فاس في مطلع القرن التاسع عشر
من خلال رحلة علي باي العباسي (دومينجو باديا) [1]

ذ.عبد الحفيظ حَـمّــان

انطلقت حركة التوسع الأوربي منذ أواخر القرن الخامس عشر تحت غطاء "الكشوفات الجغرافية"، حيث إن المراكب الأوربية اتجهت أول الأمر صوب العالم الجديد (القارة الأمريكية) وفي اتجاه الأقطار الأسيوية والسواحل الإفريقية. غير أن الاهتمام بالأقطار العربية، الواقعة في شمال إفريقيا والمطلة على البحر الأبيض المتوسط، لم يتبلور في الأوساط الأوربية إلا منذ أواخر القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر. يعني في الوقت الذي تغيرت فيه الاستراتيجية البحرية الأوربية، ولم تعد القارة الإفريقية مجرد محطة عبور لسفنهم ومركزا لمؤسساتهم التجارية بل أصبحت غاية في حدّ ذاتها للبحث والاستكشاف وبالتالي السيطرة والاستعمار.

وفعلا، عند نهاية القرن الثامن عشر، وفي خضم الانقلابات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تمخضت عن الثورة الفرنسية والحروب العسكرية التي أفرزها هذا الحدث؛ اتجهت أنظار الدول الاستعمارية – وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا– صوب القارة الإفريقية لتنفيذ ثلاثة برامج متوازية ومتكاملة في أهدافها ونتائجها. أولها البحث الدقيق في أحوال المجتمعات واستكشافها وتقصي أخبارها، وثانيها إيجاد أسواق جديدة في الداخل الإفريقي واكتساحها وبناء محطات تجارية جديدة لإفراغ البضائع الأوربية، وثالثها الغزو والسيطرة لبناء مستعمرات جديدة.فبرزت جمعيات ومنظمات من أجل الاستكشاف العلمي والتجاري لإفريقيا.

ولم تكن هذه الظاهرة فريدة في فرنسا وإنجلترا فقط، بل عمّت بعض أقطار القارة الأوربية. وفي نفس الاتجاه، نجد الحكومة الإسبانية تراقب بكل اهتمام هذه الحركات التي ظهرت في البلدان الأوربية المجاورة لها وأرادت أن يكون لها نصيب في هذه العمليات، خصوصا بعد تخليها عن الاهتمام بأمريكا اللاتينية والتي شغلتها وقتا طويلا .

1. ومن أجل إخراج مشاريعها إلى حيّز الواقع والتطبيق ، وجدت الحكومة الإسبانية ضالتها في شخصية مغامرة وجّه اهتمامه في مطلع القرن التاسع عشر، نحو ولوج الدول الإفريقية واستكشافها وتجميع معلومات تهم جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبيعية. واتجهت أنظاره في البداية إلى المغرب كمحطة أولى

---

[1] - موضوع ألقي خلال الأيام الوطنية السادسة عشرة التي نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي بمدينة فاس أيام 29- 30- 31 أكتوبر و 01 نوفمبر بمناسبة مرور اثنا عشر قرنا على تأسيس المدينة .

وأساسية تقوده إلى باقي بلدان العالم العربي . ولم يكن هذا الرحالة سوى دومينجو باديا إي ليبليش *Domingo Badia y Leblich* [1] .

التعريف بالرحالة ومصدر رحلته :

تكاد تنعدم المعلومات حول هذا الرحالة وحياته ، إلا بعض الشذرات القليلة المتناثرة هنا وهناك في بعض المراجع وبالأخص الأجنبية منها [2] .

فقد ولد دومينجو باديا في برشلونة سنة 1766م ، من أم ذات أصل بلجيكي ومن أب كان يعمل أمينا في الجهاز المالي للمدينة . وكان باديا ملما بقسط وافر من المعرفة أهله لكي يعين موظفا بالإدارة المالية في غرناطة وهو في الرابعة عشرة من عمره [3] . وبعد بلوغه التاسعة عشرة ، خلف والده في وظيفته التي كان يشغلها في البيرة في مقاطعة ألمريا *Alméria* .

وبعد زواجه نقل إلى قرطبة ليشغل مدير الاحتكارات الملكية للتبغ . وكان لهذه المدينة تأثير كبير عليه دفعه إلى التأمل وحب المعرفة للقيام برحلات استكشافية كانت انطلاقتها الأساسية موجهة نحو البلدان الإسلامية .

كانت طموحات دومينجو باديا ورغبته في إنجاح مشروعه حافزا له في تعلم الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والتاريخ الطبيعي وكل العلوم الضرورية التي يمكن أن تساعده في رحلته ويستفيد منها خلال جمع المعلومات والقيام بالملاحظات ، وإلى جانب ذلك ركز اهتمامه على تعلم اللغات الشرقية وخصوصا العربية .

وفي 7 أبريل 1801م قدم باديا مذكرة إلى الحكومة الإسبانية تحمل مخططا لرحلته الاستكشافية والعلمية والسياسية . وأشار في هذه المذكرة إلى أن رحلته لا يمكن أن تكلل بالنجاح في البلدان الإسلامية وأنه لا يستطيع تخطي الصعوبات والعقبات التي قد تعترض طريقه عند الشعوب الإسلامية إلا إذا تقدم لديهم في صورة مسلم ، يحمل إسما إسلاميا ، وينحدر من عائلة مسلمة تنتمي إلى شجرة الأشراف : " وبناء على ذلك ــ يسترسل باديا موضحا في مذكرته ــ ينبغي أن تكون ذا أصول إسلامية حتى تحوز على الحظوة والمكانة لدى المسلم الآخر ... ومن أجل مشروع كهذا ، لا ينبغي فقط أن تلبس وتتقلد

---

[1] - حول هذا الرحالة وحياته انظر مقالنا : " الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومينكو باديا "مجلة التاريخ العربي .العدد 23 ، صيف 1423هـ - 2002م ، ص.29.

[2] - حول حياته راجع : Garcia de Herros : *Quatre voyageurs espagnols à Alexandrie d'Egypte* . Alexandrie ; 1923 ; & G. Spillmann :*Napoléon et l'Islam* Paris, Edit.L.A.P. 1969 , & H.de Castires : << Napoléon et le Maroc>> *dans Revue Hebdomadaire* , n° 16 , 8 avril 1908 .

[3] - هناك مراجع تؤكد على أنه أنهى دراساته في جامعة بلنسية، انظر بالخصوص :

Spillmann : op. cit. p. 275 .

الزي الإسلامي ، وتطيل لحيتك ، وتتكلم العربية ، وتعتنق ديـن محمـد ، ولكـن ينبغي بالأساس أن تثبت أنك عربي المولد والمنشأ ، وهذا هو المفتاح لكل أبواب إفريقيا" [1] .

وبغية تنفيذ ذلك ، قرر دومينجو باديا تقمص شخصية أمير عربي من أصل سوري ولد بمدينة حلب ، ينتمي إلى سلالة العباسيين ، ولقب نفسه باسم : علي بـاي العباسـي ، الذي تحت ستاره سيتجول داخل الأقطار الإسلامية .

تحت هذا الغطاء العلمي والسياسي ، وافق الملك الإسباني شارل الرابع والحكومـة الإسبانية على مشروع الرحلة وتمويلها[2] . ومن أجل استكمال إجراءاته سافر باديـا إلـى لندن لصنع واقتناء الوسائل التي يحتاج إليها في رحلته ، كما قام في العاصمة الإنجليزيـة بعملية الختان عند طبيب يهودي [3].

وبعد مغادرته إنجلترا ، زار العاصمة الفرنسية باريس حيث تقدم إلى المعهد العلمي ووزارة الخارجية مختفيا بزيه الإسلامي ومقدما نفسه تحت إسم علي باي . وفـي المعهـد وضع مشاريعه الاستكشافية العلمية واستطاع حيازة الثقة حتى من طرف وزير العلاقـات الخارجية الفرنسي طاليران .

كانت العاصمة الإسبانية مدريد هي محطته الأخيرة قبل مغادرته للقـارة الأوربيـة متجها نحو المغرب. ومن المغرب سافر إلى طرابلس فقبرص فمصر ثم إلى مكـة ، لأداء فريضة الحج ، ففلسطين فسوريا فتركيا ، ليعود أخيرا إلى وطنه في مايو 1808م . وقـد توفي سنة 1818م حيث دفن في حصن البلقاء (الجنوب الشرقي للأردن حاليـا) وكـان بصدد إنجاز رحلة استكشافية ثانية إلى بلدان المشرق الإسلامي لحساب فرنسا .

وعن هذه الرحلة ألف كتابا تحت عنوان « **رحلات علي باي العباسي إلى إفريقيـا وآسيا خلال الأعوام 1803 ــ 1807** »، صدر أول مرة في باريس سنة 1814م تحـت ثلاثة أجزاء باللغة الفرنسية ، وأصدر معه ملحقا يضم خرائط ومجموعة من الرسوم تبلـغ ثلاثة وثمانين [4].

في 23 أبريل سنة 1803م وصل إلى مدينة قادس الإسبانية ، وفي 29 يونيو عبـر باديا بوغاز جبل طارق متوجها نحو مدينة طنجة ، لتبدأ رحلته في المغرب تحت اسـم : علي باي العباسي .

---

[1] - H. de Castries : op.cit. p.4

[2] - ونقصد هنا الرحلة الجاسوسية التي قادته إلى المغرب لتنفيذ المخططات السياسية لصالح إسبانيا .

[3] - حول عملية الختان يقول في كتابه : " سمعت كلاما يقال للنصارى مفاده أن البعض منهم، الذين زاروا البلاد الإسلامية ، وسافروا في أمان، تمّ لهم ذلك بواسطة ارتدائهم بزي السكان. ولكني أرى أن هذا مستحيل إذا لم يكونوا قد قاموا بعملية الختان، بسبب أن هذه المسألة هي أول ما يستعلم عنه بمجرد رؤية الأجنبي، بحيث أنه بمجرد وصولي إلى طنجة استفسروا مني شخصيا ". El Abbassi Ali Bay : *Voyages_ d'Ali Bay el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les annés 1803 – 1807* . Paris 1814 ; Tome I ; p. 18 .

[4] - هذه الطبعة الفرنسية الأولى هي التي اعتمدناها في هذا البحث من خلال الجزء الأول الخاص بالمغرب

بعد الدعوة التي وجهها له السلطان للقيام بجولة في المغرب، غادر علي باي طنجة في 25 أكتوبر 1803م بحرس مكون من أربعة جنود جعلهم السلطان في خدمته ليرافقوه في رحلته من طنجة إلى فاس. في هذه الرحلة مرّ بمدينة القصر الكبير ووصل إلى مكناس في الفاتح من شهر نوفمبر، وفي الخامس منه دخل فاس التي أقام بها حتى نهاية شهر فبراير من سنة 1804م.

فما هو النصيب الذي حظيت به مدينة فاس في رحلة دومينجو باديا وكيف كانت الصورة التي قدمها لنا في كتابه حول مدينة فاس في مطلع القرن التاسع عشر؟

من خلال الفصول التي خصصها باديا في كتابه لمدينة فاس يمكن أن نجمع الوحدة الموضوعية التي تربطها لنوضح الصورة التي رسمها علي باي حول مدينة فاس وذلك في النقط التالية :

وصف المدينة والمرافق العمرانية الموجودة بها ، ثم الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية والحياة الثقافية بالمدينة .

أولا : مدينة فاس ومرافقها :

1 / وصف المدينة : يستهل دومينجو باديا حديثه – وكعادته في كل المدن التي زارها – بتحديد موقع فاس الجغرافي . فمن ناحية خطوط الطول والعرض يؤكد أن فاس تقع في خط طول 7:18 وفي خط عرض 34:06 .

وفي أثناء حديثه عن موقع فاس لا يذكر باديا سوى أنها تقع على منحدر تحيط به تلال مختلفة من جميع الجهات باستثناء الجهة الشمالية والشمالية الشرقية ، وعن مناخ المدينة يقول : « كان الجو معتدلا خلال مدة إقامتي بفاس ، غير أنه في فصل الشتاء أحسست بالبرد كما في أوربا . وقد أخبرني بعضهم أن الحرارة تكون جد مرتفعة خلال فصل الصيف » (ج 1 ص. 141) .

تلك هي الصورة التي رسمها باديا عن موقع ومناخ مدينة فاس ، لينتقل بعدها إلى وصف الأزقة والمنازل والأسوار: « وهكذا – يقول باديا – فإن أزقة المدينة جد مظلمة ، ليس بسبب ضيقها فحسب ، بحيث يستحيل أن يمر عبرها شخصان متقابلان يمتطيان فرسيهما ، ولكن أيضا بسبب المنازل المرتفعة » (ص. 112) .

وعن هذه المنازل يرسم باديا صورة قاتمة : « كل المنازل تقريبا تعيش في حالة شبه خراب ، وكثير منها يرتكز على أعمدة كما تنعدم فيها تقريبا النوافذ والقلة الموجودة بها صغيرة جدا ومرتفعة وتكون دائما مغلقة » . وعن التصميم الداخلي لهذه المنازل تكلم باديا بإسهاب فقال : « فرضت العادة والتقاليد في البلاد أن يوجد داخل المنزل ساحة محاطة بأعمدة أو دعائم تحمل الأروقة التي تشكل ممرات في الأسفل وفي الأعلى ، وعبر هاته الممرات ندخل إلى الغرف المتلاصقة مع بعضها البعض بحيث لا يمر إليها الضوء إلا عبر الأبواب . وهذه الغرف جد طويلة وضيقة تشبه الغرف التي رأيتها في طنجة .

سقفها مرتفع جدا مبني بألواح خشبية عادة غير مزينة إلا في بعض المنازل الأخرى حيث نجد سقوف غرفها وأبوابها وكذلك أروقة الساحة مزينة بزخارف ونقوش بارزة ومصبوغة بمختلف الألوان والأشكال حتى بالذهب والفضة . أما أرض الغرف والساحة فهي مبلطة بالآجر باستثناء المنازل الثرية حيث نجدها مبلطة بالرخام المختلف الألوان يشكل لوحة جميلة .

السلالم كلها ضيقة وأدراجها عالية كما أن سطوح هذه المنازل ، والشبيهة بالتي رأيتها في طنجة ، مغطاة بالتربة المدقوقة على ارتفاع قدم واحد . وهذه الكمية الهائلة من التربة تؤدي إلى إحداث شقوق على الجدران عوض منع تسرب الأمطار . وبما أنها بنيت بالجير السيئ فإنها تتحطم بسرعة باستثناء بعض المنازل التي تصمد لأمد طويل إلا أن كل جدرانها مشقوقة ومتصدعة أو فقدت أعمدتها »(ص. 113/ 114) .

وبخصوص أسوار المدينة فقد لاحظ باديا أن : « فاس توجد داخل نطاق واسع من الأسوار القديمة والتي ما زالت صامدة ، وداخل هذا النطاق يوجد فاس الجديد وعدد من الحدائق الكبرى . » (ص. 128).

وفي نهاية هذا الوصف لمدينة فاس ، نشير إلى الملاحظة التي سجلها باديا حول وفرة المياه بالمدينة . ففي هذا الصدد ، تكلم عن الماء والنافورات بفاس قائلا : « يخترق نهر فاس القصر السلطاني ، وعند مروره بالمدينة ينقسم إلى شطرين يزودان مدينة فاس بالماء الوافر الذي نراه بغزارة في المنازل والمساجد حتى يتعذر وجود منازل لا تتوفر على نافورة أو اثنتين. » (ص. 123).

2 / <u>المرافق العمرانية بفاس</u> :

ـــ <u>قصر السلطان</u> : وعن قصر السلطان قدم لنا باديا الصورة التالية : « يحتوي قصر السلطان على عدد كبير من الساحات ، بعضها غير مكتمل البناء والبعض الآخر في حالة شبه خراب . وهذه الساحات عبارة عن ممرات لكثير من الغرف والحجرات لم يتسن لي رؤيتها . وفي الساحة الأولى للقصر نجد حراسا واقفين أمام أبواب مغلقة لا تفتح إلا للعاملين وخدام القصر أو للأشخاص ذوو الامتيازات الخاصة . في الساحة الثالثة توجد حجرة صغيرة من الخشب نصعد إليها عبر أربعة أدراج، داخلها مكسو بنسيج مصبوغ وأرضها مغطاة بزربية . وأمام الباب وضع سرير مزين بستائر وبجانبه الأول أريكة وبجانبه الثاني مرتبة صغيرة.

داخل هذه الحجرة ، والتي لا يتعدى مربعها خمسة عشر قدما ، يستقبل السلطان ، وهو إما جالس على الأريكة أو على المرتبة ، الأشخاص الذين حصلوا على إذن الامتثال بين يديه دون أن يتجاوزوا الباب باستثناء الأشخاص المفضلين ذووا الامتيازات الخاصة يلجون الغرفة ويجلسون على الفراش وقد حصلت دائما على هذه الميزة الخاصة. » (ص. 12 ــ 121)

ويستمر باديا في تقديم هذه اللوحة التفصيلية فيقول : « في نفس الساحة يوجد مسجد صغير يؤدي فيه السلطان الصلوات اليومية باستثناء صلاة الجمعة يؤديها في المسجد الكبير بالقصر والذي يفتح لعامة الشعب بواسطة باب يطل على الشارع .» (ص. 121)

ومقابل هذا الوصف لقصر السلطان يمر باديا إلى وضع صورة مشوهة لمكتب الوزير داخل القصر السلطاني فيقول: « يوجد في الساحة الثانية مكتب الوزير، وهو عبارة عن غرفة رديئة ومصابة بالرطوبة ، يبلغ عرضها حوالي خمسة أقدام وطولها حوالي ثمانية أقدام، جدرانها قاتمة تسقط قشرتها على الأرض بكميات متفاوتة. لا يوجد بالغرفة أي أثاث آخر أو زينة أخرى ما عدا زربية قديمة تغطي أرضية البيت. وفي زاوية هذه الغرفة البائسة يجلس الوزير القرفصاء على الأرض وبجانبه وضعت محبرة رديئة وبعض الأوراق في منديل من الحرير بالإضافة إلى كتاب صغير أو مذكرة لتسجيل بعض النقط. عندما يخرج الوزير من الغرفة يغلق المحبرة ويضع الأوراق في منديل الحرير ويتأبط الكتاب ولا يترك أية وثيقة داخل الغرفة » (ص. 121 — 122)

ينهي باديا هذه الصورة التفصيلية لقصر السلطان قائلا: « شيد القصر على ربوة في حي يوجد خارج مدينة فاس يسمى فاس الجديد. وبجانب القصر توجد حديقة السلطان تسمى بوجلود ، وهي عبارة عن بستان بسيط فيه بعض الأشجار كما توجد فيه بعض البنايات. » (ص. 122)

— مسجد القرويين : يستهل باديا حديثه عن المسجد بشيء من القسوة والاحتقار فيعطي وصفا له قائلا :

« يحتوي مسجد القرويين على ما يناهز ثلاثمائة من الأعمدة ،غير أن بنائها رديئ. والمسجد مبني بالآجر و الجير وكذلك الأحجار دون زينة هندسية ، كما يتوفر المسجد على أبواب كثيرة وعلى نافورتين جميلتين في الساحة وعلى مئذنة صغيرة و غير بارزة.»

وخلال هذا الوصف لا يلبث باديا أن يتذكر موطنه ومدينة قرطبة ليعقد مقارنة بين مسجد القرويين ومسجد قرطبة -الذي يسميه كاتدرائية- « و هذا الأخير يتجاوزه في الحجم ويرقى عليه كثيرا في الزينة الجمالية»(ص. 115)

ينهي باديا هذا الوصف الخارجي لمسجد القرويين بحكم عام مفاده : « وعلى العموم يتشابه مسجد القرويين مع كل المساجد التي رأيتها في المغرب .يحتوي كل واحد منها على ساحة محاطة بأروقة وفي الجهة الجنوبية منها مربع أو متوازي الأضلاع مغطى ومحمول بصف من الأروقة » (ص. 115)

ينتقل باديا إلى إعطاء صورة من داخل المسجد قائلا : « وسط السور الداخلي للمسجد المطل على الجنوب والجنوب الشرقي يقع المحراب الخاص بالإمام ، وعلى

اليسار يوجد المنبر الخاص بخطبة الجمعة » وهنا لا بد من التسجيل أن باديا في هذا الوصف يصدر حكما يتسم بالموضوعية فيستنتج قائلا : « كل هذه الأوصاف التي ذكرت نجدها تتشابه مع نظيرتها الموجودة بكتدرائية قرطبة مما يدل قطعا على أن هذه الأخيرة شيدت من طرف المغاربة ولم تشيد من طرف الرومان كما زعم بذلك بعض الكتاب الإسبان. » (ص. 116)

إلى جانب مسجد القرويين أدلى باديا بإحصائية للمساجد الموجودة بفاس وقدر عددها بأكثر من مائتي مسجد. غير أنه لم يتطرق إلى وصفها وذكرها فقط بقوله : « المساجد الأخرى الموجودة بالمدينة صغيرة وحقيرة.» ويستثني في هذا الصدد المسجد الذي بناه السلطان سليمان فيقول عنه: « هناك مسجد آخر جديد تم بناؤه من طرف السلطان الحالي مولاي سليمان، وقد شيد بكثير من العناية والأناقة من المساجد الأخرى ، فأقواسه أكثر ارتفاعا وأعمدته متناسبة مع بعضها البعض. أما تصميم المسجد فهو صورة طبق الأصل للمساجد الأخرى. » (ص. 118)

ـ ضريح مولاي إدريس : من بين المرافق الدينية التي خصها باديا بنصيب من الاهتمام ضريح المولى إدريس الذي اعتبر مسجده الأكثر ارتيادا من طرف السكان وهذا يرجع ـ كما لاحظ ـ للمكانة المقدسة التي يحظى بها لديهم. وفي وصفه للضريح نجده يرسم لوحة تفصيلية قائلا: « هذا الضريح، كغيره من المرافق الدينية الأخرى، توجد في وسطه ساحة محاطة بأعمدة، بينما القسم المغطى هو عبارة عن قاعة كبيرة بدون أقواس ولا أعمدة. سقفها مرتفع جدا، مصنوع من الخشب ومزين بزخارف عربية، يشكل هرما مثمن الزوايا ومسند فقط على الأسوار الأربعة للقاعة.

أما الضريح فيوجد على يمين المحراب، مغطى بنسيج تختلط وتتنوع فيه الألوان بكثرة. وتتدلى من السقف عدة قناديل زجاجية وثريا من الكريستال. وعلى جانبي الضريح وضع صندوقان كبيران للتبرعات والعطايا.» (ص. 118 ـ 119)

بعد هذا الوصف الذي خصه لداخل الضريح ينتقل باديا إلى رسم الصورة الخارجية : « صومعة الضريح هي الأكثر ارتفاعا والأكثر جمالا بفاس لكنها غير بارزة نظرا لأن هذا الضريح ، والذي يوجد في وسط المدينة ، شيد على أرض منخفضة. » (ص. 119)

لا ينسى باديا في ختام حديثه أن يشير إلى حرمة الضريح فيؤكد قائلا: « يعتبر ضريح المولى إدريس الملجأ الأكثر قدسية في البلاد . فحتى الشخص الذي اقترف جريمة القدح والسب ضد السلطان ، إذا لجأ إلى الضريح ، يعتبر في أمان وليس لأحد الحق في إلقاء القبض عليه. » (ص. 120)

ـ المرافق الاجتماعية الأخرى : لم يغفل باديا الكلام عن جملة من المرافق العامة الأخرى الموجودة بمدينة فاس مثل المستشفى والحمامات والقيسارية والأسواق والدكاكين.

وتختلف الصور التي رسمها حول هذه المرافق في حسنها وبشاعتها، وفي انتظار أن نقوم بتعليق حول هذا الجانب في عنصر الاستنتاجات، نترك باديا يصف لنا هذه المرافق .

فعن المستشفى يقول : « يوجد بفاس مستشفى أو بالأحرى مأوى مخصص لعلاج المرضى بأمراض عقلية . والجزء الأكبر من نفقاته يتكلف به المحسنون الذين يحرصون على ضمان العلاج وتوفير الأدوية لهؤلاء التعساء. » [1] (ص. 127)

وبخصوص الحمامات أظهر باديا إعجابه وأطلق عنانه في وصفها قائلا: « يوجد بفاس عدد كبير من الحمامات العمومية الجيدة ، تحتوي على غرف تتدرج فيها الحرارة من البرودة إلى السخونة حيث يمكن للشخص الجلوس في أية غرفة أرادها أو فضلها. تتوفر كل غرفة على أحواض مملوءة بالماء الساخن يخرج من مولدات البخار الموضوعة في الخلف. وعندما ندخل إلى هذه القاعات تعتري الجسد حمرة رفيعة لأن المحيط مشبع في مجمله ببخار الماء الساخن. ومن جانب آخر من القاعة توجد نافورة تخرج منها كمية من الماء يصب في حوض جميل مرصع بالمرمر.

جميع الغرف داخل الحمام مقبية وبدون نوافذ، لا تحتوي إلا على ثقب صغيرة في السقف مغلقة بالزجاج لتسمح بمرور أشعة الضوء. أما الأرض فهي مبلطة برخام جيد ذو ألوان مختلفة. ونلاحظ أن السخونة داخل كل غرفة تنبعث من أسفل الأرض .

كما يتوفر الحمام على غرف مخصصة للوضوء وأخرى للاسترخاء. وهذه الحمامات كلها تفتح أبوابها للعموم طيلة اليوم، فالصباح مخصص للرجال والمساء مخصص للنساء. » (ص. 125 ــ 126)

أما القيسارية فقد لاحظ باديا أنها تضم مختلف المهن وعديد من البضائع المعروضة للبيع ، تتفرق في أزقة وتضم كذلك أشخاصا يمتهنون نفس الحرفة أو التجارة. والقيسارية : « مغطاة بالخشب على شكل فن الزخرفة العربي، يترك ثغرات أو نوافذ ذات أحجام مختلفة لمرور الضوء والهواء. والقيسارية على العموم ذات طابع أنيق يؤمها يوميا حشد هائل من الناس. » (ص. 124)

وعند حديثه عن المحلات التجارية والأسواق نجد أن أول ما استرعى انتباه باديا هو عددها فيستهل كلامه عن الدكاكين قائلا: «عدد الدكاكين التجارية كبير جدا» وكذلك « أسواق المعيشة كثيرة وعددها هائل.» حتى أنه قارنها بالأسواق الأوربية نظرا لكثرة وتنوع المنتوجات والبضائع ،كما يوجد بها : « عدد كبير من الدكاكين الخاصة لبيع

---

[1] - تعددت بفاس المستشفيات وكثرت، ويوجد عدد كبير من المستشفيات في خارج أبواب المدينة ، ويمكن أن يكون هذا المستشفى الذي يشير إليه باديا هو المكان الذي كان بالقرب من سوق العطارين و سوق الحناء يقيم به المرضى بأمراض عقلية ، وكان بناؤه قديما يرجع تأسيسه إلى عهد سلاطين بني مرين، حيث بنى أبو يعقوب يوسف بن يعقوب هذا المارستان لما تولى الملك سنة 685 هـ/1286 م، وعهد إدارته إلى أشهر الأطباء وخصص له الأوقاف الكثيرة من العقار للصرف عليه، ولما عظم أمر المارستان واتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان زيادات عظيمة. وفي سنة 900هـ / 1495 م لما أقام أهل الأندلس من المسلمين في فاس تولى رئاسة هذا المارستان طبيب من بني الأحمر يسمى فرج الخزرجي ولذلك سمي بمارستان فرج، فأصلح فيه وجعل الموسيقيين يعزفون أمام المرضى.

الأطعمة كثيرة التوابل وعدد من المطاعم كما هو الشأن في المدن الأوربية الكبرى .» (ص.123)

وقبل إنهاء حديثه عن المحلات التجارية يرسم باديا صورة لها كالتالي : « علينا أن نلاحظ أن هذا العدد الهائل من الدكاكين يمثل معرضا مستمرا ودائما حيث يؤمه يوميا عدد من سكان المدينة إضافة إلى سكان الجبال و القرى المحيطة بالمدينة.» وهنا يفسر باديا سبب ذلك بقوله: « هؤلاء السكان الذين يقطنون في دواوير متعددة لا توجد لديهم دكاكين تجارية ولا ورشات من هذا النوع. لهذا السبب يجدون أنفسهم مجبرين على الحضور إلى المدينة لشراء والبحث عن كل ما يلزمهم لحياتهم اليومية.» (ص.123)

3/ النظام الإداري :

إذا تساءلنا عن نظام الإدارة الموجود بمدينة فاس فإننا نجد أن باديا قد تكلم عليه بصفة عامة ومختصرة مؤكدا على أنه نفس النظام الإداري السائد بالمدن المغربية الأخرى ،ولهذا لم يتفصل في الحديث عنه مشيرا إلى سلطة القائد و سلطة القاضي ولم يغفل ذكر سلطة ثالثة وهو المحتسب الذي حدد مسؤوليته في : «تحديد أثمان المواد والمنتوجات ويفصل في الخصومات ويصدر الأحكام المرتبطة بهذا الشأن ليحافظ على الصالح العام .»(ص.128)

ثانيا : <u>الحياة الاقتصادية بمدينة فاس :</u>

تبقى المعلومات التي أوردها باديا في هذا العنصر محدودة ، ويمكن إجمالها على الشكل التالي : الثروة الزراعية ، المواد الغذائية ، الحرف والنشاط التجاري (النقود ، المقاييس و الموازين).

1/ <u>الثروة الزراعية</u> : تتلخص المعلومات التي أوردها باديا حول الثروة الزراعية بمدينة فاس في حديثه عن الفواكه فقال بصفة عامة: « بما أنني أقمت بفاس في فصل الشتاء ، لم أشاهد تقريبا أية فاكهة باستثناء البرتقال و الليمون الجيد .كما أن جميع أنواع التمر كانت تأتي من الجزء الجنوبي للمغرب أي من تافيلالت.»(ص.140)

ويمكن الملاحظة في هذا الجانب أن ما استرعى انتباه باديا فيما يخص الثروة الزراعية بمدينة فاس هو نبات الكيف فعنه يقول: « تنتج هذه المنطقة محصولا وفيرا من نبات مخدر يسمى الكيف. لم أتمكن من رؤية هذه النبتة إلا وهي يابسة أو على شكل مسحوق نظرا لأنها تنمو في فصل الربيع.» ولم يقتصر باديا على هذا الحديث بل رسم صورة تفصيلية عن كيفية تحضير هذه النبتة ، وفي هذا الصدد يقول : « من أجل استعمالها يتم وضع هذه النبتة في إناء من الطين مع كثير من الزبدة و ندعها تغلي على النار لمدة اثنا عشر ساعة. بعد ذلك تصفى من الزبدة و تصلح لتتبيل الأطعمة أو تخلط مع السكريات أو تبلع على شكل حبوب .ومن محاسن هذه النبتة أنها جد مقوية كما أنها تولد أثرها بسرعة.»(ص.139) و إضافة إلى طريقة التحضير والاستعمال، تكلم باديا

عن كيفية تدخين هذه النبتة فقال :« يقوم البعض بتدخين أوراق هذه النبتة على طريقة أوراق التبغ. وأكد لي بعضهم أنها لا تخدر ولكنها تبهج الخيال، وأعترف بأنني لم أتردد في القيام بهذه التجربة.» (ص.140)

وقبل إنهاء هذا العنصر الخاص بالثروة الزراعية نلاحظ أن باديا أغفل تماما الحديث عن الثروة الحيوانية الموجودة بفاس من خيول و بغال و حمير وذلك على غير عادته في المدن المغربية الأخرى التي زارها و بالأخص طنجة ومراكش.

2 / المواد الغذائية :

وبجانب هذا الحديث المقتضب حول الثروة الزراعية بفاس يتحدث باديا عن بعض المواد الغذائية: « أما لحم الغنم بهذه المدينة فكان أفضل من لحم البقر أو الثيران. وكان الدجاج يتواجد بكثرة في الأسواق لدرجة أنه بأربعة أو خمسة فرنكات يمكن الحصول على دزينة ، كما أنه بنفس الثمن يمكن الحصول على ما يناهز خمسة كيلوغرامات من اللحم .» (ص.140) وعن الخبز يقول:« يتم صنع خبز رفيع وجيد في المخبزات الموجودة بالمدينة ،غير أن السكان ألفوا عادة تحضير الخبز في منازلهم.» و في هذا الصدد يشير باديا إلى العادة التي وجدها في فاس فيقول : «تلتقي في أزقة فاس بأطفال صغار يحملون على رؤوسهم لوحات خشبية وضعت عليها أربع إلى خمس وحدات من الخبز يأخذونها من المنازل و يتجهون بها إلى الأفران ،وبعد طهيها يرجعونها إلى أصحابها بنفس الطريقة .»(ص.140)

3/ الحرف :

إذا انتقلنا إلى ميدان الحرف في مدينة فاس فإننا نجد أن باديا ركز حديثه عن المعامل الموجودة بالمدينة وما تنتجه من صناعات كالحايك المصنوع من الصوف و الأحزمة و المناديل الحريرية والأحذية التقليدية أو الأخفاف المدبوغة جيدا والطرابيش الحمراء من اللبدة وزرابي رائعة « وجدتها ـ يقول باديا ـ أحسن من زرابي تركيا لنعومتها رغم نقصها في جانب الرسومات»، وكذلك أشار إلى صناعة الأسلحة والسروج وأدوات نحاسية .(ص.138)

وفي نهاية حديثه عن هذه الحرف والمعامل الصناعية يختم باديا قوله بهذه الطريقة :«تعاني الفنون من نقص كبير وتوجد في مرتبة هزيلة بالمقارنة مع أوربا باستثناء طريقة صنع الجلد و الزرابي و الحايك الشفاف الذي يصنعونه بطريقة رائعة.» (ص.139)

4/ النقود و المقاييس و الموازين :

رغم أن باديا اشتغل منذ بداية حياته الوطنية في الجهاز المالي ولديه اهتمام كبير بهذا الجانب ،إلا أنه لم يتطرق تماما للحديث عن هذا العنصر بمدينة فاس مكتفيا بقوله « إن الموازين والمقاييس والنقود هي نفسها الموجودة في كل بلاد المغرب والتي سبق أن وصفتها وتحدثت عنها في العنصر المتعلق بطنجة.» (ص.142)

ثالثا : الحياة الاجتماعية :

1 / السكان والفئات الاجتماعية : يستهل باديا حديثه في هذا العنصر بتقـدير عـدد سكان فاس قائلا : « لا توجد أية طريقة لمعرفة العدد المـضبوط لـسكان فـاس ، وقـد أخبرني بعضهم بأن المدينة تضم مائة ألف نسمة ، وقد بلغ العدد ضعف ذلك قبل الطاعون الأخير.» [1] (ص.112)

ــ اليهود : بخصوص الفئات المكونة لسكان فاس تحدث باديا عـن اليهـود، فبـدأ حديثه في هذا الصدد بإبراز عددهم قائلا: « تضم مدينة فاس حـوالي ألفـي عائلـة مـن اليهود، يقيمون في الحي الخاص بهم بفاس الجديد. » (ص. 137) ، ولا يلبث باديـا أن يقدم صورة قاتمة وبشعة حول حالة اليهود وطريقة عيـشهم ونظـرة المجتمـع الفاسـي والمغربي بصفة عامة لهم فيقول: « هم ــ يعني اليهود ــ مجبرون على العيش في حالـة من الدناءة القصوى» وإذا تساءلنا عن هذه الحالة فإنه يجيب قائلا: « نظـرة النـاس لهـم تتسم بالكراهية والاحتقار، فلا يسمح لهم ــ سواء رجالهم أو نـساءهم ــ بـالتجول فـي المدينة إلا وهم حفاة . وإذا التقوا في حيهم أو في مكان آخر وحتى في البادية، بأي جندي أو حتى بأدنى عبد من عبيد السلطان فهم مجبرون على خلع نعالهم. » ولا يلبث باديا فـي نفس الفقرة ، أن يأتي بصورة متناقضة فيرسمها قائلا : « رأيت في فاس يهوديات جمـيلا ت ترتدين أغلى زينة ، كما رأيت اليهود الرجال بلباس أنيق ورفيـع ويتمتعـون بـصحة جيدة، الشيء الذي لم ألاحظه في مدينة طنجة وهذا دليل على أن اليهود هنا ليسوا فقـراء وأكثر بؤسا كما وجدتهم في هذه المدينة الأخيرة. ويتوفر اليهود في حيهم بمدينة فاس على كثير من دور العبادة وعلى سوق مليء بالبضائع وهم في غالبيتهم حرفيـون أو تجـار. » (ص. 137 ــ 138)

قبل الانتقال إلى عنصر آخر نتوقف قليلا لطرح التساؤل التالي : لماذا هذا التناقض في الصورة التي قدمها باديا حول يهود فاس وإلى أي حـد كـان موضـوعيا فـي هـذا الوصف؟

أولا ، بخصوص التناقض الذي وقع فيه الرحالة باديا في هذا الوصف وفـي كثيـر من المناسبات يمكن إرجاعه إلى المصدر الذي اعتمده في كتابه. فقد ارتكز بالأساس على الملاحظة أولا والاستخبار ثانيا حيث يبدأ كلامه في كثير من المناسبات بهـذه العبـارة :" أخبروني ، قال لي بعضهم ....الخ" وهذا المصدر في غالب الأحيان ما يوقع بصاحبه فـي أخطاء وفي تناقضات ويبعده عن تقديم الحقيقة بشكل موضوعي .

ثانيا ، من هنا نصل إلى مسألة الموضوعية التي تنعدم تقريبا عند كثير من الرحالة الأجانب أو في الكتابات الأجنبية وبالأخص حول حالة اليهود بالمغرب والتي تـشكل الآن محور حديثنا. فهذه الصورة البشعة التي قدمها باديا حول يهود فاس بصفة خاصة ، كمـا

---

[1] - يقصد وباء الطاعون الذي اجتاح المغرب سنة 1799 - 1800 .

وجدناه يقدمها حول يهود طنجة والمغرب بصفة عامة ، ابتعدت عن المصداقية وعكست لنا نظرة الأوربي التي كانت سائدة في تلك اللحظة . وهنا نقتبس ما قاله جرمان عياش : « إن أمعنا البحث اكتشفنا مصدرها في بعض الروايات القليلة التي أوردها بين القرنين السابع عشر والثامن عشر مسافرون أوربيون والمحقق أن هؤلاء " الكشافين " لا يألون جهدا للتأثير في عقوق أهل بلادهم .. ولو باختلاق ما أمكنهم من الأساطير. » [1] .

ــ الشرفاء الأدارسة : استرعى انتباه باديا هذه الفئة من المجتمع الفاسي والتي تنحدر من المولى إدريس مؤسس مدينة فاس وتقطن قرب ضريحه، فتكلم عنها بقوله: « يبدي جميع السكان احتراما كبيرا لهذه الفئة وتعتبر العائلة المشهورة جدا في كل المغرب ويحملون اسم" شرفاء مولاي إدريس ".

رئيس هذه العائلة يحمل اسم " المقدم " . والمقدم الحالي الذي وجدته بفاس عجوز محترم يدعى الحاج ادريس [2] ، يتكلف بتسيير وإدارة المداخيل المالية التي يتوصل بها الصندوق الخاص الموضوع بجانب الضريح. كما يتلقى تبرعات السكان وتشمل الحبوب وقطعان الماشية ومواد أخرى ، ويقوم بتوزيعها على شرفاء العائلة رغم أن أغلبيتهم تنتمي إلى أغنياء البلد ويمتلك بعضها عقارات قيمة والبعض الآخر يزاول تجارة مربحة.» (ص. 183 ــ 184)

وقبل إنهاء هذا العنصر الخاص بسكان مدينة فاس نلتفت إلى الصورة الأنثربولوجية التي رسمها باديا حول بعض النساء المسلمات وجاءت كالتالي: « لا يتعذر أن نجد أيضا كثرة من المسلمات الجميلات ترتدين لباسا غريبا يسمى"الحايك" يضعن بمهارة فتحة له تسمح لهن بالرؤيا والمشاهدة. » (ص. 124)

ــ عادات وأحداث : تطرق باديا ــ كعادته في وصف كل كبيرة وصغيرة ــ إلى وصف بعض العادات وجدها في مدينة فاس وفي المجتمع المغربي بصفة عامة، كما تكلم عن البعض منها وجدها في المجتمع الفاسي . فعن الغذاء الأساسي للسكان يقول فهو الكسكس (ص. 139) ، ولم يتطرق هنا إلى إعطاء وصف دقيق لهذا الغذاء من حيث الصنع أو الطبخ أو كيفية أكله كما تكلم عن ذلك عندما كان مقيما في مدينة طنجة [3].

وحول أنواع الأكلات الأخرى يقول : « اللحم هنا هو الأكثر استهلاكا إلى جانب قليل من الخضر أو النباتات . وفي اللحم يفضل الناس شحمها ويلتهمونه بشهية وفي نفس الوقت يشربون أقداحا كبيرة من الماء مما يسبب بعض الأمراض . لكن ، بصفة عامة ، نظرا للمناخ الصحي لمدينة فاس فإن السكان يتمتعون بصحة جيدة. » (ص. 139)

---

[1] - جرمان عياش : " الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الاستعمار " تعريب محمد الأمين البزاز و عبد العزيز التمسماني خلوق ، مجلة : دار النيابة ، عدد 12 ، السنة 1986 ، ص. 8 .

[2] - هو والد السفير المغربي ادريس الرامي الذي أرسله المولى سليمان إلى نابليون بونابرت سنة 1808 ، حول هذه السفارة راجع كتابنا : المغرب والثورة الفرنسية ، منشورات الزمن ، الرباط 2002 .

[3] - للمزيد من المعلومات حول هذا الجانب انظر مقالنا :" الجانب الأنثربولوجي" في رحلات دومينجو باديا" ، أعمال ندوة : الرحلة والغيرية ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 148 .

ونختم هذا العنصر بحدث الزلزال الذي ذكره باديا بقوله : « في 13 يناير (سنة 1804) أحسسنا بحدوث زلزال كان قد ترك خرابا كبيرا بالساحل الإسباني . وقع هذا الزلزال في الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة مساء واستمر عشرين ثانية . بلغ عدد هزاته ثلاثون هزة كانت الأربعة أو الستة الأولى منها عنيفة جدا ، وكان اتجاه موجاته من الغرب إلى الشرق ويمكن لي الحسم أن مركزه كان في مضيق جبل طارق وأنه امتد أربع درجات عرضا في الشمال والجنوب . » (ص. 141)

رابعا : الحياة الثقافية :

يشرع باديا في حديثه عن هذا الجانب بإعطاء صورة حول وضعية التعليم بمدينة فاس والطريقة المعتمدة في هذا الميدان :«تحتوي مدينة فاس على عدد كبير من المدارس أكثرها أهمية مقامة في مسجد القرويين وفي ضريح المولى إدريس على شكل منزل ومسجد يسمى"مدرسة".»(ص.128). ثم بعد ذلك يرسم صورة حول طريقة التعليم السائدة قائلا:« يجلس رجل القرفصاء على الأرض صائحا بصوت عال ومزعج أو يرتل على شكل رتيب ونحيب. يحيط به خمسة عشر إلى عشرين شابا على شكل دائرة يحملون في أيديهم كتابا أو لوحا خاصا بالكتابة ويرددون في آن واحد مع مدرسهم تلك الأصوات العالية أو التراتيل في تنافر تام.»(ص.129)

وإذا تساءلنا عن التعليم السائد في هذه المدارس وفي هذه الجلسات ،يجيبنا باديا :« بالنسبة للمواد التي تدرس في هذه الجلسات تتلخص فقط في الأخلاق والشريعة المطابقة للعادات والعقيدة .بمعنى آخر ينحصر الكل في القرآن وشروحاته مع بعض المبادئ البسيطة في النحو والمنطق فهي ضرورية لأنها تمكن الشخص من فهم النص القرآني.» (ص.129)

وبخصوص العلوم الأخرى الموجودة بمدينة فاس ،فقد رسم باديا صورة متردية قائلا :« يعتمد المغاربة في تدريس علم الهندسة على كتاب إقليدس Euclide، وعلم نشأة الكون مرتبط عندهم بالقرآن ، وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء لا توجد لديهم حولها سوى مبادئ أولية،أما الكيمياء فهي منعدمة تماما كما أن الجغرافيا غائبة وعلم التشريح تمنعه الشريعة.وأما التاريخ فيوجد بالمدينة إخباريون أو كتاب للتاريخ لكن مؤلفاتهم لا تحظى- في رأي باديا- بالإقبال. وبالنسبة للغة يقول عنها أنها في حالة تقهقر وانحطاط نظرا لعدم وجود الطباعة.أما الموسيقى فهي محرمة على النساء وعلى الطبقات الدنيا من المجتمع.(ص.132-133)

في جانب آخر ، وأمام هذه الصورة المتردية التي رسمها باديا حول العلم وطريقة التعليم وهذا الهجوم العنيف الذي شنه بصفة عامة على الجانب الثقافي ، لا ينسى هويته الأوربية ليبرز دوره كعالم ومثقف يملك طريقة علمية في النقاش وله قدرة خارقة لإقناع الآخرين وجعلهم ينبهرون به. فيصف لنا إحدى جلسات النقاش قائلا:«في بعض الأحيان

دخلت في نقاش مع هؤلاء الفقهاء وأقحمتهم بكثير من الأدلة دون أن أتلقى منهم أي جواب ونتيجة لذلك أرغمتهم على السكوت. كانت هذه الطريقة في الكلام جديدة عليهم لا يستطيعون الرد والبرهنة ،يظلون صامتين ينظر بعضهم إلى بعض في انبهار ودهشة.»(ص131-132)

كانت هذه أهم الفقرات والمحطات التي سجل فيها دومينجو باديا ملاحظاته ومعلوماته أثناء استقراره ومكوثه بمدينة فاس الذي دام ما يناهز أربعة أشهر من 5 نوفمبر 1803 إلى غاية 27 فبراير 1804.ونكتفي بهذه الأمثلة لنصل إلى استنتاجات عامة.

استنتاجات :

بعد استعراضنا لهذه الرحلة التي قام بها دومينجو باديا (علي باي العباسي) إلى فاس وسجل فيها ملاحظاته ومعلوماته عن مختلف المستويات الجغرافية ، الاجتماعية ، العمرانية ، الاقتصادية ، الثقافية وغيرها ، يمكن لنا الخروج بملاحظات أساسية.

أولاها اختلاف وكثرة المواضيع التي تطرق إليها باديا في متن رحلته.

ثانيها التغطية الشاملة لكل الجوانب ولكل المستويات دون إغفال أية صغيرة أو كبيرة.

بالنسبة للملاحظة الأولى يمكن ربطها بالمنهجية التي دأب عليها الرحالة الأوربيون المتمثلة في تجميع المعلومات اعتمادا على أسلوب الملاحظة بصفة أساسية ،علاوة على تشبثهم بالنظرة الأوربية آنذاك لبلدان العالم العربي وشعوبها (البربرية ، القمع ، الجهل ، الاستبداد ...) دون الإلمام بالواقع وتحليله وربط الأسباب مع بعضها ومحاولة الوصول إلى نتيجة موضوعية ، وهذا ما دفع دومينجو باديا في كثير من المناسبات إلى استعمال أسلوب التعميم ، وبذلك تنعدم الموضوعية في كثير من المعلومات .

وإذا رجعنا إلى متن الرحلة نستطيع أن نستأنف ببعض الأمثلة ونكتفي بها للاستدلال على هذه المسألة :

1/الصورة القاتمة التي قدمها عن مدينة فاس من الناحية العمرانية واصفا الأزقة و المنازل و المرافق الموجودة بها وبالأخص جامع القرويين ،بكونها ذات بناء بسيط تفتقر إلى أدنى معايير الهندسة .وهذه هي الصورة العامة التي قدمها حول كل المدن المغربية الرئيسية التي زارها : طنجة ومراكش.

2/عندما يشرع في الكلام على الجانب الثقافي بمدينة فاس يدشنه بحملة وهجوم عنيفين ،ويرسم صورة سوداء حول هذا الميدان ،ثم يعمم ذلك على المغاربة واصفا إياهم بالجهل وعدم إلمامهم بالعلوم كالطب والهندسة والكيمياء وغيرها.وهي نفس الصورة التي أنتجها في محطته المغربية الأولى وهي مدينة طنجة .

أما الملاحظة الثانية الخاصة بالتغطية الشاملة لكل المستويات والجوانب التي سجلها في رحلته إلى فاس، فنظرا لعدم وجود نسق موضوعي يربط جل المعلومات مع بعضها البعض في وحدة متكاملة، حددنا طريقة لبناء المعلومات التي ساقها الرحالة باديا وقمنا بدمجها في وحدة متناسقة ومتكاملة تسهل علينا معرفة هذه المعلومات ،فجاءت هذه الوحدة الموضوعية على الطريقة التالية :

وصف المدينة والمرافق الموجودة بها ،الحياة الاقتصادية وأخيرا الحياة الاجتماعية والثقافية.

صحيح أن باديا في رحلته إلى المغرب كان يستهدف تقديم خدمة للجانب الأوربي وأن كثير من الملاحظات والمعلومات يطغى عليها " الكبرياء الثقافي " الذي تميز به الرحالة الأوربيون ومنعهم من فهم الآخر معرفة موضوعية ،إلا أنه رغم الشطط والمبالغة التي وقع فيها الرحالة باديا ، فإن رحلته لا تخلو من فوائد وتبقى مصدرا تاريخيا حول أوضاع المغرب بصفة عامة وحول مدينة فاس بصفة خاصة في بداية القرن التاسع عشر ولا يمكن دحض ونفي كل ما تحتوي عليه.

وبذلك فإن المؤرخ الذي يعمل ويجتهد لكتابة تاريخ بلاده لا ينبغي له أن يغفل كتابات الرحالة والأطباء والضباط وتقارير السفراء والقناصل، بشرط أن يكون حذرا من هذه النصوص حتى يميز الغث من السمين والحقائق من الكذب والخيال.

وأخيرا وليس آخرا، لا يكفي أن نلقي نظرة خاطفة على رحلة علي باي العباسي / دومينجو باديا إلى المغرب، بل من واجبنا تعريبها وجعل أهمها شكلا ومضمونا في متناول القارئ المغربي والعربي تعميما للفائدة .

أصول الحركات الاستقلالية في المغرب المعاصر

ذ. إدريس بوهليلة

2 - موقف العلماء والمثقفين من احتلال الجزائر

مقدمة :

نقصد بلفظتي : "العلماء" و "المثقفون"، الأشخاص الذين ساهموا بنصيبهم في الثقافة، إن على مستوى الفكر الديني أو الأدبي أو التاريخي، في مغرب القرن الثالث عشر الهجري موافق القرن التاسع عشر الميلادي. وهي الثقافة التي كانت خاضعة لوضعية المغرب الداخلية وعلاقاته الخارجية. ومنها بالخصوص تأثره المباشر بالتنافس الاستعماري الغربي على المغرب،واحتلال فرنسا للقطر الجزائري. هذا الإحتلال الذي جعل العلماء والمثقفين يصدرون أفكارا ويبلورون مواقف نابعة من أرض الواقع المعيش. فاكتسبت مواقفهم حينئذ، أهمية خاصة،ليس على مستوى القاعدة الشعبية فحسب، وإنما على مستوى الأجهزة المخزنية والسلطة السياسية العليا على وجه الخصوص، بالنظر إلى دقة المرحلة وصعوبتها بل وتفاقمها بفعل ازدياد الأطماع الأوربية. وبذلك شكل العلماء والمثقفون_في تقديرنا_ تيارا فكريا دينيا وسياسيا، يأتي من حيث الأهمية والوزن السياسي داخل الدولة، في الدرجة الثانية بعد التيار المخزني السلطاني.

وإن الدراسات والأبحاث الحديثة التي كرست مجهودها لمعرفة مدى أهمية نخبة العلماء أوالفقهاء في ظهور الحركة الوطنية ومساهمتها في الحياة الاجتماعية والسياسية وموقفها من القضايا المستجدة الوطنية والدولية،كلها أكدت ونوهت بدور العلماء في توجيه سياسة الدولة المغربية في القرن 13 ه/19 م.[1]

ونحن بدورنا سنحاول تبيان جانب من مساهمة بعض العلماء والمثقفين في صنع الأحداث والإنخراط فيها كجزء أساسي من المجتمع المغربي، بل وكنخبة مؤثرة فيه، وذلك من خلال استجلاء مواقفهم إزاء قضية شغلت الرأي العام المغربي قاطبة والسلطة

---

[1] - نذكر منها:_ امحمد مالكي، **الحركات الوطنية والاستعمارفي المغرب العربي**.منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية1994

_عبد اللطيف حسني، الأصول الفكرية لنشأة الوطنية المغربية. مطبوعات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991

محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، مطبعة الأمنية، ، ط1، 1392 ه /1973 م،

_ لطيفة بناني سميرس،جوانب من مواقف العلماء،مقال في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، سنة1985 .

_Abdallah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain(1830_1912),Paris,1977.

السياسية العليا خاصة، وهي احتلال الجزائر ابتداء من سنة 1246 ه/1830 م. ولاشك أن معرفة مواقفهم ستعزز فرضية اعتبار أفكارهم أصلا من أصول الحركات الاستقلالية في المغرب الكبير كما سنتبين ذلك في هذا العرض، من خلال تناولنا للنموذج الفقيه التسولي من خلال مؤلفه : أجوبة التسولي على أسئلة الأمير عبد القادر. والذي اعتمدنا فيه على النسخة الخطية الموجودة في الخزانة العامة _قسم الوثائق والمخطوطات بالرباط وتحمل رقم 1604 د، والتي سنثبت مقتطفات من نصوصها عند الحاجة، في متن هدا العرض .

1 - أبو الحسن علي ابن الحسن التسولي مديدش (ت1258 ه/1842 م) وأفكاره الاستقلالية :

يعد التسولي من العلماء المشهورين،ذاع صيته في المغرب كما في الجزائر، بفعل عمله المخزني في سلك القضاء والإفتاء والتدريس خاصة في مدينتي فاس وتطوان (1247 _1250 ه/1831 _1834 م)، وبفعل أنشطته الثقافية الأدبية والدينية ، ومنها كتاباته الفقهية النوازلية التي يستشف من مضمونها أسلوبه الرصين وحزمه وحسمه في القضايا الإفتائية المرفوعة إليه، بحسب ما يمليه عليه الواجب الشرعي وضميره الوطني كعالم فاعل في مجتمعه الإسلامي، يقول ما يراه جديرا بالقول ، غير عابئ بأصحاب القرار والسلطة . هذا ما يبدو جليا، على سبيل المثال، من خلال خطبة خطب بها في منابر المساجد المغربية غب احتلال مدينة الجزائر (سنة 1246 ه/1830 م) والفتوى التي رد فيها على جملة من الأسئلة التي رفعها الأمير عبد القادر الجزائري إلى علماء فاس (سنة 1252 ه/1837 م (1)، تتضمن قضايا وقتية لها ارتباط بالاحتلال وكيفية مقاومته، ومن ذلك ما حكم الشرع في المتخلفين والعملاء وأموالهم ، وماهي وسائل تمويل الجيش المقاوم..الخ. فكان رد التسولي ردا مبسطا شاملا لجميع القضايا المطروحة بأسلوب الفقيه الجرئ الواعي بالمهمة الملقاة على عاتقه. وربما سطعه بالحق وتحرير لسانه من كل قيد هو الذي عرضه للحقد والكراهية وبالتالي إلى المضايقة بل والحرمان من مزاولة وظيفه في القضاء. تتحدث المصادر المترجمة له عن إعفائه من خطة القضاء (2) بفاس وكما بتطوان سنة 1250 ه/1834م وسنة 1252 ه/ 1836 م. وهو إعفاء من تدبير رجال المخزن النافذين :قائد تطوان حينئذ محمدابن عبد الرحمان أشعاش والوزير محمد ابن إدريس العمراوي. وقد جاء هذا الإعفاء متزامنا مع فتوى التسولي السابقة الذكر . مما يجعلنا ندرك علاقة مضمون وأسلوب الخطبة والفتوى بالإعفاء . لايهمنا ،في هذا المقام، من هذا المضمون حول رجال المخزن وعلى رأسهم السلطان مولاي عبد الرحمان ابن هشام، إلا ماله صلة بموقف التسولي من احتلال الجزائر ودعوته للمقاومة والجهاد بغية تحريرها واستقلالها.

أ- التنديد بالاحتلال والتشديد على الجهاد:

بمجرد وصول خبر احتلال مدينة الجزائر إل أسماع علماء المغـرب، بـادر أبـو الحسن علي التسولي إلى إلقاء خطبة في منابر المساجد ببعض المدن المغربية، نـدد فيهـا بهذا الاحتلال، وشدد على ضرورة الجهاد بمفهومه الإسلامي، وحرض علـى الاسـتعداد والتصدي للاحتلال الفرنسي بكل قوة وفي أسرع وقت ممكن، غير مبـال بقـوة المحتـل ولابأجهزته المتطورة وطريقته القتالية. يقول في ديباجة الخطبة عن هدفـه مـن إنـشائها :"ولما استولى الكافر دمره الله على ثغرالجزائر أعادها الله دار إسلام في المحرم سنة ست وأربعين ومائتين وألف، لفقت خطبة مشتملة على التحريض على الاستعداد وعلى بعـض أحكام الجهاد، وخطبت بها بعد ذلك في بعض البلاد"(2).وقدأورد خطبتـه هاتـه ضـمن أجوبته على أسئلة الأمير عبد القادر.

يبدو من منطوق الخطبة والفتوى المذكورتين، أن العالم الفقيه التسولي، قـد انفعـل كثيرا بحادثة الاحتلال، وأوقعت فيه هزة عنيفة، جعلته يتحرك على أكثر من صعيد، ويندد بالاحتلال الفرنسي وينتقده بشدة، كتابة وجهرة من خلال خطبه ودروسـه فـي الجوامـع والزوايا فضلا عن المجالس العلمية، منطلقا في تحليله للظاهرة الاستعمارية، و معلنا عـن موقفه منها، مرتكزا إلى مفهوم العلاقات و الصراع بين" دار الكفـر" و"دار الإسـلام" أي الصراع بين الملتين أو الأمتين، مستلهما في ذلك نصوص المصادر للأحكام الشرعية فـي الشريعة الإسلامية واجتهادات الفقهاء ، ومستحضرا التاريخ الإسـلامي وخاصـة تـاريخ الغرب الإسلامي،كمصدر للحكم والعبر، ومخزن لتجارب الأمم والخبرات الملهمة.

لقد تبنى التسولي ما أجمع عليه فقهاء الإسلام الأوائل من تقسيم العالم مـن حيـث العقيدة الدينية إلى قسمين :الأول سمي ب "دار الإسلام" بمعنى عـالم الإسـلام أو دولـة الإسلام. والثاني سمي ب"دار الكفر" أو "دار الحرب" بمعنى عالم الـشرك أودولـة غيـر إسلامية، أودولة أجنبية. وبما أن هذه الدولة الأخيرة _ويمثلهـا الفرنـسيون _قدتجاسـرت على دولة الإسلام في قطر الجزائر بحربها لأهلها واحتلال أرضها، فقد وجب، في نظـر التسولي، إحياء فـرض" الجهـاد "بمفهومـه الإسـلامي الـسني. وفـي أثنـاء وصـفه للمستعمرالفرنسي استعمل مصطلحات تبين تصوره الديني لنوعية العلاقات بـين الـدارين مثل : "عدوالدين" و "أهل العناد" و "أعداء الدين" و "أهل الفساد" و "العدو الكـافر"..الـخ. وهذا يعني أن التسولي ندد بشدة بالمستعمر وسيشدد على الجهـاد كوسـيلة أساسـيةواحدة ووحيدة للتخلص من ربقة الاستعمار. ويرى أن التاريخ عبرة لمن يريد الاعتبـار ففـساد "الكفار" لايعدله فساد على وجه البسيطة، لهذا فقد نبه القائمين بالأمر إلى ما فعلوه في دول الغرب الإسلامي بقوله : " أولا ترون أنهم نزلوا على من في الغرب منكم واستولوا لهـم على أعظم الثغور، وصارت تخلى رعبا منهم المنازل والقصور، ويقتلـون لهـم الرقـاب والأموال والأولاد"(ورقة91 ب). ولمن أراد الاطلاع على مااقترفته أيديهم فليقـرأ كتـب

التاريخ. وكأن التاريخ يعيد نفسه. فالحوادث تتكرر بلا انقطاع : "فانظروا أيدكم الله حيث لم يعن _أهل الأندلس _ بعضهم بعضا،ولم يكونوا بناء مرصوصا، ولم يستعدوا لعدوهم الكافر عموما وخصوصا، كيف أصبحوا بين يديه جناحا مقصوصا، والمال والحريم بأيديهم معدودا محصوصا ...وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس بعد الأذان "(ورقة 96 أ). كان هذا بالأمس القريب و"اليوم قد نزلوا_أي الفرنسيون_ بساحات، وهتكوا أستارا وحرمات، وأخذوا معاقل وحصوننا، وسبوا قبائل وبطونا"(ورقة96 ب). كما " أنهم نزلوا على من في الغرب منكم واستولوا لهم على أعظم الثغور، وصارت تخلى رعبا منهم المنازل والقصور ويقتلون لهم الرقاب والأموال والأولاد. فانظروا لأنفسكم، فإن فساد الكفر لايعدله فساد. يبث الشرك والتثليث وينسخ كلمة التوحيد ويمحي أثر قائلها من الأرض والبلاد"(ورقة 91 ب). بهذه الصور التاريخية الواقعية لايرى التسولي من حل للأزمة الجزائرية سوى المواجهة المباشرة للاستعمار الفرنسي وبأسرع وقت ممكن قبل أن يستفحل الأمر ويعظم الخطب ويعم أرجاء البلاد المغربية فيستعصي عن كل ردة فعل. يقول في هذا الصدد داعيا إلى اليقظة وعدم الانصياع لأصحاب الحلول السلمية : "فأيقظوا أنفسكم من وسن الغفلة وانتهزوا من عدو الدين الفرصة ما دامت معكم فسحة الاستعداد قبل أن يتفاقم الهول ويحق القول ويسد الباب ويحق العذاب ويسترق بالكفر الرقاب ويحصل الفوت بسبب الازدياد، فإنكم إن لم تستعدوا فهم لكم بصدد الاستعداد والوقوف بالمرصاد، ولاتتكلوا على ما يخبركم به ضعفاء العقول من وفائهم باستمرار العهود...فإن ذلك كله مردود"(ورقة92أ_92 ب).

ب- مفهوم الجهاد :

إن المواجهة المباشرة مع الاحتلال الفرنسي التي دعا إليها التسولي تقتضي فيما تقتضيه _حسب رأيه_ فرض "الجهاد" كمبدإ وخيار لامحيد عنه تفرضه الظروف الوطنية والدولية، حيث تعرض الوطن للاغتصاب وتعرض أهله ودينهم للاستئصال .

لكل ما ذكر، أراد الفقيه التسولي ، من خلال خطبته وفتواه المذكورتين أن يساهم بنصيبه في الجهاد باعتبار مسؤليته كعالم، فقد اتفق العلماء على تحديد أربع وسائل،يتمكن المسلم بها من أن يؤدي فريضة الجهاد وهي :اللسان، والقلب ،واليد، والسيف.فمن واجب العالم إذالم يشارك بالسيف ، أن يشارك باللسان والقلم. وهذا حال العالم التسولي، الذي كان واعيا بمسؤليته وعارفا بمقاصد الجهاد ومعناه الفقهي ومدركا لمصير المتخلف عنه. ومما أورده في هذا الشأن في الفتوى والخطبة قوله: "لفقت خطبة مشتملة على التحريض على الاستعداد وعلى بعض أحكام الجهاد ...خروجا من قوله عليه الصلاة والسلام :إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله والعباد.ومن عهدة قوله تعالى "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس " ومن قوله تعالى "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات" الموجب ذلك كله لطرد الكاتم والإبعاد وامتثالا لقوله تعالى في كتابه الكريم

"وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا " ولقوله تعالى "يا أيها النبيء حرض المؤمنين على القتال " ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أحمد والطبراني :إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه" و ...عن علي رضي الله عنه قال : من حرض أخاه على الجهاد كان له أجره،وكان له في كل خطوة في ذلك عبادة سنة" (ورقة 90 ب_91أ). هذا عن إحساس التسولي بمسؤليته هو إزاء وطنه ومجتمعه الذي يمثله وينوب عنه .هذه المسؤلية التي تفرض عليه تحسيس الآخرين ، حكومة وعلماء وشعبا، بل وتحريضهم على الجهاد.كما فهمه هو واستلهمه من مصادر الفقه الإسلامي.

استعمل التسولي مصطلح" الجهاد " وحلل مفهومه اعتمادا على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والاجتهادات الفقهية واعتمادا على تجارب الأمة الإسلامية عبر تاريخها الوسيط والحديث إلى عهده.

إن لفظة "الجهاد" استعملها التسولي في خطابه مرادفة للفظة "القتال" و"الحرب" محافظا بذلك على معناها اللغوي والاصطلاحي عند أهل الفقه الإسلامي. فالجهاد مأخوذ من الجهد يعني الطاقة والمشقة، يقال جاهد يجاهد جهادا ومجاهدة، إذا استفرغ وسعه وعمل طاقته في مواجهة ومقاتلة العدو. والغاية منه إعلاء كلمة الله، ورفع رايةالحق، ومحاربة الباطل، وبذل النفس في مرضاة الله، ونشرالإسلام، دين الحق، ضدا على أهل الشرك والطغيان" باستفراغ الوسع وبذل الطاقة والجهد، بالعدة والاستعداد، ومباشرة الدفع ومعاودة القتال بحسب الإمكان"(ورقة 97 أ) . ومما نقله في خطابه حول مفهوم الجهاد أيضا قوله :"إن الله سبحانه أمرنا بالغلظة عليهم والتقوى وكثرة الاستعداد...قال جل من قائل :"إن تنصروا الله ينصركم" وقال " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " وقال :" قاتلوهم حتى لاتكون فتنة " وقال : " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم " وقال :" وقاتلوا المشركين كافة"(ورقة91ب _92 أ) . وفي تحذيره لأولياء الأمور من مغبة التكاسل والتهاون،وهو يبين مدلول الجهاد وأهمية فريضته يقول: "وإن لم تقاتلوهم قاتلوكم "(ورقة 91 ب) ويقول متسائلا: " فكيف لاتغيرون " (ورقة92 أ) ويزيد قائلا :" إن الله أمرنا بالذهاب إليهم وقتالهم في أراضيهم فكيف إن قدموا إل برنا هذا ؟"(ورقة 92 أ). والخطاب هذا يقصد به التسولي التحذير والإغراء على مجاهدة وقتال الفرنسيين المحتلين للقطرالجزائري الإسلامي إلى أن يتم دحرهم وردهم على أعقابهم .

ج - دور الحكام في الجهاد :

وقد حمل التسولي الأئمة _أي الحكام بمختلف ألقابهم:ملوك وسلاطين وأمراء _ مسؤولية الجهاد باعتبارهم أهل الحل والعقد في الدولة والمكلفون بالحرص على البلاد والعباد. وأورد نصوصا قرآنية وأحاديث نبوية تثبت صحة مذهبه، حسب النظرية السنية . فها هو يؤكد لهم ذلك بقوله :" فإنكم بهذه الأيات القرآنية المخاطبون وبالأحاديث المصطفية المقصودون، إذ بيدكم الحل والعقد والرعية في طوعكم"(ورقة92 أ). ويزيد

في تأكيده مع حثهم على الجهاد قائلا :" ثم إن النفير للجهاد، والذهاب إليه، المخاطب به ابتداء هو الإمام أي هو المخاطب بأن يعين طائفة من رعيته تذهب إليه"(ورقة 81ب). وما على الرعية إلا أن تمتثل لأمر السلطان وتخضع لسلطته مادام يقوم بواجبه. ومن أوجب الواجبات حماية بيضة الإسلام بسن فريضة الجهاد وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والحفاظ على مصالحها بتدبير رشيد لشؤونها .

وقد شدد التسولي، انطلاقا من نظرته السنية للحكم وواجبات الحكام ،على الجهاد ومقاتلة الكفار، وحثهم على عدم التماطل والتكاسل والخذلان، مع تأكيده على الرد السريع قبل أن يتفاقم الوضع ، إذ كتب في هذا الصدد مخاطبا الحكام، وهو، يقصد بهم هنا، الأمير عبد القادر الجزائري والسلطان عبد الرحمان ابن هشام : " فتنبهوا أيدكم الله فإنكم بهذه الآيات القرآنية المخاطبون، وبالأحاديث المصطفية المقصودون،إذ بيدكم الحل والعقد والرعية في طوعكم، فكيف بأمرها بالجهاد تبخلون وأنتم خلفاء الله في أرضه،فكيف لاتغيرون...وإذا لم تشمروا على ساق الجد في هذه البرهة ففي أي وقت تشمرون، وإذا لم تستعدوا في هذه الفسحة فمتى تستعدون؟"(ورقة 92 أ).

د - الدعوة إلى الوحدة :

وكأن التسولي في خطابه هذا،كان يعرف خطورة الوضع في المغرب وتفاقمه باحتلال فرنسا لقطر منه، ويتنبأ بجشع هذه الأخيرة وأنها تحذوها رغبة في توسيع مطامعها الإستعمارية حتى تشمل باقي المدن والقرى والأقطار ، مستحضرا ، بدون شك، تجربة المسلمين ببلاد الأندلس، كما استحضر، وهو يكتب ويفتي ويحاضر ويخطب، فتاوى الفقهاء الذين سبقوه إلى مثل هذه النوازل . لذلك اعتبر التسولي أن احتلال القطر الجزائري هو مرحلة وبداية سلسلة من الاحتلالات، لذلك وجب قتال الفرنسيين ودحرهم وإخراجهم من بلاد المسلمين . وقد اعتمد في تحليله للجهاد على مبدإ "الوحدة " المفروضة بين المسلمين ، والتي تجعل الجهاد فرضا على جميع المسلمين أينما كانوا أوحلوا. وفي حال عدم تمكن أهل البلد المحتل قيادة وشعبا، من المقاومة وطرد المحتل، فالجهاد يصبح وجوبا على من والاهم من بلاد الإسلام، بل يصبح فرض عين بعد أن كان فرض كفاية : " فالجهاد فريضة عين على من نزل بهم عدو الدين، فإن لم تكن فيهم كفاية، أو لم تجمع لهم كلمة، فعلى الذين يلونهم، وهكذا إلى أن تحصل الكفاية، ولو اتصل ذلك من مثل المغرب لبغداد، أوعم ذلك من الأفاق الحاضر والباد "(ورقة 92 أ). ويزيد التسولي في الشرح والاستفاضة في موضوع من يجب عليه الجهاد، إذا تعذر على أهل البلد المحتل، وهو يقصد بذلك أهل الجزائر، حكومة وشعبا، بقوله : " إذا نزل عدو الدين بأرض الإسلام أو قريبا منها و مريدا للدخول إليها، فإن الجهاد يكون فرض عين حينئذ، على أهل ذلك البلد، وعلى إمامهم شيوخا وشبانا، أحرارا وعبيدا، بل وإن على امرأة إن كانت لها قوة، ولايتوقف قتالهم للعدو النازل على مشورة الإمام، ولاسيما إن بعد منهم، بل وإن

لم يكن لهم إمام تعين عليهم مدافعته ونصب الإمام، فإن لم يقدر أهل ذلك البلد مع إمـــامهم على مقاومة العدو وتعين على أقرب الأئمة إليهم وعلى رعيته أن يعينهم، فإن لم تكن فيـــه كفاية ومقاومة أيضا، وجب على من والاهم، وهكذا حتى يأتي الوجوب منسحبا على جميع المسلمين بقطر الجزائر مثلا، حيث لم يقدر على دفعه لعدم من يـــضبط كلمـــتهم، أولعـــدم وجود القوة فيهم، بدليل أنه يتردد العدو إليهم، ويأخذ مدائنهم شيئا فشيئا، فإنه يجـــب علـــى من والاهم من أئمة المشرق وأئمة المغرب إلى سوس الأقصى وإلى بغـــداد وإلـــى الهنـــد "(ورقة 95أ). والتسولي بهذا الإفتاء يعطي للسلطان المغربي شرعية وجوب التدخل فـــي القطر الجزائري من أجل نصرة أهله واسترجاعه من يد الاغتصاب الفرنـــسي وبالتـــالي تحقيق الاستقلال الذي هو من الأهداف الأساسية من الجهاد. لكن هل فكر التـــسولي فـــي إمكان تحقيق هذا الهدف المنشود فـــي ظـــل ظـــروف المغـــرب ووضـــعيته العـــسكرية والاقتصادية ؟. الجواب على مثل هذا السؤال يتطلب معرفة دقيقة بإمكانيـــات المـــستعمر الفرنسي وخططه الحربية وتقنياته التكنولوجية ومقارنتها مع الإمكانيات المغربية. وهذا ما كان يعوز الفقيه التسولي وثلة من فقهاء عصره. الشئ الذي جعله يكون متحمسا لخـــوض الحرب مشددا عليها في خطابه، يحدوه أمل النصر على" أعـــداء الـــدين" وإعـــلاء كلمـــة الإسلام في ظل سيادة دولة الإسلام حرة ومستقلة.

أعاد التسولي إنتاج مفهوم الجهاد استنادا إلى كتب الفقه الإسلامي التـــي رأى فيهـــا تعضيدا لمذهبه في الموضوع. وكان لزاما عليه وهو يعالج شروط الجهاد أن يتمثـــل آراء واجتهادات أصحاب هذه الكتب، ويعيد إنتاجها، بألفاظها وجملها بـــدون تمييـــز للفـــوارق الزمنية وما استحدث في شؤون الجيش والحرب والسياسة..الخ، وإن كانت أفكاره أفكـــارا جدية وجريئة وحماسية تعبر عن غيرة دينية ووطنية قومية إسلامية.

ه - الاستعداد وأدابه :

ولكي يكون الجهاد شاملا في مفهومه ومنسجما مع النظرة الفقهية السنية المعتمـــدة، وضع التسولي شروطا لهذا الجهاد من أهمها الآستعداد.

والاستعداد، هو نفسه يخضع في هذه النظرة، إلى أداب يجب عل المستعد أن يتحلـــى بهـــا ويعمل بها، ويمكن اعتبارها من التهئ المعنوي أو التربية الحربية المعنوية قبل الخـــوض في التربية الحربية المادية والمباشرة. ومن هذه الأداب يذكر التسولي :

– العمل الصالح : وهو أول خطوة يقوم بها المستعد للحرب فـــي إطـــار التربيـــة الروحية المعنوية يقول التسولي في هـــذا الـــصدد : ينبغـــي للإمـــام قبـــل الاســـتنفار أن يأمرهم_أي المقاتلون_ بتقديم عمل صالح من صدقة أوصيام، ورد مظلمة، وصلة رحـــم .كما كان يفعل عمر رضي الله عنه، ويقول :" إنما تقاتلون بأعمالكم"(ورقة 82 ب).

– الصبر : هو من أداب الاستعداد التي ينبغي أن تتفر في خصال المستعد. وقـــد استظهر التسولي بآيات قرآنية تثبت قيمة الصبر وقرنه بالنصر، حيث يقول :" ثم اعلـــم ،

أن الله تعالى قرن النصر بالصبر،فقال تعالى :" إن يكن منكم عشرون صابرون " وقال :"وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا" وقال :"ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فثبتوا "الآية.وقال :"واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين" (ورقة 82 ب).

– الشجاعة : من الصفات الأساسية التي تتطلبها الوظيفة العسكرية والاستعداد الحربي، فلا نصر إلا بالشجاعة والبطولة . و لهذا يرى التسولي بأنه يجب على الإمام (الحاكم) أن لايستنفر للحرب إلا من ظهرت عليه صفة الشجاعة والإقدام ، وإذا تعذر ذلك، فليحرص على الإكثار منهم " لأنهم المتصفون بالصبر للقتال"(ورقة 83 أ) وينصح التسولي الحاكم بأن يعاملهم معاملة خاصة تتناسب ونشاطهم الحربي ودورهم في الجيش إذ يقول حول نوعية هذه المعاملة : " ويقربهم إليه بالمنزلة والمكانة ويدس إليهم،ويعدهم وعدا جميلا، ويقوي أطماعهم، في أن ينالوا، ما عنده من الهبات الفاخرة والولايات السنية، ويجعلهم مقدمة الجيش"(ورقة 83 أ). وقد استطرد التسولي في نقل الأخبار التاريخية من تاريخ الإسلام في المشرق العربي والمغرب للتدليل على قيمة خصلتي الشجاعة والصبر وضرورتهما في الحرب حتى أنه قرنهما بالنصر المبين.

و - تعلم الحرب والتدرب عليها :

ولم يستثن التسولي من خطابه حول أداب الحرب /الجهاد الإشارة إلى أهمية تعلم الحروب والتدرب عليها. لذلك نجده قد حث الأمراء الحكام على تعليم رعيتها فنون الحرب بقوله نقلا عن الطرطوشي :" ولذا قالوا :يجب على الإمام أن يهتم بأمور الجهاد فيأمر كل قبيلة، بتعلم الحروب والتدريب، وإن رأى أن يعين من كل قبيلة مائة أوأكثر تتعلم الحروب والتدريب مهيئة نفسها لكلمة الأمير.وتكون تلك المائة من الوجوه الذين لايولون بالأدبار،وعند كل خمسة أشهر أونحوها يأمرهم بالضرب بين يديه بمرأى منه، فمن رأى منهم كثير الإصابة والتدريب، أحسن إليه وقربه لديه" (ورقة 83 أ). ولم يكن قصده مصروفا للقبائل فحسب، وإنما لأجهزة الدولة ككل، وفي مقدمتها المؤسسة السلطانية التي لها اختصاصات تكوين الجيش . لذلك فالمخاطب ابتداء وانتهاء في هذه الفتوى إنما هو السلطان.

ومن أداب الحرب أيضا، والتي تدخل في إطار التربية الحربية المعنوية والتي يتزود بها طلبة المدارس العسكرية، تخصيص أساتذة للفيالق العسكرية يقومون بتشجيع الجيش ورفع معنوياتهم القتالية وبث في نفوسهم الروح الدينية والغيرة الوطنية القومية الإسلامية وذلك بتدريس وقراءة كتب الأحاديث، وكتب الغزوات والفتوحات يقول التسولي في هذا الصدد :" ينبغي أيضا أن يكثر _أمير الجيش _في مجلسه من قراءة الأحاديث الواردة في فضائل الجهاد وأنواعه وقراءة كتب الغزوات ووقائع العرب وأيامها وفتوحات المسلمين ومنازلات الأبطال ومعارك الشجعان من الصبر الشديد والإنغماس في العدو

الكثير فيوكل الطلبة بأن يقرأوا ذلك في كل طائفة من جيوشه، فإن ذلك يقوي قلـــوب ذوي الإيمان، ويذهب بالضعف من قلب الجبان "(ورقة 86 أ).

ز - توفير الإمكانيات المادية :

ومن شروط الحرب أو الجهاد التي اعتبرها التسولي من الوسائل الواجب توفرهـــا في الجيش _ وهي تدخل في إطار الاستعداد _ توفير الإمكانيات المادية من عـــدة وآلات وأجهزة وتقنيات. وقد أوردها بأسلوب غير مباشر ضمن موضوع "فيما يجب على الإمـــام من إجبار الرعية على الاستعداد" حيث كان بصدد شرح واجبات الإمام حـــسب ماتمليـــه عليه أحكام الكتاب والسنة منها : تدبير الأمر بحسن الاستعداد، مستندا في ذلك إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء. ومن ذلك قوله :" قال العلماء أيضا حسبما فـــي أواخر شرح نظم بيوع ابن جماعة، ونقله غير واحد مـــا نـــصه:" مـــن البـــدع المحرمـــة التواطؤعلى عدم اقتناء الخيول لأهل القدرة واكتساب أنواع العدة، وتعلم الرماية التي بهـــا يسير الرجل ويصول، وترك التحصين والتجفين على ثغور المؤمنين، قال تعالى:"وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة".والتجفين والتحصين من العدة "انتهى.فإن في الكشاف من قوة،أي من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها، وعن عقبة ابن عـــامر: سـمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : ألا إن القوة الرمي.قالها ثلاثا،أي يـــتعلم الإصـــابة في الرمي،ومات عقبة هذا عن سبعين قوسا.وعن عكرمة هي الحصون، أي القـــوة هـــي تحصين الحصون في التجفين وغيره ...قال الإمام الطرطوشي قوله تعالى :"ما استطعتم"، مشتمل على ما في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة.انتهى "(ورقة 89 أ).

وفي إطار شرحه لواجبات الإمام في الإستعداد أيضا،والتحـــريض عليـــه وتبيـــان أهمية العدة وآلات الحرب في أية عملية جهادية يكون فيها الإمام قطـــب رحاهـــا وعليـــه المدار،يقول التسولي : " قال تعالى : ياأيهـــا النبـــئ حـــرض المـــؤمنين علـــى القتـــال". والتحريض المبالغة في الحرب على الأمر، ولاقتال ولا غلظة ولا علو إلا بآلة واســتعداد. فيجب عليه_أي الأمير_أن يأمر أهل القدرة باقتناء الخيـــول وتعلـــم الرمايـــة، ويفـــرض الإدالات على القبائل والتجفين على الثغور والحصون...ويكثر من المهـــراز والأنفـــاض والبنب وغير ذلك من آلات الحرب، ويأمرهم بالضرب بالأنفاض والمهراز والنبال وغيـــر ذلك بين يديه كما مر في الفصل الثاني من المسألة الثانية، ليعلم النجيـــب مـــنهم فيكرمـــه وغيره فيهنيه"(ورقة 90 أ).

ح - استعمال الإعلام والحيل :

ولم يفت التسولي التذكير في خطابه التنظيري الفقهي السياسي العـــسكري، بأهميـــة استعمال الإعلام، والمكايد، والحيل، والكمائن في الحرب . وهي أيضا، مـــن العناصـــر الأساسية في أداب الحرب. ولتبيان هذه الأهمية، ساق التسولي وقائع من تـــاريخ الإســـلام والفرس وأقوال الحكماء، اعتمادا على كتب الفقه والتاريخ. ومما قاله في هذا الشأن نقلا

عن ابن النحاس : " أهم ماينبغي لصاحب الجيش، قبل القتال، أن يبث الجواسيس الثقات عنده، في عسكر عدوه ليعرف أخبارهم، وما عندهم من العدد والبلادات، ويحرز أعدادهم، ويبحث عن أسماء رؤسائهم وشجعانهم، ويدس إليهم، ويخدعهم بما تميل إليه أطماعهم، ليغدروا بصاحبهم أو يعتزلوه وقت القتال، ويكتب أخبارا مزورة تطابق ما وصل إليه من الجواسيس، ويطرحها في جيش عدوه على مايقتضيه الحال " (ورقة 85 أ) . وغرض التسولي من ذلك فضلا عن ماسبق ذكره، تنبيه الأمير، إلى عبر التاريخ ووجوب الأخذ بها في هذا الحال العصيب من تاريخ المغرب. وهو يعرف مقدار احتياج المغرب من مثل هذه الوسائل الإعلامية و الجواسيس والحيل وغيرها في وقت تكالب الاستعمار وتفوقه في هذه المجالات كلها.

لقد مر بنا في هذا العرض، كيف نظر التسولي للجهاد. منطلقا في تحليله من المنظور الإسلامي مستلهما في ذلك القرآن والسنة واجتهاد الفقهاء والوقائع التاريخية الإسلامية والفارسية. فأسس بذلك مفهوما إسلاميا تقليديا للجهاد والحرب. فإذا كان هذا المفهوم التأصيلي قد احتوى على نظريات كان بإمكانها ،من دون شك أن تخلف آثارا إيجابية_ باعتبار قناعة المجتمع المسلم الذي ينتمي إليه الجيش _ في أداب الحرب خاصة فيما يتعلق بالأمورالمعنوية الروحية الدينية مثل أداب "العمل الصالح" و"الصبر "و"الشجاعة" و"الدعوة إلى الوحدة"وغيرها من الأداب التي من شأنها أن ترفع معنويات الجيش، فإن هذا المفهوم احتوى على نظريات أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها تقليدية بالية ليس فيها من الإبداع مايذكر. و ذلك بحكم ارتهانها إلى الماضي وتجربة الماضي فيما يخص التنظير للعدة أوالتجهيزات العسكرية أوفيما يخص بعض الأساليب القتالية. وكأن التسولي لم يلاحظ الفوارق الزمنية التي ميزت التطور الحاصل في تقنيات الحرب وعدتها وطرقها والآلات المستعملة فيها. لذلك وجدناه يكرر نفس الكلام الذي قيل منذ قرون وقرون. بدون تحفظ أو ارتياب. بل أبدى نظريته ومواقفه بكل أمل وإصرار وعزيمة واندفاع . فشدد على الحكام بالإسراع في إعلان الحرب ضد فرنسا قبل أن يشتد الخطب ويعسر الفتق على الرتق . وهذا الموقف من الحرب يناقض موقف السلطان عبدالرحمان بن هشام في المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر(1246 ه/1830م)، الذي كان يميل إلى الحياد والتريث، كما أوضحناه في العرض السابق.

وكان التسولي بنظرياته ومواقفه الجريئة هذه من المفكرين السباقين إلى بعث مفهوم الحركات الاستقلالية في المغرب الكبير، بل والمشاركين فيها بامتياز. مما جعل الأستاذ الباحث الكبير محمد المنوني رحمه الله، يقول في حقه منوها بتأليفه _الذي يقصد به الفتوى المذكورة_ :"هذا التأليف الذي يعد أول مظهر لليقظة الوطنية بالمغرب الحديث"[1].

[1]. محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة ، 1392هـ/ 1973م ، الجزء الأول ، صفحة 18.

وقد خول له ذلك موقعه كعالم مفتي وقاضـي أحكـام، ووعييـه بمسـؤليته إزاء وطنـه ومجتمعه، وإدراكه بما ينبغي أن يكون عليه عالم وقته، من واجبه في إسـداء النـصيحة إلى أولياء الأمور والرعية ، من أجل إعادة بناء المغـرب الكبيـر، فـي إطـار الوحـدة الإسلامية التي تدعو إليها الشريعة المحمدية، والتي بقيت مجرد نظرية مـن النظريـات، التي طالب ويطالب بها الفقهاء في مشرق البلاد الإسلامية وغربها، بدون أن تتحقق علـى أرض الواقع في ظل الاستقلال، وما بالك في ظل الهيمنة الغربية، على الـبلاد المغربيـة، التي عاشها الفقيه التسولي في أواسط القرن الثالث عشر الهجري موافق الثلاثينـات مـن القرن التاسع عشر الميلادي.

(يتبع)

Héraklès au détroit de Gibraltar : Mythes et réalités géo-historiques

Mohcine Cheddad

A travers une série des récits légendaires faisant référence aux premiers épisodes de l'Histoire de la région du détroit de Gibraltar, notre approche vise à étudier un dossier comportant plusieurs niveaux d'explications. Certes, le rapport entre la mythologie et les événements historiques pose un problème délicat, voir même parfois insoluble. Nous notons que même quelques-uns des auteurs anciens ne dissimulaient pas leur méfiance à l'égard des légendes allant au-delà de l'imaginaire[1]. Bien que nous partageons ce même avis, nous sommes convaincus que les mythes servent à éclaircir mieux la pensée des Anciens, à nous faire comprendre le rapport de force entre les divers protagonistes et surtout à poursuivre le processus d'acculturation des sociétés indigènes. En effet, il est légitime de se demander pourquoi cette contrée aux confins du monde antique représentait-elle un espace propice à la diffusion des récits mythiques et à l'implantation de ce genre d'écrits ? La plupart de ces récits sont d'origine grecque, contenant parfois des éléments qui proviennent certainement des traditions sémites et locales. Reconstruire les étapes obscures du passé lointain de cette région nécessite l'apport et la complémentarité de plusieurs disciplines, compris celle de la mythologie[2].

Nous nous contentons ici d'examiner surtout les textes relatifs aux exploits que le héros grec Héraklès accomplit dans la région du détroit de Gibraltar. Il serait aussi instructif de les compléter par l'étude des pièces

[1] Cette constatation se vérifie par exemple à travers les témoignages de MACROBE, *Les Saturnales*, V, XXI, 19 : après avoir relaté un curieux récit, il conclut "... que tout cela me paraît plus voisin de la légende que de l'histoire" et de PLINE L'ANCIEN, *Histoire Naturelle*, V, 31 : après avoir localisé le mythe des Hespérides à deux endroits différents -au Maroc et en Libye-, l'auteur ajoute que "les fables de la Grèce sont vagabondes".

[2] Parmi les études concernant ce thème, nous signalons :
- C. BONNET-TZAVELLAS, *Melqart. Cultes et mythes de l'Héraclès tyrien en Méditerranée*, « Studia Phoenicia », VIII, 1988.
- C. JOURDAIN- ANNEQUIN, *Héraclès en Occident. Mythe et histoire*, « Dialogues d'Histoire Ancienne', 8, 1982, pp. 227- 282.
- ID., *Héraclès aux portes du soir. Mythe et histoire*, Annales littéraires de l'Université de Besançon, n° 402, Les Belles Lettres, Paris, 1989.
- L. LACROIX, *Héraclès, héros voyageur et civilisateur*, « Bulletin de la classe des lettres et sciences morales et politiques de l'académie royale de Belgique », 60, 1974, pp. 34- 59.

d'art telle la statuette découverte à Lixus représentant le combat entre Héraklès et Antée[3], les gravures monétaires, ...

Les mythographes grecs évoquent l'existence vers neuf mille ans avant J.-C. d'une île appelée « Atlantide » que l'on situe prés des Colonnes d'Héraklès. Selon le récit de Platon[4], elle était plus grande que la Libye et l'Asie réunies; le pouvoir très puissant de ses rois s'étendait sur un vaste territoire de l'Europe et de la Libye. L'auteur ajoute que cette île a disparu suite à de forts effondrements, tremblements de terre et inondations[5]. Le récit suscite naturellement l'étonnement à tel point que plusieurs modernes le considèrent comme une pure fiction. Mais, nous présumons que la disparition de cette île pourrait être une explication mythologique de l'apparition du détroit séparant les deux continents[6]. A cet égard, nous ne devons pas écarter la conception géographique des Anciens quant à la répartition des trois vieux continents et ses répercussions dans l'élaboration de ce mythe. L'expression « Atlantide » pourrait ainsi englober un espace géographique s'étendant sur une grande partie de la péninsule Ibérique et du nord-ouest de l'Afrique. Un autre passage d'Aristote pourrait aussi confirmer l'existence de cette île mystérieuse, si l'on veut bien supposer une relation entre la région des Colonnes et l'Inde[7].

Pour d'autres auteurs, "... c'est Héraklès en personne qui a séparé les monts formant jadis une chaîne continue, et qu'ainsi l'Océan, arrêté auparavant par la masse montagneuse, a eu accès aux terres qu'il submerge maintenant"[8]. La place du héros grec dans les fables intéressant ces parages

---

[3] Nous citons un dernier article en rapport avec ce thème :
- A. BALIL, *'Hercules y Anteo' y 'Teseo y Minautauro' en dos bronces de Lixus*, in I Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar (Ceuta, 1987), Madrid, 1989, pp. 865- 876.

[4] PLATON, *Timée*, 24- c 25 et *Critias*, 108 c.

[5] A propos de cette île, on peut consulter :
- A. ROUSSEAU- LIESSENS, *Les Clonnes d'Hercule et l'Atlantide*, Bruxelles, 1956.
- A. GARCÍA y BELLIDO, *La Atlántida*, « Atlántida », 1, 1963, pp. 461- 475.
- A. SCHULTEN, *Tartessos*, Colección Austral, n° 1471, Espasa- Calpe, Madrid, 1971 (en particulier, cap. X 'La Atlántida', p. 159- 183).
- L. GARCÍA IGLESIAS, *Deshespanizando un mito: la autoctonia de los Atenienses y el relato de la Atlántida*, « Historia Antigua », IV, 1974, pp. 7- 24.
- F. G. BURGUALETA MEZO, *El mito de la Atlántida y el Estrecho de Gibraltar*, in I Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar (Ceuta, 1987), Madrid, 1989, pp.643- 652.
- J. J. PRADO, *L'invasion de la Méditerranée par les peuples de l'Océan, XIII[e] siècle avant J.- C. Une réécriture de l'histoire antique*, Edition l'Harmattan, Paris, 1994. L'auteur utilise le mythe de l'Atlantide comme argument favorable à son hypothèse faisant des régions océaniques l'origine de certains peuples qui ont envahi une grande partie de la Méditerranée.

[6] L'apparition du détroit s'est effectuée suivant deux étapes dont la dernière remonte à l'époque pliocène.

[7] ARISTOTE, *De Caelo*, II, 14. Nous devons supposer que ce continent disparu se trouvait entre le détroit de Gibraltar et les Indes, très proches dans la conception géographique d'Aristote.

[8] POMPONIUS MELA, *Chorographie*, I, 5, 27.

est particulière. Ses exploits, sur la rive marocaine comme sur celle de la côte riveraine lui ont valu que son souvenir se perpétue en associant son nom au détroit pendant toute l'Antiquité. En effet, l'appellation grecque « Colonnes d'Héraklès » désigne les deux monts dominant l'entrée de ce bras de mer pour les navigateurs venant de l'est : Calpe (le rocher de Gibraltar) sur la rive septentrionale et Abila (le mont jbel Mouça) sur la rive méridionale[9]. L'historiographie classique consacre plusieurs récits à l'éloge de ce héros qui symbolise la puissance et l'énergie. Selon Isocrates : « Après ces exploits, il (Héraklès) établit les colonnes, trophée élevé sur les Barbares, souvenir de ses vertus et des dangers qu'il avait courus, limite fixé au territoire grec »[10].

Au demeurant, nous savons que cette expression n'est qu'une compilation du terme phénicien « Colonnes de Melqart » (Melqart est le dieu suprême de Tyr, il est aussi le patron des longs voyages maritimes et le garant du bon déroulement des transactions commerciales) et qu'elle traduit l'habileté des auteurs grecs à ensevelir la primauté et la suprématie des phéniciens dont les activités en Extrême Occident de la Méditerranée étaient florissantes au moins depuis le IX^{e} siècle avant J.-C[11]. Cette appellation servant à indiquer aux anciens marins un changement radical des conditions de navigation, confirme la pérennité des rapports entre les deux côtes du détroit et symbolise l'unité géographique de la région. L'échec des entreprises commerciales grecques -ou au moins leur faible présence- dans les régions aux limites du monde connu est compensée par la célébrité inégalable de leur héros Héraklès, fils du dieu souverain Zeus.

Nous trouvons l'écho de ces travaux héroïques -avec quelques variantes- chez certains auteurs arabes comme Al Edrîsî : « ... les choses leurs demeurèrent ainsi jusqu'à l'époque où Alexandre pénétra dans l'Espagne et apprit des habitants qu'ils étaient en guerre continuelle avec ceux de Sous. Ce prince fit venir des ingénieurs et des mineurs et leur indiqua le lieu où est actuellement le Détroit, mais dont le terrain était sec à cette époque ... »[12]. L'absence de toute précision chronologique reflète

---

[9] A l'Antiquité comme à nos jours encore, les avis sont partagés à propos de l'identification, de la localisation et de la signification de ces Colonnes, cf. :
- A. CHEDDAD, *Sur les traces des Colonnes d'Hercule*, « Al Masbahia », Revue de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Saïs- Fès, n° 3, 1999, pp. 12- 29.

[10] ISOCRATES, *Pilippe (V)*, 112; cf. aussi DIODORE DE SICILE, *Géographie historique*, IV, 18, 2 et ss.

[11] Outre les preuves archéologiques confirmant ce fait sur les deux rives du détroit, nous citons un texte de STRABON (*Géographie*, 2, 14) : "D'autre part, je le répète, ceux qui révélèrent l'existence de ces contrées, ce sont les Phéniciens. Ils s'emparèrent de la meilleure partie de l'Ibérie et de la Libye avant l'époque d'Homère et demeurèrent les maîtres de ces pays jusqu'à ce que les Romains ruinent leur hégémonie".

[12] EDRISI, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, trad. Par R. Dozy et M. J. de Goeje, E. J. Brill, Leiden, 1968, p. 198.

l'ancienneté des relations entre les populations des deux côtes riveraines. Les témoignages matériels prouvent que ces rapports remontent à l'époque paléolithique et qu'ils se sont intensifiés considérablement durant le néolithique[13]. D'autre part, quelques Modernes croient qu'au cours des époques glaciaires, la traversée du détroit s'effectuait à pieds ou à travers des moyens rudimentaires[14].

Suivant la légende la plus courante, le voyage d'Héraklès vers l'Extrême Occident s'intègre dans le cadre de la réalisation des douze travaux qu'Eurysthée[15] lui a imposé. Dans cette région inexplorée encore par les Grecs, Héraklès devait accomplir son dixième travail qui est la capture des bœufs de Gerion à l'île d'Erythie, mission qui sera suivie par un autre exploit qui est la prise des pommes d'or au jardin des Hespèrides. Pour la traversée du désert et un 'fleuve Océan', ce héros 'mi humain – mi dieu' a eu l'honneur d'emprunter le chariot d'or d'Hélios[16] auquel fait probablement allusion le texte de Macrobe[17].

Le plus ancien récit relatif au séjour d'Héraklès au sud de l'Espagne est celui d'Hésiode (IX[e] – VIII[e] siècle avant J. -C.), il mentionne le triomphe de ce héros exceptionnel sur le bouvier Gerion et l'enlèvement de ses troupeaux[18]. Cet exploit débute par l'élimination du berger Eurytion et de son chien Orthos. Plusieurs auteurs (Stésichore d'Himère, Hérodote, ...) s'accordent pour localiser ce mythe auprès de l'île Erytheia qui formait à côté de Kotinoussa et Antipolis l'ancien archipel gaditain. Le portrait de

---

[13] Nous citons deux articles :
- G. SOUVILLE, *Réflexions sur les relations entre l'Afrique et la péninsule Ibérique aux temps préhistoriques et protohistoriques*, in Homenaje al Prof. Martin Almagro Basch, I, Madrid, 1983, pp. 407- 415.
- E. GÓZABLES CRAVIOTO, *Influencias de Andalucia en la cerámica neolítica de Marruecos*, in Actas del I Congreso de Historia de Andalucía, I, Córdoba, 1983, pp. 63- 66.
[14] G. DE FRUTOS REYES, *Relaciones norte de Africa – sur de Hispania desde el siglo VIII a. C. hasta las guerras punicas*, in III Jornadas de Historia de Cádiz, Publicaciones de la Caja de Ahorros de Cádiz, 1984, pp. 115- 123.
[15] Eurysthée est le favori de la déesse Héra (sœur et épouse du dieu Zeus) qui a fait précipité sa naissance afin qu'il obtient, au détriment d'Héraklès, les privilèges que Zeus a promis pour le futur petit fils de Persée. Conscient de l'ascendance divine d'Héraklès, Eurysthée lui commande de réaliser les douze travaux. Cf.
- J. SCHMIDT, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Librairie Larousse, Paris, 1986, p. 123- 4.
Pour davantage de détails sur ces exploits et une ample bibliographie, cf. :
- *Dictionnaire des mythologies*, A- J : sous la direction de Y. BONNEFOY, Flammarion, Paris, 1981, p. 492- 6.
[16] Le dieu incarnant le soleil, il est aussi le serviteur de Zeus qui devrait chaque jour accomplir 'une course à travers les cieux' (*Dictionnaire de la mythologie .... Op. Cit.*, p. 143- 4.).
[17] MACROBE, *Les Saturnales*, V, XXI, 19. L'auteur rapporte qu'Héraklès réalisa son voyage maritime vers Erythie 'au moyen d'une coupe'.
[18] HESIODE, *Théogonie*, 287 et ss. 983 et ss.

Gerion[19] comme étant un monstre à trois têtes symbolise précisément cette réalité géographique. Le rôle de Cadix, l'une des premières fondations phéniciennes dans ces parages et ville importante durant l'époque romaine, était déterminant dans l'invention de ce mythe et dans sa diffusion dans le monde méditerranéen. A contrario, le savant allemand A. Schulten croit que ce mythe était transporté en Occident par les Phocéens et qu'il identifie Gerion avec le roi de Tartessos Theron -cité par Macrobe- qui a voulu s'emparer du trésor du temple d'Héraklès mais il fut miraculeusement refoulé par les navires gaditains[20]. Selon un autre récit de Justin[21], concernant des événements qui datent fort probablement du III^{e} siècle avant J. -C., on s'aperçoit qu'une intervention de Carthage s'est effectuée dans le but de défendre la ville de Cadix contre les attaques des peuples voisins. A la lumière de ce texte, Carthage semble être très préoccupée par la menace d'autres puissances qui agissaient éventuellement de concert avec les indigènes.

Il est à rappeler que la présence des Phocéens dans cette région était si considérable au début du VI^{e} siècle avant J. -C. Hérodote nous informe que les commerçants phocéens se sont liés d'amitié avec le roi tartessien Arganthanios (630 – 550 av. J. -C.) qui les a invité à s'établir définitivement dans son pays[22]. Ces rapports entre les éléments grecs et les sociétés

---

[19] Ce monstre régnait sur l'île Erythie et 'possédait des bœufs magnifiques ... Héraclès ... put s'emparer ainsi du troupeau et s'embarquer pour la Sicile avec son précieux butin' (*Dictionnaire de la mythologie..., Op. Cit.*, p. 133).
Pour comparer les multiples conclusions et interprétations, cf. :
- J. M. BLÁZQUEZ, *Gerión y otros mitos en Occidente*, in Fenicios, Griegos y Cartagineses en Occidente, Ediciones Catedra, Madrid, 1992, pp. 323- 348.
- D. PLACIDO, *Realidades arcaicas de los viajes miticos a Occidente*, « Gerión », 7, 1989, pp. 41- 51.

[20] MACROBE, *Les Saturnales*, I, 20, 12 : 'Théron, roi de l'Espagne Citérieure, poussé par le désir insensé de s'emparer du temple d'Hercule, équipa une flotte. Les habitants de Gadès vinrent à sa rencontre sur des vaisseaux de guerre. Le combat s'engagea et était encore indécis, quand, tout à coup, les vaisseaux du roi prirent la fuite, et, en même temps, furent embrasés subitement de feux qui les consument. Un très petit nombre d'ennemis survécut et fut fait prisonnier. Ils déclarèrent que des lions leurs étaient apparus dressés sur la proue des vaisseaux gaditains, et que tout à coup leurs navires avaient été brûlés par des rayons semblables à ceux que l'on représente autour de la tête du Soleil'.

[21] JUSTIN, *Abrégé des histoires philippiques de Trogue Pompée*, XLIV, 5, 1- 4 : 'Après la chute des royaumes d'Espagne, les Carthaginois firent la conquête de ce pays. Les Gaditains, suivant l'ordre qu'ils avaient reçu en songe, ayant transporté en Espagne, de la ville de Tyr, d'où les Carthaginois aussi sont originaires, le culte d'Hercule, y avaient fondé une ville. Jaloux de l'accroissement de cette nouvelle ville, les Espagnols du voisinage harcelaient les Gaditains. Les Carthaginois leur envoyèrent du secours comme à des parents. Leur expédition fut heureuse :ils vengèrent l'injustice faite aux Gaditains et par une injustice encore plus grande ils annexèrent à leur empire une grande partie du pays'. A propos de l'interprétation de ce texte, cf. :
- L. A. GARCÍA MORENO, *Justino 44, 4 y la historia interna de Tartessos*, « Archivo Español de Arqueología », 52, 1979, pp. 111- 130.

[22] HÉRODOTE, *Histoires*, I, 163.

indigènes au sud de l'Espagne sont également attestés par les découvertes archéologiques[23]. Outre l'augmentation des échanges commerciaux, ces rapports ont contribué certainement à l'évolution de plusieurs centres urbains. A ce propos, il importe aussi de mentionner un texte de Strabon suivant lequel la ville de Calpe était fondée par Héraklès et " qu'elle s'appelait dans l'Antiquité Héraclée"[24]. Par ailleurs, nous connaissons que sur la même baie d'Algésiras se trouve un établissent phénicien du VII^{e} siècle avant J. -C[25].

Nous estimons que la légende de Gerion implique un contexte local caractérisé par une civilisation agro-pastorale dont les influences culturelles orientales commençaient à peine à s'y introduire. Les personnages mythiques tels Habis, Gargoris et Arganthanios[26] traduisent une transition socio-économique de la communauté locale vers une organisation étatique basée sur un système monarchique en mesure de réaliser de considérables gains grâce à ses relations avec les négociants étrangers. Autrement, la mort d'Héraklès en Espagne[27] pourrait signifier l'échec des entreprises grecques dans ces parages. La légende ajoute que des fractions composant son armée, tels les Mèdes, les Perses et les Arméniens ont traversé alors le détroit pour aller s'installer en Afrique.

Si on se fie au récit de Pline l'Ancien, les Perses (peuple qui formera plus tard la tribu des *Pharusii*) faisaient partie du cortège accompagnant Héraklès « dans sa course vers les Hespèrides »[28]. Bien que ses dernières nymphes[29], aidées par un dragon[30] veillaient sur le jardin des pommes d'or,

---

[23] P. Cabrera Bonet, El comercio foceo en Huelva: cronología y fisonomía, « Huelva Arqueológica », X - XI, 3, 1988- 1989, pp. 41- 100.

[24] STRABON, *Géographie*, III, 1, 7.

[25] M. PELLICER, L. MENANTEAU y P. ROUUILLARD, *Para una metodologia de la localización de colonias fenicias en las costas ibéricas: El Cerro del Prado*, « Habis », 8, 1977, pp. 217- 251.

[26] – J. C. BERMEJO, *La función real en la metodología tartéssica.* Gargoris, Habis y Aristeo, « Habis », 9, 1978, pp. 215- 232.

- F. GASCO, *Gargoris y Habis. La leyenda de los origines de Tartessos*, , « Revista de Estudios Andaluces », 7, 1986, pp. 127- 146.

- F. JORDÁ CERDA, *Anotaciones marginales al mito de Gargoris y Habis*, in Homenaje a J. M. Blázquez, vol. II, Ediciones Clásicas, Madrid, 1994, pp. 271- 277.

- J. REMESAL, *Gerión, Habis y Arganthanios. Le peuplement protohistorique d'Andalousie*, « Caesarodunum », 13, 1978, pp. 194- 204.

[27] SALLUSTE, *La guerre de Iugurtha*, XVIII, 3 et ss.

[28] PLINE L'ANCIEN, *Histoire Naturelle*, V, 46. Nous citons aussi un récit de POMPONIUS MELA (*Chorographie*, III, 103) suivant lequel "les Pharusiens, autrefois riches du temps de l'expédition d'Hercule chez les Hespèrides".

[29] Les Hespèrides sont des filles de nuit ou des nymphes. Les pommes d'or sont le cadeau que la déesse Gaia (qui personnifie la Terre) a offert à Héra à l'occasion de son mariage avec le dieu Zeus. Jalouse des infidélités de ce dernier, Héra se venge en persécutant les enfants que le grand dieu engendre en s'accouplant avec des mortelles et parmi lesquels figure Héraklès (*Dictionnaire de la mythologie ...*, *Op. Cit.*, p. 155).

Héraklès, avec la complicité du géant Atlas, parvint à s'emparer des fruits magiques dont la signification la plus raisonnable serait la grande valeur des ressources naturelles de cette zone[31]. Son succès sur le géant indigène Antée[32] après un combat sanglant nous laisse présumer que ce domaine géographique était hostile aux explorateurs grecs. La raison n'est peut-être autre que la suprématie de leurs rivaux phéniciens et leur mainmise sur ce territoire. Le récit de Plutarque rapporte que Sertorius, le gouverneur romain en Espagne Citérieure, a pu fouiller vers l'an 79 avant J. -C. le tombeau d'Antée et trouva « un corps long de soixante coudées. Il en fait stupéfait et offrit un sacrifice, puis recouvrit de terre la dépouille. Il contribua ainsi à accroître le prestige et la renommée du géant ». D'autres auteurs signalent que Tanger et Lixus étaient fondées par ce même héros monstre qui avait un palais royal à Lixus[33]. A travers ces données, nous pouvons aussi conclure que l'implantation des étrangers au Maroc s'est réalisée après une lutte acharnée avec les indigènes -organisés sous le commandement d'un chef / prince- qui étaient très attachés à leur territoire. Par ailleurs, d'autres auteurs anciens situent les jardins des Hespèrides en Cyrénaïque, ce qui impliquerait probablement que leur localisation obéissait aux étapes de l'expansion grecque en Méditerranée occidentale[34].

Nous trouvons dans un autre récit rapporté suivant les dires des gens de Tanger que de l'union de Tingée -l'épouse du défunt Antée- et Héraklès naquit Sophax qui devint roi du pays et donna le nom de sa mère à la plus célèbre des villes du détroit de Gibraltar. Ensuite, poursuit le même récit, Diodore -le fils de Sophax- réussit à soumettre plusieurs peuples libyens en s'appuyant sur « une armée grecque d'Olbiens et de Mycéniens établis dans cette région par Héraklès »[35]. Quoique l'authenticité de ces récits soit

---

[30] Pour PLINE L'ANCIEN (*Histoire Naturelle*, V, 3), le dragon n'est en effet qu'une représentation allégorique aux sinuosités du fleuve qui s'achemine tout prés de Lixus.

[31] S. RIBICHINI, *Hercule à Lixus et le jardin des Hespérides*, in Lixus. Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine de Rabat (Larache, 1989). Ecole Française de Rome, 1992, pp. 131- 136. Voici l'une des conclusions de l'auteur : 'le jardin des Hespérides marque ainsi le passage de l'ambiguïté originaire de l'univers à la réalité du cosmos organisé par les dieux et rendu habitable par les efforts d'un héros qui est médiateur entre nature et culture, qui découvre les routes, fonde les villes et les dynasties' (p. 135).

[32] Antée est le fils de Gaia et de Poséidon. Le secret de son invincibilité est son contact permanent avec la terre. Héraklès le 'souleva ... et de ses mains puissantes l'étouffa' (*Dictionnaire de la mythologie...*, *Op. Cit.*, p. 40).

[33] PLUTARQUE, *Vie de Sertorius*, 9; ISIDORE DE SEVILLE, *Etymologies*, XV, 1, 74; POMPONIUS MELA, *Choroographie*, III, 106; STRABON, *Géographie*, XVII, 3, 8.

[34] J. DESANGES, *Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, Livre V, 1- 46*, Les Belles Lettres, Paris, 1980, p. 358 : '... les mythes grecs liés à l'Extrême-Occident se déplaçaient selon la notion que les Grecs se faisaient des confins du couchant'. Quant à POMPONIUS MELA (*Chorographie*, III, 100), il situe les Hespérides dans des îles qui correspondent probablement aux îles Canaries.

[35] PLUTARQUE, *Vie de Sertorius*, 8- 9.

douteuse, il est permis de les situer à l'époque où d'une part la confrontation entre Grecs et Sémites commençait à devenir de plus en plus farouche et d'autre part à l'époque où les premiers royaumes berbères commençaient à sortir de leur phase embryonnaire.

De ce panorama concernant l'univers magique des contes grecs, nous apercevons que ni la notion du temps ni celle de l'espace ne contribuent de façon efficace à distinguer entre des faits réels et ceux qui appartiennent au domaine de la fiction. Hérodote qui a vécu au V^{e} siècle avant J. -C. déclare que les connaissances des Grecs à propos des régions occidentales étaient encore modestes[36]. Cela n'empêche pas de considérer que ces récits fabuleux constituent le passage entre deux mondes différents, celui décrit par les narrateurs et celui vécu par la population indigène. Nous devons avoir à l'esprit que les légendes étaient le genre dominant de la pensée chez les Grecs et qu'elles reflètent les premiers contacts grecs avec cette région lointaine. Nous pouvons également croire que ces mythes reprennent plusieurs thèmes appartenant aux traditions orientales ou celtes. De surcroît, il n'y a point de doute que l'intérêt principal des explorateurs venant du bassin oriental de la Méditerranée consistait avant tout à mettre en valeur les richesses minières et les ressources naturelles qui ont fait la renommée de la région du Détroit pendant toute l'Antiquité. C'est à cette même période qu'on assiste à la genèse des premières dynasties locales, à la fondation de plusieurs villes et à un changement profond dans les structures économiques basées auparavant sur les exploitations agraires. L'historiographie classique et les témoignages archéologiques confirment l'existence des premiers rois maures à la fin du IV^{e} ou le début du III^{e} siècle avant J. -C[37]. L'intervention romaine dans les affaires africaines et hispaniques dès ce dernier siècle constitue un tournant crucial qui a ralenti le progrès politique des sociétés locales.

Les mythes interviennent en général pour donner des explications à des phénomènes naturelles qui surpassent la compréhension des Anciens ou pour combler des lacunes de la documentation. De surcroît, les récits dont nous avons mentionnés quelques-uns dénotent la conscience des historiens à propos du conflit opposant Phéniciens et Carthaginois aux Grecs. Depuis le VII^{e} siècle avant J. -C., la région du détroit de Gibraltar faisait partie des enjeux économiques des grandes puissances. La course vers Tartessos, ou l' 'el dorado' du monde antique poussait les concurrents à garder leurs routes

---

[36] HERODOTE, *Histoires*, III, 115.
Cf. aussi : - S. GSELL, *Connaissances géographiques des Grecs sur les côtes africaines de l'Océan*, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.
[37] F. DECRET / M. FANTAR, *L'Afrique du Nord dans l'Antiquité. Des origines au Ve siècle*, Payot, Paris, 1981, p. 70 et ss.

secrètes et inventer un certain nombre de fables afin de dérouter les ennemis. C'est dans ce contexte conflictuel qu'on doit aussi situer les récits poétiques de Pindare confirmant à plusieurs reprises l'impossibilité de franchir les Colonnes d'Héraklès par les marins grecs[38].

Bien que la chronologie et les tribulations géographiques du héros grec restent problématiques, nous croyons qu'elles ne présentent que peu d'intérêt par rapport aux diverses significations que nous avons tiré de l'ensemble de cette épopée mythique. En somme, elle décrit à la fois un paysage géographique uni, sombre et périlleux ainsi qu'une confrontation permanente entre Phénico-puniques et les Grecs puis les Romains qui nous empêche de poursuivre le processus historique des sociétés locales. C'est vrai que les légendes n'ont ni patrie ni époque précise, mais ils constituent toutefois un appréciable outil pour la compréhension de la réalité.

---

[38] PINDARE, *Néméennes*, III. 21-22: IV, 69; *Olympiques*, III. 43- 44 : 'Après elles, la voie est inaccessible aux hommes supérieurs aussi bien qu'au vulgaire'

Le quartier d'habitat maurétanien à Lixus

Mohammed Habibi

Les anciennes fouilles entreprises à Lixus dans les différents secteurs de la ville ont mis jour un important ensemble architectural remontant à l'époque pré-romaine. Elles n'ont malheureusement pas abouti à des publications d'ensemble satisfaisantes, que l'on est en droit d'attendre. Bien que l'accent ait été mis par M. Tarradell sur l'importance de ces vestiges, pourtant en bon état de conservation, et témoins précieux d'une époque encore mal connue de l'histoire du Maroc, ceux-ci sont restés presque inédits et n'ont bénéficié que de quelques descriptions succinctes([1]).

Les mêmes remarques à propos de données lacunaires et souvent incertaines que comportent les publications s'appliquent aux vestiges d'habitat maurétanien. Certaines fouilles inachevées ne permettent pas de définir la fonction des vestiges mis au jour. Comme nous le verrons, les incertitudes chronologiques en ce qui concerne les dates de construction et de destruction des vestiges maurétaniens constituent le problème majeur de cette époque.

a- Les constructions pré-romaines au nord :

Dégagées par M. Tarradell en 1954 dans un secteur partiellement fouillé, ces constructions sont situées dans le secteur Nord, au Nord du marabout "Sidi Ahmed Ghazal", à l'angle N-E de la ville (fig. 1).

C'est un groupe de pièces de forme rectangulaire allongées de direction Nord-sud. Les murs sont construits en pierres irrégulières sans mortier et sont conservés en une élévation moyenne d'un mètre. Ces constructions ont été trop incomplètement fouillées pour interpréter leur plan avec certitude. Il est cepandant possible que les pièces appartiennent à deux maisons voisines fouillées partiellement de chaque côté du mur qui les sépare.

La date de construction est dite "*incertaine*"([2]) par son auteur. Cependant, il la situe entre la fin du IIIème siècle et le début du II ème siècle avant J.-C. ([3]). Quand à la date de destruction, elle est fixée par M. Tarradell au début du Ier siècle après J.-C. - sous Claude - et matérialisée

---

[1] - M. Tarradell 1959a, p. 34-35:

[2] - M. Tarradell 1959a, p. 34-35

[3] - *Ibid.*

par la présence de la sigillée sud-Gauloise dans un niveau de destruction représentant des traces d'incendie([4]).

b - Le quartier d'habitats à l'ouest

Situé au Nord du quartier des temples, et au nord ouest de la ville (fig. 1; pl. 1). Il fut fouillé entre l'année 1948 et 1950 par M. Tarradell qui commença au Sud par dégager une villa romaine du IIème siècle après J.-C. : la maison de *Mars et Rhéa* . Au Nord du péristyle de la villa, à un niveau plus bas, une série de pièces de forme rectangulaire, antérieur à la maison de *Mars et Rhéa* ([5]), ont été récupérées par celle-ci et exploitées, en partie comme sous- sol de la maison. Trois de ces pièces, de forme rectangulaire, ont été converties en citernes et dotées d'un revêtement en mortier de tuileau. La fouille de cet ensemble architectural s'est achevée au Nord par la mise au jour d'une deuxième villa romaine qui s'y superpose : la maison d'*Hélios*.

Entre les deux maisons d'époque romaine est situé l'ensemble architecturale dont les murs, construits avec des moellons irréguliers et assemblés par un mortier de chaux ([6]), sont encore conservés en élévation (sur environ trois mètres). Il est séparé en deux parties par une ruelle qui donne accès à l'extérieur de l'enceinte Ouest de la ville par laquelle il est limité à l'ouest, et par des boutiques qui donnent sur une rue à l'est (pl.2).

Cet ensemble urbanistique pré-romain, *"d'un état de conservation unique au Maroc"* ([7]) est resté presque inédit. De chronologie incertaine, il n'a fait l'objet d'aucune description et n'a été que brièvement cité.

La démarche que nous avons suivi de l'interprétation chronologique est fondée sur l'étude et l'évolution des structures d'habitations et des sols associés, tout en tenant compte, quand cela est possible, des acquis des anciennes recherches et des nouvelles données matérielles.

Après examen détaillé des structures de l'ensemble des pièces situées au nord de la maison de Mars et Rhéa, nous avons constaté deux états de construction dont le deuxième, mieux connu, comporte trois phases.

Etat I

Un premier état antérieur au quartier actuel qu a comme témoins deux tronçons de murs qui ont subsisté et qui apparaissent dans certaines parties du quartier. En effet, un mur large de 1,25m. Parallèle à l'enceinte dite

---

[4] - *Ibid.*

[5] - La maison de Mars et Rhéa doivent cette dénomination actuelle à la mosaïque qui couvrait le sol d'une de ces pièces.

[6] - Les murs de l'ensemble étaient couverts d'un enduit stuqué et peint de motifs géométriques et végétaux de couleur rouge verte et jaune. Nous avons retrouvé plusieurs fragments en menus morceaux sur le sol: des traces de cet enduit restent encore dans quelques parties des murs.

[7] - M. Tarradell 1959a, p. 65.

« Héllénistique » se prolonge à fleur de sol dans la pièce **P7** et continue sous son mur au nord. Un deuxième mur est repéré dans la pièce **8** de la maison **M2** Il est secondaire par rapport au premier, large de 0,60 m. Ces deux murs, nettement antérieurs au quartier dans son état actuel, trahissent une occupation primitive, complètement arasée, et dont il est difficile, sur la bas des quelques données existantes, d'interpréter la fonction.

Etat II : (fig. 2 ; pl. 2)

Le deuxième état, faisant place au premier, est représenté par la construction du quartier tel qu'il fut exhumé et comprend trois phases

Ière phase : **La galerie A** :

C'est la phase initiale qui est indissociable de la construction de l'enceinte « Héllénistique » car elle forme avec elle un ensemble cohérent, ceinturé à l'Ouest par cette clôture en forme de crochet (fig. 2 ; pl. 2).

Cette phase se limite à la construction d'un grand bâtiment rectangulaire long de 40 m. et large de 12 m. Il est clôturé sur ces trois côtés (longueur Ouest et les deux largeurs Nord et sud) par la puissante muraille en blocs taillés, régulièrement assemblés et qui a été baptisée "enceinte Hellénistique" ([8]) (pl. 3 et 4).

L'aspect monumental de cette muraille composée de grand blocs soigneusement taillés et ajustés à sec (pl. 3 et 4), Lui a valu d'être identifiée par Ch. Tissot comme étant une partie de "l'enceinte phénicienne" de la ville ([9]). M. Tarradell, ayant effectué un sondage au pied de cette muraille confirme la date de sa construction de la fin du IIe siècle ou du début du Ier siècle avant J.-C. ([10]).

Le bâtiment **A** est à l'origine fermé par cette muraille sur toute la longueur Ouest et présentes deux portes d'accès sur les deux côtés nord et sud de la longueur est. Ces deux entrées mènent par un petit couloir (vestibule) à un corridor **C2** le long de la muraille à l'Ouest et sur lequel donnent à l'est les portes des trois pièces (**P7, P8, P9**). A droite de l'entrée au nord, sont flanquées sur toute la largeur, deux pièces (**P5, P6**) qui s'ouvrent sur le petit couloir et communiquent entre elles par une porte aménagée dans leur mur de séparation. A gauche de l'entrée au sud au bout du corridor **C2**, une pièce **P10** occupe toute la largeur du bâtiment (fig. 2).

C'est donc un bâtiment dont les accèss latéraux qui mènent au long corridor **C2** semblent être conçus pour faciliter la circulation à l'intérieur par un systhème d'entrée-sortie dans les deux sens. Les pièces qui s'ouvrent le long de ces passages, leur donnant l'aspect d'une galerie, nous amènent à

---

[8] - Voir à ce sujet E. Lenoir 1986 et E. Lenoir, Lixus 1992.

[9] - Ch. Tissot 1878, p. 207; H. De La Martinière, *Notice sur le Maroc*, fasc. tiré de *La grande encyclopédie*, Paris, 1897, p. 39, fig. 2.

[10] - M. Tarradell 1957, p. 197.

définir leur fonction comme étant des boutiques. Le monument aurait donc une vocation commerciale. Sur la base de cette même fonction il fut agrandi comme nous le verrons dans sa deuxième phase.

IIème phase (fig. 3)

C'est la phase d'agrandissement du batiment et de restructuration du quartier d'habitat dans son ensemble et qui semble obéir à un aménagement urbain de l'espace (axe d'organisation et de circulation) (pl. 4).

A cette phase le bâtiment est agrandi à l'Est et inclus dans ces nouvelles constructions qui, avec lui, dessinent sur le plan presque un carré (40m x 38m). Cette extension a vu la construction d'une unité urbaine, composée de deux maisons au centre (fig. 3 : **M1**, **M2**) et, au Nord, d'un corridor bordé à son côté nord de quatre boutiques (**P1**, **P2**, **P3**, **P4**) et d'une à son côté Sud (**P11**). La partie Sud-Est de cet ensemble a connu la construction, au–dessus, de la villa romaine de "Mars et Rhéa" et reste par conséquent inconnue.

Cet îlot semble représenter une unité urbanistique autonome dans le quartier d'habitat, fermée par ses propres murs externes. Celui du côté Ouest, limite la ville sur le haut de la colline et il fut conçu dès le départ comme un ouvrage défensif. La façade à l'Est est flanquée dans sa presque totalité de boutiques qui s'ouvrent sur une rue principale, de direction Nord-Sud, qui se prolonge au Nord dans la direction de la porte Nord de Lixus et limite à l'Est tout le quartier d'habitat . Près de l'angle Nord-Est de l'îlot, fut aménagé la porte d'accès qui ouvrait directement sur la rue. Au Nord, cet ensemble est séparé de l'autre bloc d'habitats par une rue secondaire large d'environ 3 m., perpendiculaire à la rue principale avec laquelle elle communique à l'Est et mène du côté Ouest à une porte qui permet un accès à la ville. La partie Sud-est ensevelie sous la maison de "Mars et Rhéa" constitue actuellement la limite fouillée du quartier d'habitat (fig. 4).
L'entrée de cet ensemble de construction est marquée par un seuil à l'extrémité nord de la façade long de 1m 30, large de 0, 60m et qui ne présente qu'une seule crapaudine pour le gond d'une porte (fig. 4). Le niveau intérieur du sol est plus bas de 0,70 m. L'accès se fait donc par trois marches d'escalier avant de pénétrer dans une longue galerie Est-Ouest **G** (long. : 25, 5 m. larg. : 3 m.) qui mène à l'Ouest à la porte nord de la galerie **A**. Sur cette galerie **G** s'ouvrent cinq boutiques de différentes dimensions : quatre du côté Nord (**P1**; **P2**; **P3**; **P4**) et une seule du côté Sud **P11**. Sur ce dernier côté à gauche de l'entrée, s'ouvrent trois portes (larg. : 1 m.) d'accès à une grande salle (**6**) légèrement trapézoïdale de 8,60 m. x 4,50 m. x 4 m.. Elle communique à l'intérieur, par une porte aménagée dans son mur sud, avec la maison **M1**.

d - La maison M1 (fig. 4) :

La pièce (**6**) qui s'ouvre par trois portes sur la galerie **G** tout en communiquant avec la maison **M1** par l'intérieur, aurait servi aussi de boutique qui serait gérée par les propriétaires de la maison. La maison est d'un plan symétrique d'un axe Est-Ouest de forme rectangulaire (12 m. x 9, 5 m.). Elle comprend au fond à l'Ouest une salle (**4**) rectangulaire de 10 m. x 5,5 m. allongée sur toute la largeur. Elle est ouverte à l'origine par une seule porte au milieu de son mur est et donne face à un couloir (**5**) formé par deux murs qui mène, sous forme d'une cage d'escalier ([11]), vers la pièce (**2**) à l'est. Cette petite pièce rectangulaire de 1,8 m. x 4 m. dont les murs conservent une hauteur de 1,70 m., ne présente aucune porte d'accès ce qui nous amène à définir sa fonction comme étant un entrepôt (grenier ou silo) ouvert par le haut et auquel on accédait par le couloir (**5**) à l'aide d'un escalier ou d'une échelle. L'entrepôt à l'intérieur de la maison serait probablement en relation avec la salle **6** qui serais une boutique et qui communique avec la maison et s'ouvre en même temps sur la galerie **G**. De part et d'autre du couloir **5** deux grandes pièces, (**3**) au Nord et (**1**) au Sud, communiquent entre elles par un passage laissé entre la porte de la salle **4** et le couloir **5**.

e - La maison M2 (fig. 4) :

De plan carré, la maison **M2** est située à l'Ouest de **M1** à laquelle elle est liée. La construction des deux maisons fut donc conçue au même moment.

L'entrée de la maison se faisait du côté Sud par une porte qui a été tardivement murée et mène au vestibule (**2**). Il communique à l'est avec une pièce rectangulaire (**1**) et au nord avec une petite pièce carrée (**3**). Celle-ci s'ouvre au nord sur une grande pièce rectangulaire qui occupe toute la largeur Nord de la maison et qui est cloisonnée par deux murs pour en faire trois pièces (**4**, **5** et **6**). De la pièce (**1**) au sud on accède à une petite pièce rectangulaire à l'Est (**7**), qui communique avec la pièce d'eau (**8**) ([12]) au centre de la maison (probablement à ciel ouvert) servant comme puits de lumière pour la maison.

---

[11] - Cette supposition est valable pour ce couloir dans sa première phase de construction, car les deux murs du couloir continuaient jusqu'au mur ouest de la pièce **2** (voir fig.) Avec lequel ils étaient liés. Cependant, des transformations tardives ont supprimé une partie du côté ouest du couloir (en pointillés sur le plan).

[12] 9 - Nous avons observé les traces d'une canalisation au centre de la pièce **8** de direction Est-Ouest.

IIème phase :

C'est la dernière phase d'occupation de cette unité. Elle est mise en évidence par quelques remaniements et modifications observés dans ses structures.

Dans la galerie commerciale **A** (état I) les portes de deux boutiques (**P7** et **P8**), larges au départ de 3 m. sont devenues plus étroites par des rajouts de murs (**P7** : 1,50 m; **P8** : 1,20 m.).

La pièce **4** de la maison **M1** s'ouvre sur la pièce **1** par une deuxième porte aménagée au mur Est. Les deux mur du couloir **5** (à l'origine continuaient jusqu'à la pièce **2**) ont été rétrécis du côté du mur Ouest de la pièce **2**, créant ainsi un passage qui permet au deux pièces **1** et **3** de communiquer à l'est comme à l'ouest

La lecture du plan de cette unité urbaine dénote comme nous le constatons, le caractère socio-économique du quartier en général, et de l'îlot en particulier. C'est un ensemble clos de galeries commerciales ([13]) associées à des habitats. La face extérieure de cet ensemble, à la limite ouest de la ville, est fortifiée, car elle avait une double fonction d'enceinte et de façade. Tandis que la face qui donne sur l'intérieur de la ville, est flanquée de boutiques qui s'ouvrent sur une rue (axe principale N.-S.) qui rejoint en ligne droite la porte nord de la ville. Une autre rue, secondaire par rapport à la première, et qui lui est perpendiculaire, sépare cette unité urbanistique de celle au nord (fig. 5).

L'impression qui ressort devant ces îlots ou *"insulae"*, bien que le quartier a été incomplètement fouillé, est celle d'un schéma directeur concerté comportant des axes d'organisation et de circulation : une voie principale de direction N.-S. divise le quartier en deux ailes ([14]), composées de plusieurs unités (îlots) séparées entre elles par des voies secondaires (fig.5).

L'enceinte dite Hellénistique n'est autre que le mur ouest de l'îlot, donnant sur l'extérieur de la ville à la limite du plateau sur le haut de la colline. Il a été construit en blocs de pierres plus lourdes car on lui voulait un deuxième rôle défensif.

Par ailleurs, les maisons **M1** et **M2** présentent, contrairement au "type" de maisons pré-romaines connues en Mauritanie occidentale ([15]), un

---

[13] - Il est probable qu'une troisième galerie au sud, sous la villa romaine de Mars et Rhéa, récupérée par celle-ci et utilisée comme sous-sol. Les deux maisons **M1** et **M2** semblent avoir été entourées de boutiques dont nous ne connaissons que les trois côtés; la galerie **A** à l'ouest, la galerie **G** au nord et les boutiques donnant sur la rue à l'est.

[14] - une deuxième aile à l'est de cette voie principale reste encore non fouillée.

[15] - La maison pré-romaine en Mauritanie occidentale est généralement décrite comme étant de plan rectangulaire, composée de chambres de même plan lié entre elle par de longs et étroits couloirs. cf. M. Tarradell 1959a, p. 34-35; J. Boube, *Document d'architecture maurétanienne au Maroc*, dans

plan axial et parfaitement symétrique pour la maison **M1**. Cette répartition qui s'ordonne autour d'un espace central intérieur, nous incite à la mettre en relation avec les anciennes traditions de la maison méditerranéenne que nous retrouvons ici, à Lixus, représentées dans le plan de ces deux maisons. La cour centrale se trouve ici réduite à un puits de lumière autour duquel s'ordonne le plan de la maison.

Nous ne pouvons donc pas parler de type de maison d'habitation maurétanienne, car il n'existe pas de modèle imposé spécifique pour telle ou telle époque. L'urbanisme de la ville à l'époque maurétanienne imbrique des survivances de cultures matérielles et résulte d'un compromis entre une ancienne tradition phénicienne hellénisée par la suite à l'époque punico-maurétanienne, et à laquelle s'ajoute des influences locales.

Chronologie :

M. Tarradell, auteur de la fouille de ce secteur d'habitat datat avec incertitude, du IIe siècle avant J.-C ([16]). C'est donc un quartier d'habitat d'époque maurétanienne. Cependant, la date de leur "destruction" n'est pas sûre :

"*Une destruction qui paraît correspondre aux années 40-42 de notre ère, jusqu'à la fin du Ier siècle après J.-C. et aussi jusqu'à un moment immédiatement antérieur à la construction de la maison de Mars et Rhéa*" (M. Tarradell, 1959a, p. 61).

On remarque que M. Tarradell propose deux dates de destruction pour le quartier : en 40-42, et à la fin du Ier siècle ou début du IIe siècle après J.-C.

- <u>40-42</u> : Date qui tire argument d'un texte et qui correspond bien avec la destruction qui aurait d'après l'auteur, affecté toute la ville pré-romaine et qui serait la traduction d'un fait historique connu (la révolte menée par Aedemon en Maurétanie-Tingitane après l'assassinat de Ptolémée par Caligula en 40 après J.-C.). Or, l'état de conservation de ces vestiges ne montre aucune trace de destruction violente. D'ailleurs la description donnée par l'auteur ([17]), ne fait pas état d'incendie repéré lors de la fouille de ce quartier. Seule une pièce sous la maison de Mars et Rhéa a révélée les traces d'incendie, mais qui paraissent bien limitées.

- <u>Fin du Ier siècle et début du IIème siècle après J.-C.</u> : deuxième date proposée du fait qu'il n'y a aucune rupture, ni couche intermédiaire entre la maison de "Mars et Rhéa" datée du IIème siècle après J.-C., et ces pièces (pl.).

BAM. 7, 1967, p. 252-255.
[16] - M. Tarradell, 1959a p. 61.
[17] - *Ibid.*, p. 61.

Donc nous constatons que la datation de la phase d'abandon de ce quartier pré-romain ne s'appuie sur aucune donnée matérielle solide. Elle est liée principalement au seul événement remarquable "la révolte d'Aedemon". Or, comme nous le constatons par ailleurs, beaucoup de "destructions" de monuments sont rattachées à des faits historiques sans être confirmées par des preuves archéologiques certaines.

La date de construction de ce quartier reste, d'après l'auteur, incertaine. Elle est tantôt datée du IIème siècle avant J.-C. ([18]), tantôt de la seconde moitié du Ier siècle avant J.-C. ([19]).

Cependant, après l'étude des structures de l'îlot nous pouvons proposer une chronologie du quartier à partir des états et des phases de construction observés *"in situ"* et sur la base des repères chronologiques acquis par les anciennes fouilles.

Le premier repère chronologique est la date de construction de la muraille à l'Ouest de cette unité. M. Tarradell qui a effectué un sondage au pied de cette muraille dite "hellénistique" la date de la fin du IIe siècle ou au début du Ier siècle avant J.-C. Or ([20]), comme nous l'avons constaté plus haut, la construction de la muraille Ouest est indissociable de la construction de la galerie à boutiques à laquelle ses structures sont adossées et qui représente la première phase du deuxième état. Nous pouvons donc conclure pour cette première phase du IIème état une même date de construction que celle connue de la muraille Ouest.

Quand au Ier état nous ne pouvons qu'affirmer qu'il est antérieur à la fin du IIe siècle avant J.-C.

M. Ponsich affirme que la ville de lixus a connu une première destruction au IIIe siècle avant J.-C. *"Une première mutation spectaculaire de Lixus est indiquée par un niveau constant de démolition et un réaménagement de tout l'urbanisme sur l'acropole lixitaine dès le IIIe siècle avant J.-C."* ([21]).

Y aurait-il un lien entre cette "mutation" et la destruction des constructions du Ier état du quartier d'habitat ?

La deuxième phase du IIème état est matérialisée par les nouvelles constructions à l'est, intégrant la galerie commerciale, et dont la construction parait être mise en rapport avec l'ensemble du quartier au nord

---

18 - *Ibid.*, p. 61

19 - M. Tarradell 1960a. p.164.

20 - M. Tarradell a isolé cinq niveaux du sondage de la muraille dite "Hellénistique". Le niveau IV, qui correspond d'après l'auteur à la construction de la muraille, est caractérisé par l'apparition de la céramique campanienne à vernis noir du type B qui s'ajoute au type A déjà présent dans le niveau V plus profond: cf. M. Tarradell 1959a, p. 59.

21 - M. Ponsich 1982a, p. 845.

(même orientation et prolongement en ligne droite du mur principal à l'est). A cette phase, le quartier d'habitat semble s'étendre sur un terrain bien réparti avec un réseau de rues régulier. La date de construction de cette phase est restée jusque là inconnue. L'auteur de la fouille a donné une date de construction du quartier d'habitat dans sa globalité, basée sur le sondage de la muraille ouest et que nous ne pouvons retenir, comme nous l'avons vu, que pour la partie qui est vraiment liée à celle-ci : la galerie commerciale (Ière phase). Or, pour dater la construction de cette deuxième phase, nous avons effectué un sondage sous le sol en mortier de tuileau de la pièce 6 qui semble appartenir à cette IIème phase ainsi que des prélèvements de matériel archéologique lié au mortier des murs. Parmi le matériel le plus récent recueilli sous le sol bétonné :

- Trois bords d'amphore de type Dressel 7-11
- Un bord d'amphore de type Dressel 1A.
- Un bord d'amphore de type Dressel 1C.
- Un bord d'amphore de type Dressel 2-4.
- Un bord en céramique à vernis noir (campanienne A) forme : 27 .
- Un fragment en céramique à paroi fine.
- Trois fragments en céramique commune.

Nous avons également recueilli dans le mortier de deux murs (mur nord de la maison **M2**, mur est de **P11**) des fragments de bord de Dressel 17-11. La présence de ce matériel archéologique tout en tenant compte du bord d'amphore de type Dressel 2-4 dont la production commence à la fin du Ier siècle avant J.-C. ([22]), autorise à situer la construction de cette deuxième phase dans la fin du Ier siècle avant J.-C. ou au tout début du Ier siècle après.

La troisième phase matérialisée, comme nous l'avons vu, par des rajouts de murs, des portes rétrécies, et d'autres ouvertes, est difficile à situer, et s'insère entre le début du Ier siècle après et la fin de celui-ci. Serait-elle la marque de la création de la province de Mauritanie Tingitane dans les années 40 ?

Quant à la date d'abandon de cet îlot et du quartier en général, elle semble être située juste avant la construction de la villa romaine de Mars et Rhéa.

---

[22] - Cette forme, assez rare au Maroc, a été trouvé dans les fouilles de Villeneuve et datée entre 20 et 5 avant J.-C.. Elle est également présente à Pompéi (avant 79 après J.-C.).

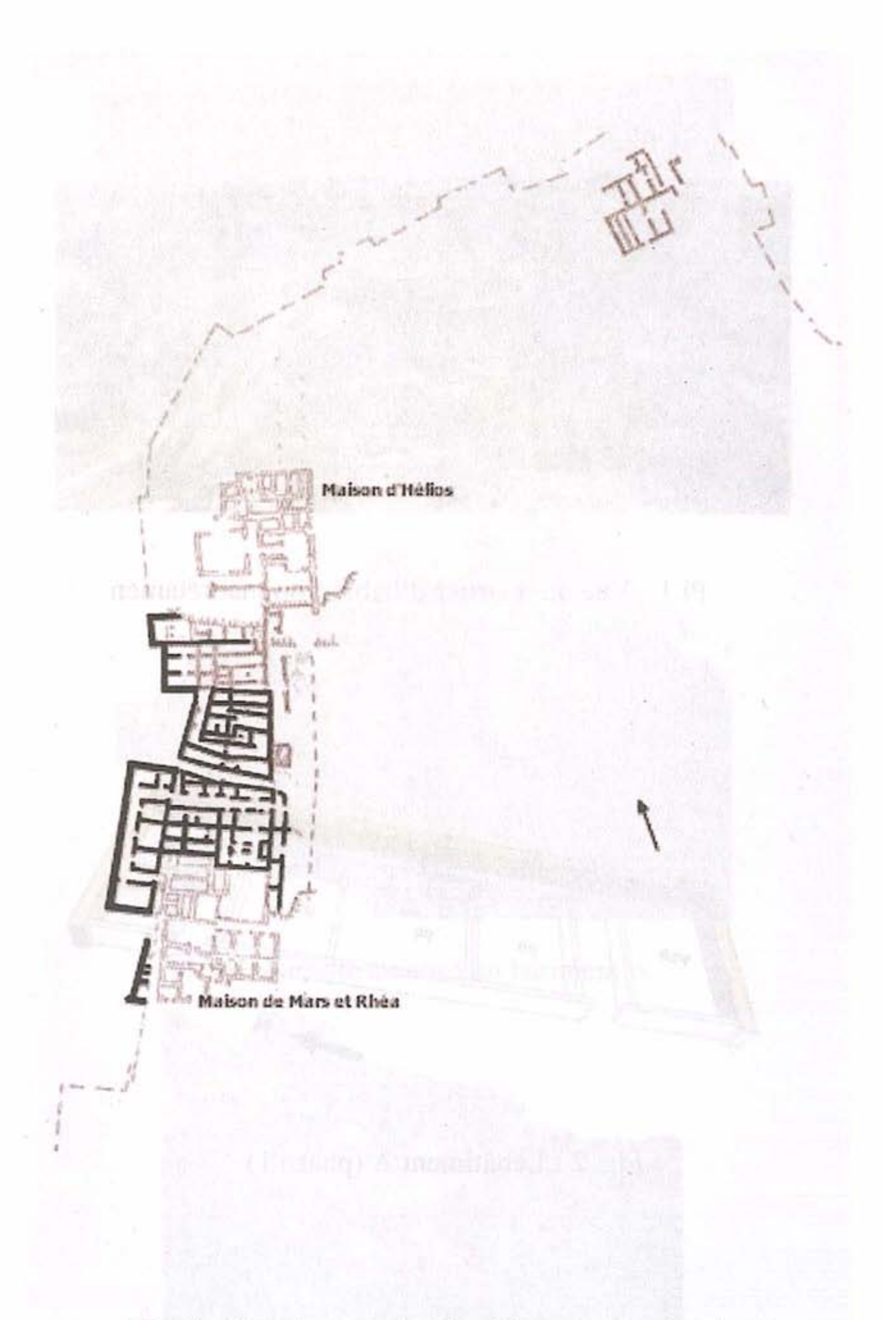


Fig. 1 : Plan du quartier d'habitation maurétanien



Pl.1 : Vue du quartier d'habitation maurétanien

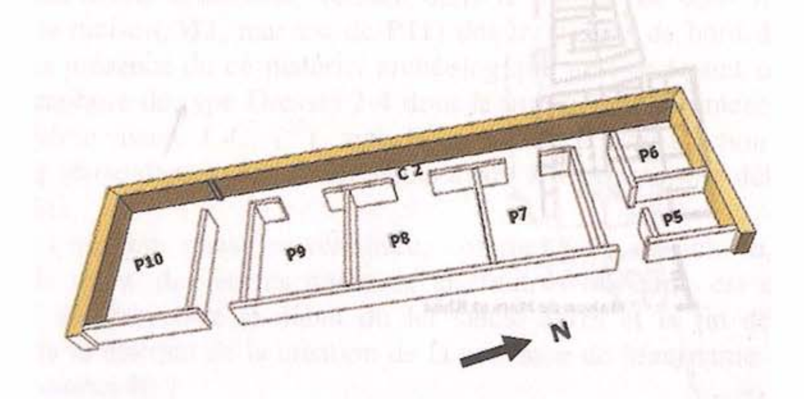


Fig. 2 : Lebâtiment A (phase 1)



Pl. 2 : Vue du bâtiment A (phase 1)



Pl. 3 : Muraille au nord du bâtiment A



Pl. 4 : Muraille à l'ouest du bâtiment A



Pl. 5 : Limite est du quartier : axes d'organisation et de circulation

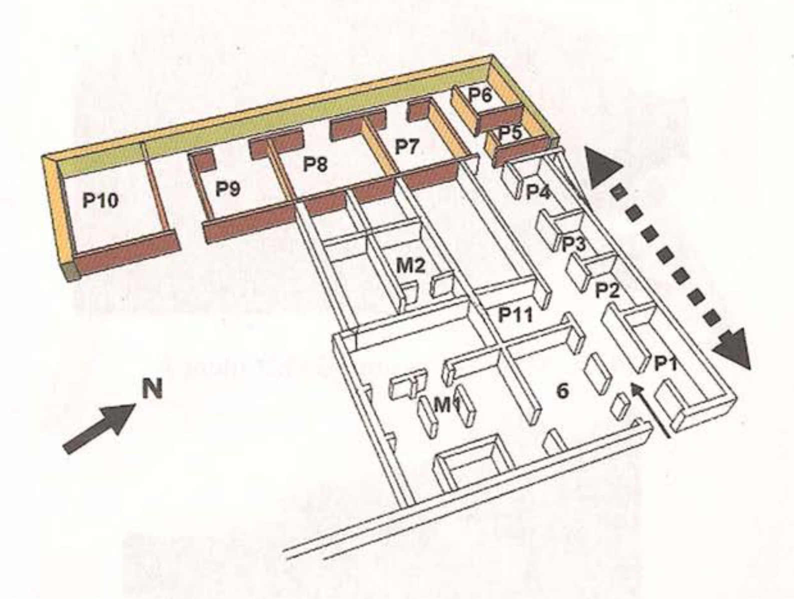


Fig. 3 : les deux phases de la construction de l'îlot
le bâtiment A à l'ouest (première phase) les deux maisons M1 et M2 et la galerie nord (deuxieme phase)

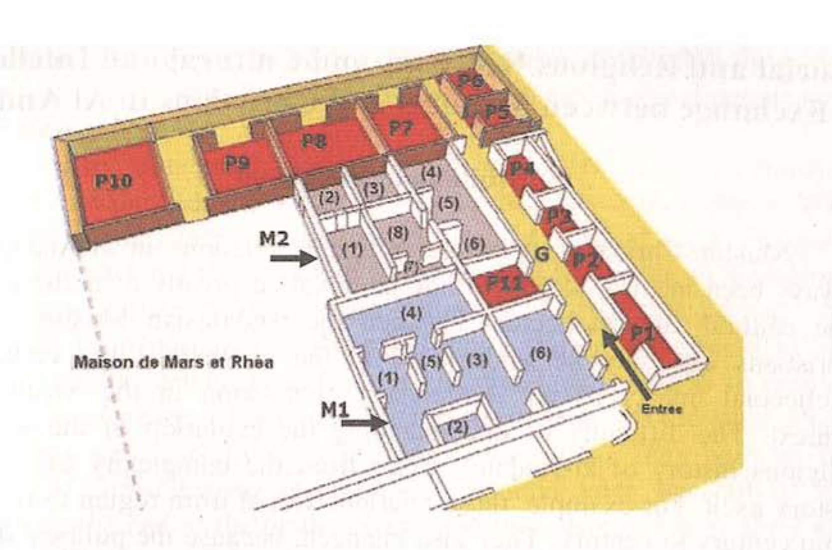


Fig. 4 : Répartition des espaces : les axes de circulation dans l'îlot

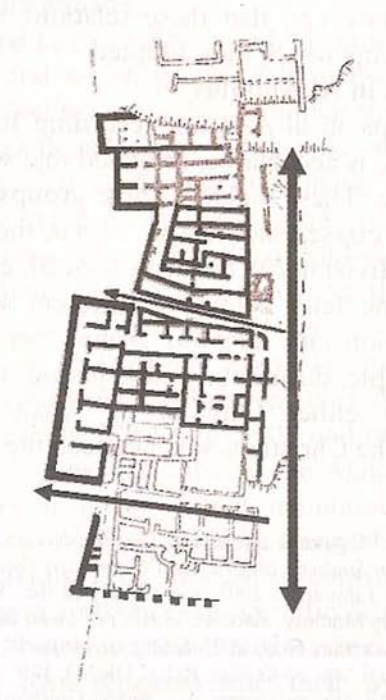


Fig. 5 : Quartier d'habitation maurétaniens (en noir) : Axes de circulation

Social and Religious Relations and Cultural and Intellectual Exchange between Muslims and Christians in Al Andalus

Mhammad Benaboud

Muslim-Christian social and religious relations in al-Andalus have always been intense, although they have varied greatly over the centuries. The cultural and intellectual between the Andalusian Muslims and the Christians can only be understood in the context of the cultural and intellectual impact of the Andalusian civilisation in the Mediterranean context. The difficulty of understanding the evolution of the social and religious history of al-Andalus arises from the complexity of andalusian history itself. For example, these relations varied from region to region and from century to century. They also changed, because the political divisions in Al-Andalus changed over the centuries. These changes affected the very essence of these relations. They also varied according to the historical circumstances. The fact is, however, that these relations never ceased to exist, despite the variety of forms which they adopted.

Socio-religious Groups in Al Andalus

The division into groups in al-Andalus according to faith, such as Muslims, Christians and Jews, is acceptable, provided that we keep in mind that other criteria are possible. These include ethnic groups, such as Arabs and Berbers, social groups or classes such as the *'amma*, the *khassa* and the middle class.[39] The religious division can cut across social, ethnic or cultural criteria when members of one faith belong to different social, ethnic or cultural categories. The division into religious groups can also be divided into sub-categories. For example, during the gothic period, the Christians of the Iberian Peninsula were either Catholic or Arian and the main confessional division among the Christians was between the Trinitarians and

[39] On ethnic groups in Al-Andalus see Mhammad Benaboud. *The Problem of Ethnic Groups in Al-Andalus*. in *Islam in the Middle Eastern Studies : Muslims and Minorities*. Osaka. The Japan Center for Area Studies. National Museum of Ethnology. 2003; For a study of the 'Khassa in Al-Andlus. see Mhammad Benaboud and Angus Mackay. *Alfonso VI King of Leon and Castile. Emperor of the two Faiths: A Rejoinder to Norman Roth.*in *Bulleting of Hispanic Studies.* Liverpool. 1983; Ahmad Tahiri. *Khassat Qurtuba fi 'Asr Al-Khilafa*. Rabat. OKAD. 199 : Other approaches have stressed the tribal elements in Andalusian society. see Pierre Guichard. *Structures sociales 'orientales' et 'occidentales' dans l'Espagne musulmane*. Paris. 1973 : Mhammad Benaboud. *Estructura social en Al-Andalus durante el periodo de los Taifas : la cuestión del tribalismo.* in *Actas del II Coloquio hispano-marroqui de ciencias históricas. «Historia. ciencia. y sociedad »*. Madrid. 1992. pp.63-71 : Mhammad Benaboud. *'Asabiyya and Social Relations in Al-Andalus during the Period of the Taifa States*. in *Hespéris-Tamuda*. Vol.XIX. 1980. Rabat. pp.5-45.

the Unitarians. This division was strongly reflected in the clashes for power in the context of the gothic feudal system. Religion and political power were almost indistinguishable.

The Islamic dimension changed the history of the Iberian Peninsula following the collapse of the Visigoth state in the early eight century. With the introduction of Islam and the creation of an Islamic state, *Hispania* became al-Andalus and the Christian Visigoth state was replaced by Islamic rule in a large portion of the Iberian Peninsula, During this period, Al-Andalus had been part of the Islamic Empire during the period of the governors. With the establishment of the Umayyad state, first as an emirate and then as a caliphate, Al-Andalus became an official Islamic state where the Christians and Jews lived as protected minorities. They enjoyed the status of *Ahl Adh-Dhimma* this status continued after the fall of the Ummayads in the end of the tenth century and their succession by the Taifa states during the most of the eleventh century. In fact this status continued throughout the successive dynasties, including the almoravids, the almohads and the nasrids of Granada.

The first point to clarify is, which groups should we include in the term Christian, and which groups fall in the category of Muslims in al-Andalus? The Muslims were the dominant group, including the rulers and the *khassa* or privileged class, the *'amma* or popular classes the Middle class which included craftsmen, merchants and the *'ulama'* or Muslim scholars. During most of the history of al-Andalus, the majority of the Andalusian Muslims belonged to Sunni Maliki School of law.

The Christians can be classified into the Catholics of the Christian kingdoms of the North and the *Mozarabs* who constituted a Christian minority living in al-Andalus under the rule of the Muslim majority. Although both groups were Christian, they differed in some fundamental aspects. The *Mozarabs* lived peacefully and productively under the Muslim rule of the Andalusians, assimilating the Andalusian culture with Arabic as the main literary language, while maintaining their religious faith and Christian traditions inherited from the Visigoth period.

The Mozarabs: The *Mozarabs* constituted a minority Andalusian group with its own characteristic specific features. They were basically a Christian group, but were considered as heretics by the Catholic Church. They had their own religious rite, their own traditions, marriage was restricted to members of their community and their relations with the Andalusian Muslims differed from that of the Catholic community radically. The *Mozarabs* were a Christian community which was fully integrated in the Andalusian Islamic state, in terms which were very similar to the Jewish community. In Toledo, for example, the *Mozarabs* had their own churches

which were much simpler than the Catholic churches and Cathedrals. They accepted their status as a protected minority or *dhimmis*, and lived accordingly. Politically, some members of the *Mozarab* community were accepted in some courts of the Taifa states like Seville. Only *Mozarabs* could have written some of al-Mu'tamid Ibn 'Abbad's Arabic letters to King Alfonso VI of Leon and Castile.[40] On the other hand, during the initial phase of Alfonso's political relations with the Taifa leaders, some Mozarab scholars served in the court of Alfonso VI of Leon and Castile. Only a *Mozarab* could have written some of Alfonso's Arabic letters to Yusuf Ibn Tashufin or Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad.[41] Their knowledge of Arabic enabled them to play intermediary roles between the Andalusian Muslim rulers of the Taifa states and the Christian rulers of the North. They also played a leading role in orientating Alfonso VI's policy towards the Taifa rulers. They had lived peacefully under the rule of the Taifa rulers, but they tried to reverse their status as a protected Christian minority in a majority Muslim society by a majority Christian society including Catholics and *Mozarabs* with the Andalsian Muslims as a minority group. The *Mozarabs* never considered the idea of expelling the Andalusian Muslims with whom they had lived peacefully over many centuries. However, the project was never completed. Before conquering Toledo in 1085, the *Mozarabs* had considered Alfonso VI as an appropriate future ruler of Al-Andalus. The Taifa kings would become governors under the rule of Alfonso VI. They would continue to exist as a protected Muslim minority in a Christian state. This was indeed Alfonso VI's policy initially. He relied on certain *Mozarab* intellectuals to implement this policy. However the course of this policy changed radically, when the Catholic Church pressured Alfonso VI to adopt a more radical policy. He therefore formulated a policy which consisted in weakening the Andalusian economy by organizing military campaigns against the Taifa states, destroying their harvests and besieging their cities as a means of pressuring them to negotiate peace by agreeing to pay Alfonso VI an annual tribute. Alfonso VI nominated a Mozarab, as the first governor of Toledo following his occupation of this city. However, it was not long before Alfonso replaced the *Mozarab* governor with a radical Catholic governor. Alfonso chose to ally himself to the Catholic Church against the Muslim Taifa rulers. The new objectives consisted in a crusade against the Taifa rulers, the final objective of which was to conquer the Taifa states of

---

[40] See Mhammad Benaboud and Angus Mackay, *Alfonso VI King of Leon and Castile, Emperor of the two Faiths; A Rejoinder to Norman Roth* ,in *Bulleting of Hispanic Studies*, Liverpool, 1981, pp.171-81.

[41] . Mhammad Benaboud, *The Authenticity of Alfonso's Letter to Yusuf Ibn Tashufin*, *Al-Andalus*, Madrid, 1981, pp.233-37.

al-Andalus and to incorporate them into his own kingdom. This objective could only be achieved by war.

When the general policy changed, the attitude of the Catholic Church towards the *Mozarabs* also changed and they came to be considered as members of a heretical rite. Ironically, their fate Vis a Vis the Catholic King of Leon and Castile, became similar to that of the Andalusian Muslims. They had tried to change the nature of the Muslim-Christian relations in the Iberian Peninsula to their favour, but the result was that their new condition as members of a heretical rite in the eyes of the Church, made their condition worse than it had been during the rulle of the Andalusian Muslims.

The fundamental difference between the Mozarabs and the Catholics vis a vis the Andalusian Muslims is that whereas the rulers of the latter considered all Muslims in al-Andalus as their enemies, because they did not share their faith and consequently had to be combated, the *Mozarabs* considered themselves to be part of the same social and cultural system as that of the Andalusian Muslims in spite of their different religious beliefs. Coexistence with the Andalusian Muslims was consequently natural and necessary.

The Andalusian Muslims also approached the *Mozarabs* and the Catholics differently. For the Andalusians, the *Mozarabs* constituted a protected minority in al-Andalus, who enjoyed full religious liberty and represented the diversity of the Andalusian culture and identity. They shared the Arabic language and culture of the Muslim Andalusians and were never considered as enemies because of their religious beliefs. This condition was guaranteed by Islamic law. Like the Jews, the *Mozarabs* were protected by the Andalusian state. Their properties and their people enjoyed specific rights and had specific obligations within the Andalusian state. The laws which were applied to the Mozarabs were the laws which were applied in times of peace, which was not the case with the Catholics with whom the Andalusians were constantly at war.

The Andalusian Muslims approached the Catholic Christians of the North differently. Al-Andalus was almost constantly attacking or being attacked by the Christian kingdoms of the Northern Iberian Peninsula. Both sides mutually considered each other as enemies. Both considered each other as infidels. It followed that war against the infidel was justified. In some cases, aggressive policies against the Andalusian Muslims by the Catilian Catholics were blessed by the Pope himself.

The relationship between the Andalusian Muslims and the Catholics of the Christian kingdoms of the North was never based on dialogue or coexistence, but on crude power. It is important to remember that the

struggles for power in Al-Andalus and in the Iberian Peninsula generally, crossed the confessional borders in the sense that inter-Muslim, inter-Christian and Muslim-Christian struggles should be explained by many factors, of which confession was not always the basic cause.

During the Taifa period, examples abound of non-confessional factors as the main causes behind political and military struggles. For example, Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad of Seville clashed with Muslim Taifa leaders such as those of Cordoba and Ronda which he eventually conquered, and others like the ruler of Granada, with whom he was in constant military confrontations. 'Abd-Allah Ibn Buluggin of Granada wondered how Muslim Taifa rulers like the ruler of Seville could be such deadly enemies of his Taifa state. Alfonso VI of Leon and Castile clashed with his brothers over the succession of their father King Ferdinand, as well as with others like the Cid Rodrigo Diaz el Campeador. Muslims and Christians also clashed, but others were allies like the Cid and the ruler of Saragossa. The political and military relations of the Muslims and the Christians obviously affected their relations at the social, religious and cultural levels. However, these relations were never exclusively subject to clear cut religious divisions, although these were always present and important.

When we discuss social and religious relations between the Muslims of Al-Andalus and the Christians, we refer to the Catholic rulers and inhabitants of the kingdoms of the Northern Christian Kingdoms such as the Kingdom of Leon and Castile, the Kingdom of Aragon, etc...These relations existed between Christian political entities and the political entities of Al-Andalus which varied from one historical period to another. I am referring to the Umayyad State of Al-Andalus during the ninth and tenth centuries, the Taifa States during the eleventh century, the almoravid state during the twelfth century, the almohad state during the twelfth and thirteenth centuries and the Nasrid kingdom of Granada which lasted to the end of the fifteenth century.

In order to clarify the nature of these relations, it is important to cite examples from a specific period. The eleventh century is an interesting period to examine, because it was a period of transition during which the Christian kingdoms of the North consolidated their political and military power, while the Umayyad Caliphate disintegrated and was replaced by a series of increasingly weaker Taifa states.

The Christians of the North.

The relations between the Andalusians and the Christians of the North can only be understood in the context of the political and military relationship between Al-Andalus on the one hand and the kingdoms of the

North which were ruled by kings or counts. Several points need to be clarified.

Firstly, Al-Andalus and the Christian kingdoms of the North must be identified in the context of the evolution of their mutual relations. These mutations should be perceived at various levels:

a. The geographical definition of both al-Andalus and the Christian kingdoms changed over the course of the centuries. While the territory of Al-Andalus shrunk progressively from beginning from the eleventh century the Taifa states replaced the Banu Umayya Caliphate, the territory of the Christian kingdoms expanded, especially that of the kingdom of Castile following its unification with the kingdom of Leon. The kingdom of Leon and Castile grew because of the expansionist military policy of Alfonso VI during the eleventh century and his successors during the following centuries. This conquest of al-Andalus has been referred to by Spanish historians as the *Reconquista* or reconquest of Islamic Al-Andalus. To perceive the magnitude of the territorial loss by Al-Andalus, one could compare the enormous area of the Umayyad Caliphate in the end of the tenth century with the ridiculous size of the Nasrid kingdom of Granada during the end of the fifteenth century prior to the final expulsion of the Andalusians from the Iberian Peninsula in 1492.

b. The temporal dimension of Al-Andalus is equally important to define, because when we speak of the history of Al-Andalus, the term only becomes clear after specifying the period of this history that we are discussing or studying. For example, the political, military and cultural relations of the Banu Umayya Caliphate with the Christian kingdoms of the North differed in many ways from the relations of the Taifa rulers with the Christian kingdoms by the end of the eleventh century. Power had shifted from Andalusian hands to those of the rulers of the Christian kingdoms, especially the king of Leon and Castile. The historical figures of each period also differed. The dynamics of the history of each period also differed.

c. The relations between Christians and Muslims differed from place to place and from time to time. Even though we can legitimately generalise, it is only after specifying the geography and the period of history that we can examine the relations between the Muslims of Al-Andalus and the Christians of the kingdoms of the North profoundly. As the historical context changed, so did the nature of the relations between the Muslims and the Christians. In other words, the essence of the subject matter changed.

d. Having specified the geography, the historical period and the subject matter, one also has to specify the different aspects or dimensions of the subject that he chooses to study. Christians included several categories including Mozarabs, Mudejars, and Catholics. The nature of the general

context changed so radically from period to period that the very definition of Christians or Muslims changed. For example, the Mozarabs constituted a Christian minority in Al-Andalus, but the *Mozarabs* were descendants of the Christians who lived and ruled the Visigothic state prior to the arrival of the Muslims to the Iberian Peninsula. Some *Mozarabs* chose to settle in the Christian kingdom of Asturias in the North. In this case, they should be considered as *Mozarabs* because they adopted the Arabic language and were influenced by the Andalusian culture, not necessarily because they constituted a Christian minority under Muslim rule. However, they did share some cultural features of the *Mozarabs* who remained in Al-Andalus under Muslim rule.

As for the Catholic Christians with whom the Andalusians had relations of different kinds, they too can be problematic, because they lived in different kingdoms in the Northern part of the Iberian Peninsula such as the Kingdom of Leon and Castile, the Kingdom of Aragon, etc... The relations between each of these Christian kingdoms with Al-Andalus varied, so it is not always possible to generalize about the Christian inhabitants of all the kingdoms and regions of the North.

Another difficult aspect of the religious relations between Andalusian Muslims and Catholics of the Christian kingdoms is that their relations sometimes crossed the religious level to include the cultural or social levels. For example, the Catholics usually belonged to political entities that differed from the Andalusian Islamic state. However, once the reconquest of Al-Andalus had advanced, many Muslim inhabitants had to choose between conversion to Christianity or exile across the Straits of Gibraltar. Some were allowed to stay and the term used to describe them is *Mudejars*. They were basically tradesmen or farmers whom the expanding Christian kingdoms needed economically. The Andalusians who converted to Christianity were not accepted automatically as Christians by the old Christians and many problems arose as a result of the suspicions of the Catholic Church and Christian state of the sincerity of their conversion. They called them *Moriscos*. The *Moriscos* were persecuted by the Holy Inquisition, a special court the purpose of which was to try and if found guilty condemn suspicious converts. This infamous institution prospered in all parts of the Iberian Peninsula as well as in some of the cities in its colonies across the Atlantic such as Lima, in Peru. *Moriscos* is a term which has become widespread and which is now used to refer to Muslims who were forced to convert to Christianity whatever their origin. In many cases, Andalusians who lived after the fall of the Andalusian state in the end of the fifteenth century have been considered as *Moriscos*.

The relations between the Andalusian Muslims and the Christians were sometimes determined by the numbers and the proportions of each group. During the Nasrid period, the Andalusian Muslims in the Nasrid state of Granada formed a majority in a society in which a Christian minority continued to live. By contrast, in the Kingdom of Leon and Castile to which many important cities were incorporated during the thirteenth century, including Cordoba and Seville, the rulers and the majority of the population were Catholic, whereas the Andalusian Muslims formed a minority. Ironically, the same Andalusian inhabitants who had previously lived as part a majority, suddenly became part of a Muslim minority in a land ruled by Christians as the last portions of al-Andalus were conquered by the kings of Leon and Castile. In some cases members of the same families were separated with the advance of the moving frontier.

Despite this categorisation, however, the Andalusian Muslims and the Christians enjoyed good relations in general. In most cases the Muslims and the Christians lived peacefully together. However, there are exceptions, especially during times of war. Again, the judgements which apply to one period of history do not apply to another. For example, during the eleventh century, relations between the Taifa rulers of al-Andalus and the Christians of the Kingdom of Leon and Castile were hostile. During this period, Alfonso VI adopted an aggressive expansionist military policy which was aimed at weakening the Taifa states progressively by plundering their harvests as a means of forcing them to pay annual tribute money. This gradually weakened them, in order to eventually facilitate the task of conquering them militarily and incorporating their lands to the Kingdom of Leon and Castile. This policy culminated in the conquest of Toledo by Alfonso VI in 1085 which constituted a deadly blow to the unity of Al-Andalus, followed by the Battle of As-Zallaqa in 1086 in which the Andalusian and Almoravid armies led by Yusuf Ibn Tashufin defeated the Castilian army led by Alfonso VI.

The political and military relations between the Taifa states may be considered by some as unrelated to religious relations, but every aspect of life was related to religion during the medieval period. Alfonso VI formulated his expansionist policy aimed at conquering the Taifa states and was spiritually supported by the Catholic Church and the Pope himself and militarily supported by the French monks of Cluny and Burgundy. Alfonso's alliance with the Church contributed to greatly consolidate his thrown. This explains why he ended his collaboration with the *Mozarabs* following his conquest of Toledo in 1086.

Alfonso's aggressive policy toward the Taifa rulers did not lead to a religious reaction, but the latter were forced to seek a new ally to help them

defend themselves against Alfonso VI. This ally was the almoravid ruler Yusuf Ibn Tashufin and he did combat Alfonso in the name of Jihad, accusing the Taifa rulers of collaborating with the Christian infidel and overburdening their subjects with non Islamic taxes. The confrontation had attained a high level of violence and the Taifa rulers found themselves unable to impose the kind of religious tolerance and cohabitation which was common in their Taifa states. However, it must be indicated that the military confrontation between the Andalusian Muslims and the Christians was not necessarily due to their antagonistic confessions. War between the Taifa rulers was just as common despite the fact that they shared a common faith. The Christian kings of the North were also in war with each other. The deeper political and economic motives constituted the real reasons for military confrontation.

The Andalusian Muslims

The Andalusian Muslims consitituted the essence of Andalusian society. They included members of numerous races and ethnic groups such as the Arabs, Berbers and groups which had ruled the Iberian Peninsula prior to Islam such as the Visigoths and the Romans, or the numerous peoples who settled in different areas of the Iberian Peninsula which later became provinces or kingdoms such as the Basques, the Catalans, the Castilians, the Galicians or the Aragonese. The main common denominator of these peoples following 711 was that they embraced Islam and adopted Arabic as their spiritual and cultural language. The particular characteristics of these peoples melted in Andalusian society which developed a high culture of its own.

The religious approach to Andalusian society is one of many, because historians of Al-Andalus have perceived this society from a variety of perspectives. The only way to explain this problem is by considering the complexity of Andalusian society. Several sociological structural models have been applied to Andalusian society including the feudal, tribal, religious and urban models. As one single society cannot comply with numerous models, the only explanation for this multiplicity of models of social structure applied to one society is its complexity, its mutation and evolution over the centuries. The extraordinary capacity of Andalusian society to incorporate new elements, to adapt to new conditions and to evolve in accordance with internal and external mutations can only be explained by its complexity as well as its singular features on the one hand and contradictions on the other. Another important factor to consider is the unique the changing nature of Andalusian over its eight centuries of existence. Just like the clouds on a light windy day when they change their forms and shapes totally during a short span of a time, Andalusian society

changed so radically over the eight centuries that its social structure during the Banu Umayya period, the period of the Taifa states, the Almoravid and Almohad periods or the Nasrid period changed to the point of becoming unrecognizable from one period to another. The long period of the history of Al-Andalus, its unique development and its interaction at so many levels, internally, with the Christian kingdoms of the North, with the Maghreb or the Mashriq, have all contributed to render Andalusian history unique as a universal culture and civilization. Rather than melting in one society, the Muslim, Christian and Jewish elements were smoothly blended together to constitute one society, which while maintaining all the human weaknesses that are characteristic of all societies, has been able to stand out as a peaceful and tolerant society. This element has contributed more than any other to give it such a universal dimension and to make it so enchanting and emblematic. Few societies in world history have been able to mark so many societies and cultures and to survive in the collective memories and imagination of so many scholars in so many societies and to mark the collective cultural identities of so many peoples, so many centuries after the annihilation of the political and physical existence of a specific culture and society as the Andalusian society and culture have been able to do. As a universal culture, Al-Andalus has thrived after the Christian *reconquista* as it had done throughout its eight centuries of historical existence as a political entity. Al-Andalus has succeeded in assuring its survival of numerous societies which continued to exist long after Andalusian society ceased to exist on Andalusian soil. Andalusian arts and traditions can still be found among the Muslims of the Moroccan medinas of Tetouan, Fez, Meknes, Rabat or Salé. The impact of the Andalusian culture in different parts of Spain such as the eastern areas which was known as Sharq Al-Andalus, but most particularly in the South, in Andalucia, has also been profound. As descendants of the Muslim inhabitants of Al-Andalus, the Christian inhabitants of Andalucia are doubtlessly the most direct representatives of the Andalusian cultural heritage. The Jews too claim the Jewish cultural heritage of Al-Andalus as an important ingredient of their cultural identity and consider such Andalusian Jewish scholars as Ibn Maimun or Maimonides or Ibrahim Ibn An-Naghrilla as important intellectual and religious scholars within the Jewish tradition. Yet it is the Muslim scholars of Al-Andalus who have received international recognition who are most representative of the Andalusian tradition of tolerance, such as Ibn Hazm, Ibn Rushd or Ibn 'Arabi among numerous others. Each one of the above mentioned scholars is in some way a product of interaction between Islam and Christianity or between Muslims and Christians. Ibn Hazm is the author of a pioneering work on comparative religions in which

he compares Islam to several other religions including Christianity and Judaism. Ibn Rushd represents Andalusian philosophy in its purest universal sense. Ibn 'Arabi, a leading Andalusian mystic has been acclaimed by Muslims and Christians alike.

I. Muslim-Christian Intellectual Exchange in Al-Andalus

Cultural relations between the Muslims and the Christians were extremely strong throughout the history of al-Andalus, but they developed very strongly during the beginning from the eleventh century when the Taifa Kings dominated the political and cultural sphere. These relations should be clarified because of their complexity. The political, social and cultural relations of the Andalusians with the Mozarabs differed from their relations with the inhabitants of the Christian kingdoms such as Castile, Leon, Aragon, etc.. The Mozarabs formed a religious group which followed the Mozarab rite and they lived under the Islamic rule of the Andalusians as a protected minority which enjoyed the rights of *Ahl Ad-Dimma*,

I. Social relations

Social relations between the Muslims and Christians of Al-Andalus stand out for their human dimension. Like the social history of Al-Andalus in general, these relations were unique and reflect, perhaps more than anything else, the rich if contradictory nature of Andalusian society.

The best way to portray these relations is by examining some examples which reflect the reality of Andalusian society. These relations respected the general rules, but often broke many of them. For example, Muslims married each other and Christians married each other as a rule, but some Andalusians married Christian maidens. Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad's famous wife, I'timad Ar-Rumiqiya was originally a concubine who belonged to a Christian master as can be seen from her name. One of Alfonso VI's wives was a Muslim Andalusian named Zayda. Al-Mansur Ibn Abi 'Amir's wife was a Christian. She was the mother of his hereditary prince. The Christians and Muslims of Al-Andalus lived in one society where intermarriage by some of different denominations was a natural consequence. Christian and Muslim lovers sometimes allowed their passions rather than their minds to determine their choices as is illustrated in poetry, where a Muslim Andalusian lover praised the trinity in reference to his beloved Christian maiden.

The Mozarabs were strongly influenced by the Andalusian culture and this is reflected in their religious icons representing Jesus Christ in the form of an Andalusian Caliph wearing a turban and an Andalusian robe, or in the Mozarab youths who composed poetry in Arabic as was fashionable among the Muslim Andalusian youth of the time, much to the disappointment of the Christian priests who expected them to use Latin. The impact of the

sophisticated Andalusian culture and art on the Christian kingdoms was equally strong. The Christian kingdoms were militarily superior to the Andalusians, who were also inferior in this respect to their Northern neighbours, which is why they were threatened from both directions.

In the professional world, Mozarab scribes and secretaries worked in the courts of some Taifa rulers like Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad and also in the court of Alfonso VI. Only a Mozarab secretary could have written the text of Alfonso VI's famous letter to Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad, describing Alfonso as "Al-Imbratur Zu-l-Millatayn" alluding to his claims over the entire territory of Al-Andalus.

More realistic are the historical texts of the Andalusian sources referring to the bitter conditions of the Andalusian Muslims in their political and military confrontation of the advance of the Christian armies into Muslim Andalusian lands. There is a reference in the biographical dictionaries to an old Andalusian who fled to Seville from Cordoba prior to its occupation by the Christians, then he fled from Seville prior to its occupation over a decade later, he kept fleeing as the Christian armies advanced until he ended up in Jaen. All of this occurred during a span of one life time. The biographical dictionaries also describe the advance of the Christian armies against Al-Andalus in poetical terms, such as a sea of crosses advancing towards some of the cities which were conquered.

The clashes between some the Christian rulers with some of the Taifa rulers reflect the bitter aspect of Christian-Muslim relations, which were more in line with the general historical course in times of war. When Alfonso VI besieged Toledo which he eventually occupied, the Muslim inhabitants of this city went through a terrible experience. The siege which the Cid Rodrigo Diaz held against Valencia led to some dramatic scenes. Starvation in Valencia as a result of the siege led to an uncontrolled rise of prices when a mouse was sold for a silver dirham. Those who attempted to escape and were trapped underwent terrible procedures of torture. Some were castrated, while others had the bones of their legs broken and their eyes literally plugged out.

Once these cities surrendered as a result of long negotiations, the victors broke all the promises. When Alfonso VI occupied Toledo, he immediately broke his promise of respecting the right of the Andalusian Muslims to worship freely by transforming the Great Mosque of Toledo into a Cathedral. The dramatic scene of this event is emotionally described by Ibn Bassam who was contemporary of the period. Alfonso VI's Castilian army waited outside of the mosque not wanting to interrupt a young student

who read passages from the Quran to his master.[42] When Valencia surrendered to the Cid Rodrigo Diaz, he immediately ordered the Andalusian faqih Ibn Jahhaf who had led the resistance to be publicly burned alive along with his women and children. The latter's lives were spared, but Ibn Jahhaf was buried to his waist in a public square and publicly burned alive.[43] Similar scenes described in detail in some Andalusian documents. One example is the description by the Faqih Al-Hawzani of the Viking attacks on the Eastern part of A-Andalus. [44]

However, the horror of these scenes is common of similar scenes of war, regardless of the religion professed by the warriors. There are equally horrific scenes in the wars between Muslim rulers or between Christian rulers. When the Muslim armies advanced into Christian lands, they were equally merciless, but we have a clearer picture of the Christian attacks because the Christian armies had become increasingly more powerful from the eleventh century onwards, and because Andalusian historiography had become extremely highly developed beginning from the eleventh century, while it took centuries to develop in the Christian kingdoms. There was no counterpart of Ibn Hayyan, Ibn Bassam and Abu 'Ubayd Al-Bakri in Christian Spain.

However, social relations between the Christians and Muslims of Al-Andalus were neither ideal, as is sometimes portrayed by historians who overstress the peaceful coexistence in Al-Andalus, nor violent and bloody as portrayed in some accounts of the permanent wars which plagued Al-Andalus. These relations reflect the reality of the history of Al-Andalus which included periods of peace as well as war.

The social Christian-Muslim relations in Al-Andalus must be examined at many levels to form a clear picture of the reality. They can only be appreciated in the context of a variety of themes including inter-marriage, slavery, trade, traditions and religious beliefs. Trade in Al-Andalus included members of all confessions. This trade of objects also included trading people. The Andalusian Muslim bought and sold slaves from Africa, as well as the *Saqaliba* or Slavs who were white Christian slaves probably from Europe. The notion of slavery in Al-Andalus is different from that in medieval Europe. The Andalusian caliphs of the Banu Umayya period were very fond of the *Saqaliba* who were eunuchs. Members of these *Saqaliba* became very influencial in the courts of the Banu Umayya rulers. Following

---

[42] Abu-l-Hasan 'Ali Ibn Bassam Ash-Shantarini, *Adh-Dhakhira fi Mahasini Ahl Al-Jazira*, Ed. Ihsan Abbas, Libya-Tunis, 1979 pp.168

[43] Ibn Al-Kardabus, *Kitab Al-Iktifa'*...., Ed. by Ahmad Mukhtar Al-'Abbadi, Madrid, 1971, pp.37-38.

[44] Mhammad Benaboud, *Jawanib mina At-Tarikh al-Andalusi fi-l-Qarn al-Khamis al-Hijri*, 2nd. ed., Tetouan, 1999, pp.111.

the breakdown of the Caliphate, some some of the Taifa rulers were originally *Saqaliba* such as the Taifa ruler of Denia.

The image of Muslim-Christian relations in Al-Andalus has often been idealised and the personal dimension of the historians has sometimes played an important part in exaggerating historical reality. However, we can form an image that is closer to reality by relying on historical texts which were produced by this reality. The *nawazil al-fighiyya* were meant to present problems emanating from the socio-economic reality of Al-Andalus and as such, they are most reliable for studying historical social themes including the relations between Muslims and Christians. The *Nawazil Ibn Al-Haj* constitute an excellent example of such a source. Ibn Al-Haj died in the early part of the twelfth century (529 A.H.) and was therefore able to reproduce extracts from decrees by Cordoban jurists of the eleventh century, making it possible for historians to relate the historical texts to the historical reality.

The information which can be extracted from Ibn Al-Haj concerning Muslim-Chrisitan relations is unique. Ibn Al-Haj cites some extremely original cases which reflect the legal arguments for judging unprecedented cases which related to daily contact during the eleventh century between Muslims and Christians in Cordoba and which stress the following points:

1. Islamic Maliki law guaranteed the rights of the Christians in cases where they conflicted with Muslims and made a clear distinction when treating Christians of Chrsitian dimmis as being more privileged than non *dimmi* Christians. The case of two Christians in Al-Andalus, only one of whom was a *dhimmi*. The judge did not condemn the *non-dhimmi* Christian who had not regulated his situation, because he had not been informed by his coreligionist of his duties as a *dhimmi*.[45]

2. The fairness of some judges who issued decrees on issues involving conflict between Muslims and Christian sis clear in the case of the Christian who bought a beast, probably a horse which had been stolen from a Muslim Andalusian who recognised his animal and claimed it as his own. The judge examined the arguments of the Andalusian for claiming the mule, he then made him swear that the mule was his, and the judge decreed that the Andalusian should take his mule. The Christian then recurred to a higher judge, who happened to be the famous Ibn Rushd who reexamined the case. Ibn Rushd decided that the Christian should have the mule returned to him, but that he should pay a small fine to cover the expenses for maintenance of the mule during the period when the Andalusian took it. Ibn Al-Haj states

[45] Abu-'Abd-Allah Ibn Al-Haj, *Nawazil Ibn Al-Haj*, Uncatalogued manuscript, Aal 'Ashur Private Library, Tunis, p.16.

that Ibn Rushd consulted him on the matter and that he agreed with Ibn Rushd's decree, which was applied. This is a good example of how meticulous the Andalusian judges and how hard some tried to be fair and just.[46]

3. Some cases between Christians and Andalusian Muslims illustrate how political power was not above Maliki Islamic law in eleventh century Al-Andalus. Such was the case of the Andalusian who wanted to sell a Christian as a slave to the Amir 'Ali Ibn Yusuf. Ibn Al-Haj decreed that the Christian captives complied did not break any of the rules required to comply to the legal status of *dhimmis*, so the ruler did not have the right to buy them as slaves. Abu 'Abd-Allah Ibn Al-Haj, Nazwzil Ibn Al-Haj, Ms. *Azarif*, not catalogued, pp.104-105.

4. In cases between Chrisitans and Andalusian Muslims, Maliki Islamic law was applied by judges in Al Andalus in a way set by Islamic laws in Dar al Islam, while respecting the Christians. The case of a Christian who wrote a will donating all his properties to a Church in Dar al Islam. Ibn Al-Haj decreed that only one third would go to the Church to respect the Chrisitan's will, but two thirds must be given to Muslim charity which would have been the case had the will been made by a Muslim. It was added in the decree that had the Christian's will been that his property go to a mosque, this would not have been acceptable. [47]

5. Some cases affected relations between Muslims when attacked by Christians. Such was the case when the Christians attacked the fortress of *Shaqura*. An Andalusian used his neighbour's horses to try to escape, but was followed by the Christian soldiers, whom he succeeded in evading after abandoning his neighbour's horse which was taken by the Christians. His neighbour later demanded that he reimbourse the horse, but the judge decreed that he was not obliged to do so, because of the circumstances in which he had to use his neighbour's horse.[48]

6. Some cases confirm the recognition by Maghribis of of some Andalusian jurists as leading specialists in matters relating to relations between Muslims and Christians, given their rich experience in Al-Andalus in matters relating to Muslim-Christian relations. One of these cases relates to a group of Christians in Al-Andalus who crossed the Straits of Gibraltar to settle at Marrakech at the demand of the almoravid ruler the Amir Ali Ibn

---

[46] . Abu 'Abd-Allah Ibn Al-Haj. *Nawazil Ibn Al-Haj*, Ms. Azarif Mosque Library in the Sous region, Morocco, not catalogued, p.83.

[47] Abu 'Abd-Allah Ibn Al-Haj, *Nawazil Ibn Al-Haj*, Ms. Azarif Mosque Library, Sous, Morocco, p.186.

[48] Abu 'Abd-Allah. *Nawazil Ibn Al-Haj*. Ms. Azarif Mosque. Sous. Morocco. Not catalogued, p.53

Yusuf Ibn Tashufin. They asked him for permission to build for their private worship. He sent a letter to Ibn Al-Haj asking him for legal advice on the matter, to which the latter decreed that the Christians could build one church for their worship, but that the church could not have bells. The Chrisitans had to be allowed the right to worship as decreed by Islamic law. However, the Andalusian Muslims feared that the Christians might collaborate with the Christians of the North with whom they were at war. The church bells were perhaps associated too strongly with the Christians of the North. [49]

7. That these cases illustrate the reality of social life in Al-Ancalus, how the judges tried to apply Maliki Islamic law, and the different types of new social conditions reflecting relations between Chrisitians and Muslims, and how the law was adapted to this new social reality. Almost all the cases. One of the most interesting cases is that of an Andalusian who agreed to write his house in the name of his Christian wife if she converted to Islam, to which she agreed. However, she died before the legal procedures for her ownership were made. The judge decreed that the house belonged to her heirs. [50]

These cases took into account the minutest details of the cases at the level of application, because each decision which was taken had to be justified by legal arguements. This applies to each case. Sometimes, different arguments were presented to justify different or even opposed conclusions, because the nawazil were meant to serve as juridical manuals for cases which had not been common, but which appeared as a result of the social mutations which characterised Andalusian and Maghribi society.

II. Religious relations

Malikism

Malikism, constituted the legal and juridical framework for religious activities in Al-Andalus. This school of law which was established in Medina by its founder Malik Ibn Anas during the second century of the Hijra, flourished in the Maghreb and Al-Andalus during many centuries. Many generations of fuqaha' contributed to enrich the development of this school of law which was able to survive because of its ability to adapt to the new socio-economic conditions in both the Maghrib and Al-Andalus. Malikism was not restricted to the original teachings of Malik Ibn Anas and the first generation of his disciples in Medina, but flourished in the context of the social development of Maghribi and Andalusian society over a broad range of time. Of the numerous works by eminent Maliki scholars, of whom

---

[49] Abu 'Abd-Allah Ibn Al-Haj, *Nawazil Ibn Al-Haj*, Ms. Azarif Mosque, Sous, Morocco, Not catalogued, pp.48-49.

[50] Abu 'Abd-Allah Ibn Al-Haj, *Nawazil Ibn Al-Haj*, Ms. Ben Yousef Library, Marrakech, p.160.

the Abu-l-Walid al-Baji who lived during the eleventh century was the most eminent in Al-Andalus and of whom Al-Qadi 'Iyad was the most prominent in Morocco, the most representative work of Maliki scholarship is perhaps Al-Qadi Iyad's bio-bibliographical dictionary entitled, *Kitab Al-Madarik wa-l-Masalik.* This book studies the biographies of Oriental and Occidental Muslim scholars of the Maliki rite up to the twelfth century. It is perhaps the best rhetorical defense of Malikism produced the Islamic West. It is important to note that the huge number of Maliki scholars and jurists contributed to the development and evolution of the Maliki rite of law as we know it today. Malikism is in the final analysis the result of the intellectual contribution of numerous generations of scholars, especially Maghribi scholars from Ifriqiya to Al-Andalus.

Malikism has been portrayed differently by different scholars. E. Lévi-Provençal's image of Malikism is that of an oppressive, stagnant and reactionary official school of law which constituted a major obstacle to the development of free thought and progress in Al-Andalus. Yet, this perspective is far from reflecting reality. Here are some of the arguments illustrating the importance of the contribution of Malikism in Al-Andalus, not only as a legal framework, but also as the major intellectual and spiritual framework within which Andalusian society and culture developed in the most universal sense known during the medieval period.

Firstly, Malikism was an official rite of law during the Banu Umayyad, the Taifa and the Almoravid periods, but it was also the most popular rite in Al-Andalus, because the 'ulama' and fuqaha' who promoted it emanated basically from the lower social classes. The State therefore made it official in order to associate itself with the popular support of the most dynamic school of law in Al-Andalus.

Secondly, Malikism showed great flexibility when it succeeded in adapting to the social mutations of Andalusian society over the centuries and this is clear from the numerous works on fiqh an-nawazil by Maliki scholars such as Ibn Al-Haj's Nawazil where many cases are presented related to social, economic and spiritual problems ranging from monetary and urban issues to others relating to women and relations between Muslims and Christians. The extraordinary mutations of Al-Andalus as a multi-confessional society are solidly documented by these works.

Thirdly, it was under Malikism as an official and most popoular rite of law in Al-Andlaus those relations between the Muslims and the Christians on the one hand and relations between the Muslims and the Jews in Al-Andalus reached the peak of peaceful coexistence and mutual harmony. Poets, philosophers, craftsmen, traders and even ministers and official envoys to other distant kingdoms included Muslims as well as Chritisians of

Al-Andalus. They flourished within the legal and intellectual framework of Malikism.

Fourthly, Malikism was also the framework of the educational system which flourished in Al-Andalus. The Christians and the Jews developed their own educational institutions, because religion was a fundamental ingredient of the educational system, so that each confessional group had the liberty to develop its own educational system. However, Andalusians of all confessions shared common education in non-religious disciplines ranging from language and literature to philosophy and mathematics. It was within the context of Andalusian culture that the intellectual prominence of Andalusian scholars of so many disciplines was not limited to Muslims but included Christians and Jews. This was particularly true during the eleventh century when the Taifa rulers opened their courts to scholars of different backgrounds incorporating Mozarab administrators in such Taifa states as Seville and Jewish ministers in the Taifa state of Granada. Intermarriage crossed confessional borders contributing to increase the trend of coexistence in Al- Andalus.

It is important to understand the general context of the intellectual and cultural Al-Andalus to which both the rulers and the people contributed to create a unique society where the three religions co-existed, creating a model which posterior generations failed to follow.

Al-Andalus was therefore a land of mosques, churches and synagogues. In cities like Toledo, the old capital of the visigoth state, Seville and Cordoba, mosques, churches and synagogues served the religious necessities of believers of each of the three confessions. It was most particularly a land of Muslims, Christians and Jews where the majority was Muslim, but where the minorities were able to flourish and to contribute to enrich the common Andalusian culture.

However, this state of affairs should not be seen in abstract and absolute terms. Conflict between the Muslims and members of other confessions sometimes reached dramatic proportions, because they were all human. These conflicts also existed between members of the same confession. The important point to retain is not that Andalusian was advanced in the light of modern criteria which are totally unrelated to the historical context of the time. The fundamental issue here is that the nature of the inter-religious relations between members of Andalusian society did not exist in neighbouring societies of Al-Andalus. Neither the Christian kingdoms of the North, nor the Maghribi society in the South developed the harmonious social and cultural relations that characterised Al-Andalus. Non-Muslim minorities, especially the Jews lived in Morocco, but they differed radically from the situation in Al-Andalus because the degree of

cultural sophistication attained by Al-Andalus was unequalled in the Islamic West. It began to develop in the Maghrib following the fall of Al-Andalus and the immigration of Andalusians to the most urbanised cities in the Maghrib.

The cultural superiority of Al-Andalus consequently had a strong impact on the nature of the relations between the Andalusian Muslims and the Christians of the Iberian Peninsula, especially at the religious level with its implications on the social and cultural levels. It is impossible for any historian to discuss this issue without departing from certain value judgements. The situation would appear differently when viewed from a Muslim, Christian or Jewish perspective, because each would concentrate on its own criteria.

However, there is no doubt that Muslim-Christian relations in Al-Andalus were unique from the comparative perspective. The rights and duties of the *dhimmis* in Al-Andalus have been presented as unjust by some Western scholars, but in the medieval historical context, the condition of the Christians and Jews was privileged compared to the condition of the Muslim in the Christian kingdoms or in the Andalusian cities after they were occupied by the Christians who immediately issued urban laws for regulating the newly conquered cities by the conquerors. These laws were called *repartimiento* and restructured the urban administration of the conquered cities. Medievalists have studied the *repartimiento* of important cities like Cordoba and Seville during the thirteenth century and the main objective was clearly to administrate these towns where the Muslim society in Al-Andalus would be eventually replaced by a victorious Christian society. The Andalusians who were defeated had to choose between exile and forced conversion. A new institution was created by the Catholic Church, the Inquisition, which was a religious court the main objective of which was to supervise the sincerity of these new conversions and to try and punish false converts by torture or the death penalty.

Compared to the Muslim society of the Maghrib, Andalusian society was much more open and tolerant given the strong contact with the Christians. However, the Andalusians paid a heavy price for neglecting the military institution, which was weak compared to the Christian military apparatus of the Christian kingdoms who threatened them from the North. This neglect could perhaps best be explained by the fact that the Andalusians built their urban culture without considering the possible threats from the North or from the South, but these threats both became a reality when Alfonso VI of Leon and Castile conquered Toledo in 1085 and the Almoravids led by Yusuf Ibn Tashufin conquered most of the Taifa states of Al-Andalus following his victory at the Battle of Az-Zallaqa the

following year. The disintegration of Al-Andalus was the result of a long term process which consisted in the contrast between the civil orientation of Andalusian society and the militarization of Christian society in the North, especially Castilian society. This process was supported by the alliance between the crown of the kingdom of Leon and Castile and the Catholic Church. The political power of the kingdom of Leon and Castile was strengthened by its alliance with the Church which was enriched by its possession of large areas of land. The military apparatus therefore had a powerful ideological mission to complete which consisted in incorporating Al-Andalus. This was made possible because of the military organisation of Christian society in the North where the possession of a horse and a sword determined the social status of an individual. The external support for Alfonso VI's crusade included the participation of monks from Cluny and Burgundy as well as the spiritual support of the Pope. With the conquest of the Taifa state of Toledo, Alfonso VI had set the pace for the *Reconquista* which advanced significantly with the conquest of the most important cities of Al-Andalus like Cordoba and Seville during the first part of the thirteenth century reducing Al-Andalus to the Nasrid kingdom of Granada which collapsed in 1492.

The political and military relations of Al-Andalus with its neighbours are not sufficient to explain the unique development of its culture and the coexistence of the three religions in a unique manner. For me, one strong explanation for the development of this historical phenomenon is the continuous contact which the Andalusians maintained with the Mashriq. The Andalusians adopted Arabic as their main language. All the Muslim Andalusian scholars wrote their works in Arabic including such eminent figures as the historian Ibn Hayyan, the philosopher and jurist Ibn Rushd, the faqih Abu-l-Walid Al-Baji, the poet Ibn Zaydun or Al-Mu'tamid Ibn-'Abbad or the literary figure Ibn Al-Khatib. Contact with the Maghrib and the Mashriq increased when Al-Andulus became part of the almoravid and almohad states. The Chrisitans and Jews of Al-Andalus also wrote in Arabic. Ibn Maimun is a good example. Further, many of the works which were written in Spanish when this language developed as a written language during the thirteenth century were based on translations from the Arabic Andalusian sources. The *Primera Crónica general de España* which was compiled by King Alfonso X and Sancho IV is an excellent example.

Along with language, Malikism was also imported from Arabia. However, the Andalusians stood out for their incredible capacity to adapt cultural elements of the Mashriq to the conditions in Al-Andalus. Consequently, Malikism as it developed in Al-Andalus to suit the religious

and worldly needs of society were much more sophisticated and complex than Malikism in its primitive state during the period of Malik Ibn Anas.

Yet it is the development of a unique society in Al-Andalus with a unique cultural heritage and identity which marked the history of the medieval period in the entire Mediterranean area, both during the existence of the Andalusian state and its posterity. The impact of Andalusian society and culture on the minds of numerous societies across the Mediterranean world has lasted for centuries and continues today. This universal culture has marked the history of many societies across the Mediterranean world. Al-Andalus is so emblematic because it was a state and a culture, but most important, it was a society which succeeded in transmitting its culture to posterity giving it a continuity which very few societies have known. Religion was fundamental, because it touched every aspect of life, not only for the Andalusian Muslims, but also for the Christians. Hence its importance for understanding the nature of Muslim-Christian relations in Al-Andalus.

III. Cultural and Intellectual Exchange

Intercultural exchange between the Muslims and Christians of al-Andalus were extremely prosperous. The *Mozarab* Christians of al-Andalus formed part of Andalusian society, despite their different faith. They tended to concentrate in some cities, especially Toledo.

The most fundamental factor which explains the powerful impact of the Andalusian culture on the *Mozarabs* is that they formed part of Andalusian society. The *Mozarabs* lived side by side with the Muslim Andalusians while maintaining their own cultural identity as a confessional community. This peaceful coexistence of the Muslims and Christians of Al-Andalus as well as the Jews, has been described by Américo Castro as *convivencia*, which means living together in peaceful coexistence.

They were as Andalusian as their Muslim counterpart. To clarify this situation, we could compare them to the Arab Christians in the Lebanon, Syria or Palestine, who are Christian Lebanese, Syrians or Palestinians. They shared many elements of Andalusian cultural identity. They spoke the same dialect and used Arabic as the main cultural language. They were also strongly inspired by the Andalusian Muslims in their art and architecture. For example, some of the *Mozarab* churches in Toledo reflect similar elements which can be found in Andalusian mosques. The simplicity of the Church of San Lucas in Toledo is a significant example. The construction materials consisting mainly of bricks and limestone, the construction techniques and the architectural structure of the church are similar to those used in some mosques. The influence of Andalusian art is also clear in some Mozarab icons, like those presenting Jesus Christ with a halo around his

head, wearing elegant robes like those used by the Andalusian caliphs. The widespread use of Arabic as the most fashionable cultural language led some Mozarabs to compose poetry in Arabic, for which they were sharply criticized by priests who considered Latin as the more proper language for Christians. During the eleventh century, eminent Mozarab scholars joined the court of Alfonso VI and only they could have written some of his letters addressed to the Taifa leaders like Alfonso VI's letter to Al-Mu'tamid Ibn 'Abbad, king of Seville, asking him to surrender Seville to him.

The cultural and intellectual impact of Al-Andalus on the Christians inside and outside of Al-Andalus was enormous, because the Andalusian culture is one of the most sophisticated, unique and universal cultures in the world. During the tenth to the thirteenth centuries, the Andalusian culture was one of the most highly developed in the world, while the culture of the Chrisitan kingdoms in the Iberian Peninsula was local and extremely limited. Some of the images of the Christian rulers of the eleventh century in contemporary Andalusian texts present them reflect the cultural superiority of the Andalusians visi a vis the crude behaviour of the Christians. For example, In his *Kitab al-Masalik wa-l-Mamalik,* the geographer Abu 'Ubayd Allah Al-Bakri refers to the Galicians, meaning Christians of the North, as filthy people who never wash with warm water and change their clothes once a year, but who are terrifying warriors. Ibn Bassam describes a scene where Alfonso arrogantly received envoys from the Taifa rulers who brought him presents. Alfonso occasionally slept and snored, before waking up to receive envoys who presented him with precious gifts from such prestigious Taifa kings as the rulers of Seville, which he accepted while showing disdain. [51].

The military and political superiority of the Christian kingdoms of the North over the Taifa states in Al-Andalus formed a sharp contrast with the cultural superiority of Al-Andalus over the Christian kingdoms. This cultural superiority becomes clear, for example, if we consider that while the Andalusians had developed the Arabic language as their official cultural and religious language producing Arabic works of excellence in a variety of fields such as the dozens of Andalusian poets and literary figures included in Ibn Bassam's literary anthology *Adh-Dhakhira fi Mahasini Ahl Al-Jazira*, the Christian inhabitants of the North used Latin mainly for strictly religious purposes, while Spanish would not develop as a written language until the thirteenth century with in such fields as historiography;

[51] Abu-l-Hasan 'Ali Ibn Bassam Ash-Shantarini, *Adh-Dhakhira fi Mahasini Ahl Al-Jazira*, Ed. Ihsan Abbas, Libya-Tunis, 1979, pp.165-167.

The impressive corpus of literary, historical, juridical, geographical, agricultural, political, philosophical, sociological and scientific works which were produced by such outstanding minds in the cultural and intellectual history of Al-Andalus as Ibn Hazm, Ibn Zaydun, Al-Baji, Ibn Bassam, Ibn Hayyan and Ibn Al-Kardabus, had no counterparts in the Christian kingdoms of the eleventh century. During the following centuries, the names of intellectual Andalusian Muslim thinkers like Ibn Rushd known in the West as Averroes and Andalusian Jewish intellectuals in the calibre of Ibn Maimun known in the West as Maimonides. During the eleventh century, while Andalusian historiography reached the peak of its development, in terms of quantity and quality, there was no Spanish historiography in the Christian kingdoms of the North. When the latter first appeared during the thirteenth century, it consisted to a large degree of translations of Andalusian Arabic historical works. Even later works in Spanish on this period are rare, and are limited to the *Poema de Mio Cid* and the *Primera Crónica general de Espana.* This is not to deny the importance of the

The cultural and intellectual impact of Al-Andalus was great, but it can only be understood properly when placed in its correct historical context. The Andalusian culture developed over the centuries in different ways, but it always succeeded in standing out. There was interchange between the Andalusian Muslims and the Christians both inside and outside of Al-Andalus, but this was not a relationship between equal partners. The cultural superiority of the Andalusian Muslims was not only clear vis a vis the Christians and the Jews, but also vis a vis other Muslim communities in the Mediterranean world ranging from the Maghrib to the Mashriq. For a multiplicity of reasons on which historians disagree deeply, Al-Andalus was able to breed a unique culture which had a universal impact, not only during the existence of Al-Andalus as a political and military entity, but even during the centuries following its collapse as a state. The Andalusian culture has been able to form an intrinsic cultural ingredient of the collective identity of societies ranging from the Moroccan medinas of Andalusian origin like Tetouan, Salé, Rabat or Fes, to societies in cities in Algeria, Tunisia or Libya. The Jews of the Maghreb consider the Andalusian culture as a part of their cultural and spiritual heritage. The Christian inhabitants of key cities in Andalucia like Seville, Cordoba or Granada and others in Portugal like Mertola consider the Andalusian elements as an essential part of their cultural heritage. From Tetouan to Granada, the traditions, cultural values, the educational systems, music, cuisine, traditional arts and crafts, intellectual production, urban development and architecture are originally Andalusian.